

حديث شهر رمضان

آية الله الشهيد السيد حسن الشيرازي (قدس سره)

صلاة الفاتحة

اللهم، سلّمنا لشهر رمضان، وسلّمه لنا، وسلّمه منا.
 اللهم، أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والعافية المجلّة، والرزق الواسع، ودفع الأسقام،
 وتلاوة القرآن، والعون على الصلاة والصيام.
 حتى ينقضي شهر رمضان، وقد غفرت لنا (١).

دعاء

إلهي: لقد أكرمتنا بشهرك العظيم: (شهر رمضان المبارك) وها هو قد غمرنا بكل بهانه وجلاله، فأيقظنا
 بالأنسام اللعوبة التي تبعثها في أسحاره، ونور قلوبنا الذابلة بقرآنك الذي أنزلته على قلب حبيبك محمد (صلى
 الله عليه وآله وسلم) في هذا الشهر، ولا تجعلنا من ضحايا الأهواء والأوهام، بالأقدار التي تقدرها في ليلة القدر
 تقديراً.

أي ربّ: لقد فتحت نوافذ الربيع على المساجد، ففتحتها بالعبادة، حتى تفتحت براعم القلوب، على نفحات
 مناجاة عبادك، وتفتحت العيون التي ذبلت من الجوع والعطش شاخصة في الظلام إلى سمانك، تستدر عطفك
 وغفرانك.

رباه: إنك أمرتنا بالصيام، لتحطم أغلال الشهوات، وتغل الشياطين، وتفتح أبواب الجنة، وتوصد أبواب
 الجحيم، وتحرر الرقاب المثقلة بالأوزار من النار، فوفر علينا فضلك بقدر كرمك، فإنّا أعجز عبيدك، الذين لم
 يحملوا إليك سوى الرجاء بإحسانك والاعتراف بذنوبهم وتقصيرهم.

ربنا: إنك خلقتنا من دون أن نسألك، فلا تردنا بعد ما سألتناك، فأنت أقوى على العفو منا من على الذنب،
 وأنت أرف منا، بنا يا من لا يزيد إلا فضلاً وكرماً.

((شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)).

١- كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذا نظر إلى هلال شهر رمضان، استقبل القبلة بوجهه ثم

قال: ...

القرآن الكريم شهر رمضان الصيام في القرآن

((يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون)). (١)

((أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون)). (٢)

((إن المسلمين والمسلمات... والصائمين والصائمات... أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا...)). (٣)

الصيام في خطب الرسول

عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن آبائه عن علي (عليه السلام) (أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبنا ذات يوم فقال: أيها الناس، إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دُعيت فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعمالكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب، فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة، وقلوب طاهرة، أن يوفقكم لصيامه، وتلاوة كتابه، فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم، وأذكروا بجوعكم وعطشكم فيه، جوع يوم القيامة وعطشه، وتصدقوا على فقرانكم ومساكينكم، ووقروا كباركم، وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم، واحفظوا ألسنتكم،

١- سورة البقرة ١٨٣-١٨٤-١٨٥.

٢- سورة البقرة ١٨٧.

٣- سورة الأحزاب ٢٥.

وغيضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم، وعما لا يحل الاستماع إليه أسماعكم، وتحتنوا على أيتام الناس، يُحتن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء، في أوقات صلاتكم، فإنها أفضل الساعات، ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده، يجيبهم إذا ناجوه، ويلبيهم إذا نادوه، ويعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعوه).

(أيها الناس، إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم، ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم، فخففوا عنها بطول سجودكم، واعلموا أن الله أقسم بعزته: أن لا يعذب المصلين والساجدين. وأن لا يروّعهم بالنار، يوم يقوم الناس لرب العالمين).

(أيها الناس. من فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر. كان له بذلك عند الله عتق نسمة. ومغفرة لما مضى من ذنوبه.

فقل يا رسول الله. فليس كلنا يقدر على ذلك. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (اتقوا النار ولو بشق تمره، اتقوا النار ولو بشربة من ماء).

(أيها الناس: من حسن منكم في هذا الشهر خلقه. كان له جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الأقدام، ومن خفف في هذا الشهر عما ملكت يمينه، خفف الله عليه حسابه، ومن كف فيه شره، كف الله عنه غضبه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً، أكرمه الله يوم يلقاه، ومن وصل فيه رحمه، وصله الله برحمته يوم يلقاه، ومن قطع فيه رحمه، قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه، ومن تطوع فيه بصلاة، كتب الله له براءة من النار، ومن أدى فيه فرضاً، كان له ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومن أكثر فيه من الصلاة علي، ثقل الله ميزانه يوم تخف الموازين، ومن تلا فيه آية من القرآن، كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور).

(أيها الناس، إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة، فسألوا ربكم أن لا يغلّقها عنكم، وأبواب النيران مغلقة، فسألوا ربكم: أن لا يفتّحها عليكم، والشياطين مغولة، فسألوا ربكم: أن لا يسلّطها عليكم).

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) فقلت: يا رسول الله، ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: (يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر، الورع عن محارم الله).

ثم بكى، فقلت: (ما يبكيك؟ فقال: (يا علي، أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر، كأني بك وأنت تصلي لربك، وقد انبعت أشقى الأولين والآخرين، شقيق عافر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك، فحضب منها لحيتك).

قال أمير المؤمنين (عليه السلام): فقلت: (يا رسول الله، وذلك في سلامة من ديني؟) فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (في سلامة من دينك).

ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) (يا علي، من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد ابغضني، ومن سبك فقد سبني، لأنك مني كنفي، وروحك من روحي، وطينتك من طينتي، إن الله تبارك وتعالى خلقتني وإياك، واصطفاني وإياك، اختارني للنبوّة، وأختارك للإمامة، ومن أنكر إمامتك فقد أنكر نبوتي، يا علي أنت وصيي، وأبو ولدي، وزوج ابنتي، وخليفتي على أمّتي، في حياتي وبعد موتي، أمرك أمري، ونهيك نهيي، أقسم بالذي بعثني بالنبوّة، وجعلني خير البرية إنك لحجة الله على خلقه، وأمينة على سرّه، وخليفته على عباده).

عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: خطب رسول الله في آخر جمعة من شعبان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أيها الناس، إنّه قد أظلكم شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، وهو شهر رمضان، فرض الله صيامه، وجعل

قيام ليلة فيه بتطوع صلاة كتطوع صلاة سبعين ليلة فيما سواه من الشهور، وجعل لمن تطوع فيه بخصلة من خصال الخير والبر، كأجر من أدى فريضة من فرائض الله عز وجل، ومن أدى فيه فريضة من فرائض الله، كان كمن أدى سبعين فريضة من فرائض الله فيما سواه من الشهور، وهو شهر الصبر، وإن الصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وهو شهر يزيد الله في رزق المؤمن فيه، ومن فطر فيه مؤمناً صانماً، كان له بذلك عند الله، عتق رقبة، ومغفرةً لذنوبه فيما مضى...).

إلى أن قال: (... ومن خفف فيه عن مملوكة، خفف الله عنه حسابها، وهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره الإجابة والعتق من النار).

(ولا غنى بكم فيه عن أربع خصال، خصلتين ترضون الله بهما، وخصلتين لا غنى بكم عنهما، فإما اللتان ترضون الله عز وجل بهما، فشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما، فتسألون الله فيه حوائجكم والجنة، وتسالون العافية، وتعودون به من النار).

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) خطب رسول الله لثلاث بقين من شعبان، فقال: (إن هذا الشهر قد خصكم الله به، وحضركم، وهو سيد الشهور، ليلة فيه خير من ألف شهر، تغلق فيه أبواب النار، وتفتح فيه أبواب الجنان، فمن أدركه ولم يغفر له، فأبعده الله، ومن أدرك والديه ولم يغفر، فأبعده الله، ومن ذكرت عنده فلم يصل علياً، فلم يغفر الله له، فأبعده الله).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال في خطبة به:

(... ومن صام شهر رمضان، في إنصات وسكوت، وكف سمعه، وبصره، ولسانه، وفرجه، وجوارحه، ومن الكذب، والحرام، والغيبة تقريباً، قرابة الله منه، حتى تمس ركبته، ركبتني إبراهيم: خليل الرحمن).

الصيام في الحديث

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن شهر رمضان. شهر عظيم. يضاعف الله فيه الحسنات. ويمحو فيه السيئات. ويرفع فيه الدرجات. من تصدق في هذا الشهر بصدقة، غفر الله له. ومن أحسن فيه إلى ما ملكت يمينه، غفر الله له. ومن حسن فيه خلقه، غفر الله له. ومن كظم فيه غيظه، غفر الله له. ومن وصل فيه رحمه، غفر الله له).

ثم قال:

(إن شهركم هذا ليس كالشهور. إنه إذا قبل إليكم. أقبل بالبركة والرحمة، وإذا أدبر عنكم. أدبر بغفران الذنوب)

قال ابن عباس: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). إذا دخل شهر رمضان. أطلق كل أسير. وأعطى كل سائل).

قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا صمت. فليصم سمعك. وبصرك. ووجدك... ولا يكن يوم صومك، كيوم فطرك).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لجابر بن عبد الله الأنصاري: (يا جابر. هذا شهر رمضان، من

صام نهاره، وقام ورداً من ليله وعفَ بطنه وفرجه، وكفَ لسانه. خرج من الذنوب، كخروجه من الشهر) قال الإمام الصادق (عليه السلام) (إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده.. فإذا صمتم، فاحفظوا ألسنتكم، وعضّوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا).

وقال (عليه السلام): (سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، امرأة تسب جارية لها، وهي صائمة، فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بطعام، فقال: كلي، فقالت: إني صائمة، فقال: كيف تكونين صائمة؟، وقد سببت جاريتك، إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب).

وعن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) (إذا جاء رمضان. فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النيران، وصدفت الشياطين) و (يعتق الله في كل يوم من رمضان، سبعين ألف عتيق من النار) و (للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه) و (لو تعلم أمتي ما في رمضان من الخير، لتمنت أن يكون رمضان العام كله) و (من صام رمضان، وهو يحدث نفسه: إذا أفطر أن لا يعصي الله، دخل الجنة بغير مسألة أو حساب).

سأل هشام بن الحكم، الإمام الصادق (عليه السلام) عن علة الصيام، فقال: (إنما فرض الصيام، ليستوي به الغني والفقير، وذلك أن الغني لم يكن ليجد مس الجوع، فيرحم الفقير، لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله تعالى: أن يسوي بين خلقه، وأن يذيق الغني مس الجوع والألم، ليرق على الضعيف، ويرحم الجائع).

وكتب محمد بن سنان، إلى الإمام الرضا (عليه السلام)، يسأله عن مسائل، فكان في أجوبة الإمام: (... علة الصوم، لعرفان مس الجوع والعطش، ليكون العبد ذليلاً مسكيناً، ماجوراً محتسباً صابراً، ويكون دليلاً له على شدائد الآخرة، مع ما فيه من الانكسار عن الشهوات، واعظاً له في العاجل، دليلاً على الآجل، ليعلم شدة مبلغ ذلك، من أهل الفقر والمسكنة...).

قال أبو الصلت الهروي: دخلت على أبي الحسن: علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في آخر جمعة من شعبان، فقال لي:

(يا أبا الصلت: إن شعبان قد مضى أكثره، وهذه آخر جمعة منه، فتدارك فيما بقي منه، تقصيرك فيما مضى منه، وعليك بالإقبال على ما يعنيك، وترك ما لا يعنيك، وأكثر من الدعاء والاستغفار، وتلاوة القرآن، وتب إلى الله من ذنوبك، ليقبل شهر الله عليك، وأنت مخلص لله عز وجل، ولا تدع أمانة في عنقك، إلا أدبتها، ولا في قبلك حنقاً على مؤمن إلا نزعته، ولا ذنباً أنت ترتكبه إلا أقلت عنه، واتق الله، وتوكل عليه، في سرا يرك وعلائيتك، ((وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا))، وأكثر من أن تقول - فيما بقي من هذا الشهر - (اللهم إن لم تكن غفرت لنا فيما مضى من شعبان، فاغفر لنا فيما بقي منه) فإن الله تبارك وتعالى، يعتق في هذا الشهر رقاباً من النار، لحرمة شهر رمضان).

صلاة رمضان

رمضان، يا شهر الله، يا شهر القرآن، يا شهراً شرفك الله، فأنزل فيك القرآن - الذي هو تبيان لكل شيء -

وفضلك الله على سائر الشهور، فأيامك أفضل الأيام، ولياليك أفضل الليالي، وساعاتك أفضل الساعات وخصصك الله بليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر.

رمضان، ما أعظمك، وما أحلى أيامك المعدودات، قد جعلك الله سرّاً بينه وبين عباده، يُسبغ عليهم فيك رحمته، ويخفف فيك عنهم الذنوب، فأنت مرفأً للعباد، تأوي الله النفوس المتعبة، وتطمئن به القلوب.

رمضان، يا سحابة ناصعة، يستبشر بها المتقون، ويتبأش به المذنبون، وينتظر ك الرجال والنساء، والكبار والصغار، والفرح يغمر نفوسهم، والبشر يلون وجوههم، لأنهم ينهلون فيك الخير والسعادة، ويهربون إليك من أعباء الحياة، فأنت شهر استجمام، يفرغ فيك الناس من الهموم والمشاكل والأعمال الرتيبة، وأنت شهر فضيلة، يتدرب الناس فيك على الصبر والمثابرة، ويقومون فيك عزائمهم ويهدبون عواطفهم، وأنت شهر مساواة، يتواضع فيك الغني على مستوى الفقير، ويترفع فيك الفقير إلى مستوى الغني، وأنت شهر محبة وصفاء، يتعاون فيك الناس فيشعرون بأدواء المجتمع، ويعملون لمعالجة قضاياها، ترف قلوبهم على ضعفائهم، فيسدون يد العون والمعروف.

رمضان، يا شهراً سجل فيه التاريخ، أعظم انتصارات الخير والعدالة والفضيلة، على الشر والظلم والرديلة، أروع انتصارات أنصار الإنسان، على أعداء الإنسان، فكانت (غزوة بدر الكبرى) التي مثلت نقطة انطلاق المسلمين، وقاعدة تركز الحكومة الإسلامية، وكان (فتح مكة) وكان (فتح الأندلس) وكان (مولد السبط الأكبر، الإمام الحسن (عليه السلام)).

رمضان. يا شهراً عقب بدماء أعظم شهيد، وأول مظلوم، هو الإمام أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وقد صرعه سيف أعتى الخلاق، وأشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقة ثمود، هو عبد الرحمن بن ملجم، وهذه المؤامرة الدنيئة، أسدلت الستار، على منقذ الإسلام، ومعلم البشرية، فخرت الإنسانية راندها، وتركت السفينة بلا ربان، وأخذ الباطل جولته، لينكر دولة الحق، وقد تهدمت - والله - أركان الهدى وانفصمت العروة الوثقى.

رمضان. يا شهراً يحمل إلى المتقين ذكريات دينهم وسلفهم. فيجددون العزم ليوصلوا جهادهم المقدس في سبيل الله. وهم يرددون (أيها الناس، هلموا إلى مستقبل سعيد، ومجتمع إسلامي أفضل. واتركوا الأحقاد والأحزاب، التي يتاجر بها الأعداء على حسابكم، لتكونوا خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وهؤلاء لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأولئك سيجزون العرفة بما صبروا، ويتلون فيها تحية وسلاماً.

وأما المفسدون، فيستقبلون شهر رمضان، بالسخرية والازدراء، ويزدادون فيه تعنتاً وغلواءً، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً). (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

فلنستقبل رمضان، كما يستقبله المتقون. ولنجدد عزائمنا فيه، لتحقيق الإسلام كله في الحياة، فليكن شهر رمضان، وعاءاً لجهودنا الطريفة، كما كان رمزاً لجهادنا التليد، ولنكن أمناء في تأدية رسالتنا، وأمانة رمضان إلى الأجيال الصاعدة من خلفنا، بقدر ما كان آباءنا أمناء في تأدية رسالتهم وأمانة رمضان إلينا. وليكن شعارنا الصدق والصبر. والإخلاص. والعمل الصالح. وليكن هدفنا إقامة الإسلام وإزالة الفسوق والإلحاد. لنعيش أسياداً. ويعيش العالم في سعادة وسلام.

فمرحباً بك يا رمضان ومرحباً، وأهلاً بك يا شهر الله العظيم. وسهلاً لك وألف تحية وتقدير.
والحمد لله الذي أكرمنا بك، يا شهر الطاعة والغفران. وشكراً لله بما أتحفنا فيك بليلة القدر،
وأَنْزَلَ علينا فيك القرآن - هدىً للناس، وبينات من الهدى والفرقان -.
اللهم فوفقنا لصيامه وقيامه. واهدنا لما تحب. واعصمنا عما تكره. وثبت أقدامنا. وانصرنا على القوم
الكافرين.

(هو شهر الصبر... وشهر المواساة... أوله رحمه وأوسطه مغفرة. وآخره عتق من النار).
الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)

استقبال رَمَضان

رمضان. مدرسة. ذات فلسفة ورسالة
فشهر رمضان، مدرسة الروح والفكر والضمير. ودورة تكميلية للنواقص البشرية. وحملة تطهيرية، لتصفية
الرواسب التي تتكلس في قرارات الإنسان. خلال أحد عشر شهراً.
وبعد ذلك فـشهر رمضان فترة الحضانة والتفكير.
ولنشرح النقطة الرابعة - الآن - عسى أن تفصل الثلاثة الأوليات أثناء البحث.
فالإنسان الذي يعيش الاجتماع سنة كاملة، يقتحم في غضون كل جو، ويباشر كل تفكير، ويمارس كل
تجربة ومعركة ومحيط، تترسب على عقله وقلبه وعواطفه، أكوام باهضة من (الغبار الاجتماعي) الذي يثور في
كل جو، نتيجة الصراع الاجتماعي الدائب في كل مكان، يعيشه أكثر من إنسان ويتحرك فيه أكثر من نشاط.
وليس من المضمون، أن يكون الإنسان أثيراً في كل جو وبينه ومحيط، ومع كل نشاط وإنسان بحيث يعطي
ويطور، ولا يأخذ ولا يتطور، بل الإنسان مهما صلب ونشط، يتأثر كما يؤثر، كلمات هنالك: إن العباقرة يؤثرن
أكثر مما يتأثرن، والبسطاء يتأثرون أكثر مما يؤثرن، وأما البوتقة الاجتماعية، فلا تبرد عن مزج الشخصيات
المنصهرة فيها، وتفريغ النتائج المزدوج في نفوس المستلهمين من ذلك: (الجو الاجتماعي) المتألف من مجموع
الشخصيات المتفاعلة فيه... فكل من يتغذى من ذلك الاجتماع، يتغذى من جميع الشخصيات التي عاشوا
مترابطين منذ الأزل، فكان منهم ذلك الاجتماع، وكل تفكير صورة جماعية لملايين الأفكار، وكل شخصية نتاج
ازدواج ملايين الشخصيات... ومن هنا ينشأ تطور الفكر البشري، الذي يوحى بتطور بقية مظاهر الحياة.
ومتى كان (التفاعل الاجتماعي) دائباً لا يفلت عن إنجاز هدف الطبيعة من الاجتماع، كان الفرد الذي يتكون
تحت رعايته، ويدرج في أحضانه، مصباً قهرياً لكافة تياراته، ومعرضاً أكيداً للانحراف الطائش، مع اتجاهاته
الكثيرة المتشابهة، من حيث يشعر ويريد، أم يكره ولا يشعر.
وإذا صحت هذه الحقيقة - هي صحيحة - واستسلم الفرد للتجاوب مع الاجتماع، والانصياع لإرادته وميوله،
كان منقاداً للمجهولات المتحكمة في ذلك الاجتماع، وكان جديراً بأن يتكسر ويتهدم، ويترسب على عقله وقلبه

وعواطفه، ما يعودُ منه اليوم، ويغدو من العبر القائمة، التي كان يستجير منها بالأمس، ويكون ريشة على متن الإعصار، لا يعلم لماذا، ومتى، وأين يهوى به في القرار.

فلا بد لمن يعايش الاجتماع، من (عاصم واع) يسلس له حتى يتجاوب ويتفاعل مع الاجتماع، فينمو ويتطور، إلى حيث يحسن الانطلاق مع إرادة الاجتماع، والاندماج في مواكبه، والانسواء تحت راياته... ويكفكفه من الاندفاع الطائش مع الإيرادات الأجنبية، التي تسلل إلى الاجتماع لتسخيره وتسييره في الاتجاهات المتطرفة، التي تبدأ من عقر بلادنا، وتنتهي بدر خيراتنا في لهوات المستغلين والانتهازيين...

وهكذا، كان لا بد لكل إنسان يعيش الاجتماع، من (مصقل) يتقن كشف واقع الحوادث، وتحديد موقف الفرد منها، كي لا تنتهي بخسارته.

وكذلك المجتمع، الذي يكون (وحدة) في المجموعة البشرية، المؤلفة من مجتمعات عديدة، يبقى عرضة دائمة، لشتى الانحرافات، ونهزة لأقوى المجتمعات المتفاعلة في المجموعة البشرية، وكتلة يترسب عليها الغبار العالمي.

فالمجتمع الحي الواعي، ليس هو الذي يبقى مغلفاً معصب العيون، حتى يغدو وكرماً للعنكب، ونفقاً مظلماً للراقدين... ولا ذلك المانع السافر الذي لا يعرف الأسوار والحصون، ولا يعترف بالطهارة والصدق، بل يفتح أحضانه لكل وافد منبوذ، ويرحب بكل عابر ممسوخ... وإنما ذلك المجتمع، الذي يفتح نوافذه على الشرق والغرب، لتختلف فيه الأنسام، وتعكس فيه الإشعاعات، وتفاض عليه الاتجاهات والآراء والميول، من قواعد الإرسال، فيدرس ويجرب كل واحد، فيغلق النافذة التي تتسلل منها الأوبنات باسم الثقافات، ويوسع النوافذ التي تهمي الثقافات النافعة، فيعيش المونل الخصب المأمون، الذي تتصافح فيه الحضارات والمدنيات، فتتفاعل وتزدهر، ولكن لا يهمل واقعه بلا ضمان، حتى يصبح مصباً للمستنقعات العفنة، ومرتعاً للزوائد الشاذة، وأرضاً للمعارك الأجنبية، التي تدور على حسابها، ويقتطف نتاجها الآخرون.

فالاجتماع، الذي يريد أن يشعر بوجوده العضوي، في الأسرة الدولية والعالمية، ويحب أن يمثل البشرية العادلة، التي ليست بالمتأخرة ولا بالمتطرفة، عليه أن يرتبط بـ (معقل) حصيف، يحصنه من الجمود والانجراف. وفي شهر رمضان، يقوم بجزء من دور (المعقل العاصم) وتتجسد رسالته في إسباغ الحصانة على الفرد والمجتمع.

فهو فترة التأمل والتفكير، ومحاسبة النفس، وعرض الواقع الذي يعيشه الفرد والمجتمع، على ذلك (المعقل) المعصوم، الذي لا يزل ولا يخطأ، وذلك (الضمان) الفردي والاجتماعي، الذي يحصن مرابطه من التأخر والتطرف، ويكفل له الهداية والرشاد، إلى سواء الحق والصراط المستقيم، وهو (القرآن الحكيم).

فالإسلام قرر شهر رمضان، حتى يكون شهر التبتل والانقطاع، الذي يسلم الفرد - والمجتمع المتكون من الأفراد - من التوغل في الحياة المادية الرتيبة، ليفرغه للتمسك بذلك (المعقل الحريز).

ألا ترى الإسلام، كيف دفع الناس دفعا إلى تلاوة القرآن الكريم، في هذا الشهر العظيم، حيث جعل ثواب قراءة كل آية منه في هذه الفترة، بمنزلة قراءة سبعين آية أو تلاوة القرآن كله، فيما سواه من الشهور؟

ألا ترى الإسلام، كيف يحبذ الإكثار من الأدعية المأثورة، التي تفصل أهداف القرآن، وخصص بكل وقت من أوقات هذا الشهر أدعية تسد جميع الوقت، وتبلغ بالداعي أقصى درجات الوعي والصفاء؟

ألا ترى الإسلام، كيف حتم بصرامة بالغة، صيام هذا الشهر كله، لتتميم رسالة رمضان، بتفريغ المعدة وكبح الشهوات، اللذين يعملان على كشف الرواسب، وصقل الأذهان، لتتأهب للتلقي والتجاوب والقبول؟.

ألا ترى الإسلام، كيف يحقز على مواصلة (الاعتكاف) في هذا الشهر، لينقل الصائم حتى من أجواء الحياة الصاخبة المزدهمة، إلى جو عبادي هادئ، كيما يبتعد عن واقعه المألوف، فيتفرغ لضميره وقرآنه وأدعيته، ليعرض عليها نفسه وحياته السابقة بكل هدوء وأناة، ثم يقول هو كلمة ضميره وقرآنه وأدعيته في نفسه؟...
ألا ترى الإسلام، كيف يشجع على التأمل والتفكير، حتى يقول الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): (تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين عاماً)؟.

ألا ترى الإسلام، كيف يُلفت النَّاسَ إلى فحص واقعهم، وتجديد النظر في أنفسهم، ويحذّرهم من مغبة الانطلاق الأهوج وركوب الأهواء، فيقول على لسان نبيه الكريم: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) فإنّ عثرة المسترسل لا تقال؟.

ألا ترى الإسلام، كيف يحرص على سهر ليلي رمضان، وإحيائها بالذكر والتلاوة والصلاة، ويعوض النوم فيها ب (نوم القيلولة) قبل الظهر، حيث علم أنّ جو الأسحار وهدوئها الملهم، يبعث على صفاء الأفكار ونبوغ العبقريات؟

ألا ترى الإسلام، كيف يدعو - في هذا الشهر - إلى حسن الخلق والعفو والإحسان، والتواصل والتحابب، وجعل ثواب كل معروف مضاعفاً، ليذيب السخائم الداخلة، التي تغلي وتجيش، فيشغل الفكر بواقعها الثائر، عن مهاندنة الصائم، للانصراف إلى محاسبة حياته الماضية، والاستلهاً والتصميم للمستقبل؟.

ألا ترى بقية آداب وتعاليم رمضان، كيف تتضافر على تجريد الإنسان من الشواغل المادية كلها، وتفريغه لواقعه وضميره وقرآنه، يعرض واقعه على قرآنه، ويترك ضميره يحكم له أو عليه، في أمان ممن يدس أنفه في المحكمة بلا استحقاق، ليؤنب هو نفسه على ما فرطت، ويصمم لإلزامها الصواب حتى لا تخبط من بعد؟.

فرمضان بموهلاته وآدابه (فترة المحاسبة والحصانة) التي لا يحصل الاعتدال والنبوغ إلا فيها، ولا يقدران إلا بقدرهما... واعترافاً بهذا الواقع، نجد النوايغ، والعظماء يقدرّون في برامج حياتهم، ما يسنح لهم من فترات شاغرة للمحاسبة والتفكير، ولا تتأزم المواقف إلا ويوفرون على تلك الفترات قطاعات أخرى من الوقت، لتعنيهم على اقتحام الأزمات بنضوج، وعندما يبرزون إلى الحياة، نجد حصانتهم بمقدار سعة تلك الفترات.

ونظراً إلى هذا الواقع، يعتبر الإسلام شهر رمضان، أقل فترة يجب أن لا ينقص منها أي إنسان، وحتى إذا ما نقصت تحت إلحاح الضرورة، أو الطوارئ التي تلجأ إلى الأسفار، كان على الإنسان أن يعوضه فيما يلي بمقداره، أما ما أنقص منها بلا مبرر، فعليه التعويض والكفارة والعذاب، ولكن يستحب لمن يستطيع الزيادة أن يزيد، فليس ذلك إلا توفيراً على الكمال الإنساني. فيستحب الصوم ثلاثة أيام في كل شهر أوله ووسطه وآخره، وأيام الجمع، والأيام البيض، وشهور رجب وشعبان ورمضان، وأيام أخرى لمناسبات أخرى، ثم من زاد فله الأجر...

ذلك جزء من فلسفة رمضان، وهذه فلسفة رفيعة لا يحققها في واقعها غير النوايغ والعظماء، ولكن الإسلام بنظراته الشاملة، التي تنكر الاستثناء، واستغلال فنة خيرات الدنيا، وإن كانت هي العبقريات، فلا يحب الإسلام تخصيص السيادة بأفراد دون آخرين، وإنما يرى أنّ كلّ تطلّع إلى الحياة، يستحق من الحفاوة والرعاية، بمقدار

ما يستحقه أعظم الفلاسفة النابهين، حتى تكون المسؤولية عليه إن هو توانى عن استخدام صلاحياته ومؤهلاته... وأن كل فرد في حياته العائلية وعمله وأهدافه. يحتاج إلى الرعاية والنبوغ، بمقدار ما يحتاجه الملك في تنظيم حكومته، فلا بد من تعميم التعاليم التربوية، وتوسيعها من القاعدة حتى القمة، ليتكون كل فرد في حياته الخاصة والمشاركة غنياً يحمل في تفكيره النبوغ والنضوج، ويعرف مصادر الحياة وأهداف الكون... ويعني ذلك خلق مجتمع متساوي القوائم والأضلاع، وتعميم نظريات اجتماعية بالغة الأهمية.

وإذا صح أن في الشهور شخصيات.. فإن شهر رمضان، شهر ذو شخصية لامعة، له مميزات خاص، وطابع معين، لأنه شهر يؤثر في حياتنا ويحوّرها، ومن هنا كانت شخصيته، التي ينفرد بها، لا يدانيه فيها أي شهر، حتى شهر الحج، لا ينافسه شخصيته، لأن الحج أيام معدودات، لا يشعر بها إلا من يعيش في البلاد المقدسة، أو يقد إليها، أما شهر رمضان، فيملي أحكامه من أول يوم فهي إلى آخر يوم، ثم لا يترك الناس إلا وهم على أبواب عيد، وهو يعيش ويمنح جوه الخاص للمسلمين، عموماً في مشارق الأرض ومغاربها، لا كذي الحجة، الذي لا يشعر بالحج، غير الواقفين في عرفة، أو الماكثين بمنى.

فهو انتفاضة روحية عامة، وتوحيد للشعور المادي بين المسلمين، وتأهيب سنوي لكافة الفئات والعناصر، والمتناقضة حول كثير من المسائل والحقائق.

شهر التربية

وشهر رمضان شهر تربية، والرياضة العملية، ومصح لمعالجة الغرائز والضمان والأرواح. فالإسلام الذي يحرم وجبات الطعام الرتيبة المعتادة، طوال هذا الشهر، ويأمر جميع الناس، بأن يعضوا الطرف عن أقترف النظرة الأثيمة، وكبح المشاعر، عن اقتحام المغريات.. وإن يفظموا شهواتهم، ولا يستجيبوا للنزوات المشروعة وغير المشروعة سواء... إنما كان يهدف من جميع ذلك، تكوين الوازع الخلقى، والزواج الأدبية للأفراد، ليخفق في قلوبهم الشعور برضا الخالق، والتطلع إلى النعيم، كما يجتهدوا لتطهير أنفسهم من السخائم، واستدرا العطف والمكرمات فيها، وحتى لا يغفلوا عن مداركة أرواحهم، بمنحها بعض الحقوق المفروضة لها..

وإذا كان المسلم يستقبل رمضان بهذا الشعور، وهو يسلم قياده إلى العقيدة، التي تنوي بناء كيان المسلم من خلال فرائضها.. يتضرّم شوقاً إليه، ويحفل به بلهفة وجشع.. فيعلو ويتعظم... وأما اللذين لا يفقهون رمضان، إلا فرضاً محتماً، لزمهم كما تلزمهم الأتاوات، والإلزامات الحكومية الجائرة، فهم الذين يستقبلونه كل عام بتذمر ونقمة، ويجعلون من الصيام رواية تعرض على مسرح الرياء واللهو والمعصية، ولا يمر بهم رمضان، إلا ويتسفلون، بمقدار ما يجب أن يرتفعوا به...

إغفال الفلسفة

وأكثر ما يحز في واقع المسلمين - تجاه رمضان -: أنهم يتنكرون لفلسفته، ويغلقون أذهانهم عن وعي المعاني التي يُفصح عنها الإسلام، من وراء هذا الشهر المبارك..
فمعظم المسلمين، لا يكادون يذكرون شهر رمضان، إلا قبيل حلوله، ولا ينصرم عنهم إلا ويتناسونه، ويسدلون على ذكرياته ستار الإهمال.

دراسة رمضان

وأما دراسة رمضان، وأجوانه وأهدافه، فتلاقي الجحود والعنت، أكثر من رمضان... رغم أن رمضان، يمثل الركن الرابع من الإسلام، فيجب أن يُولي المسلم دراسته كلَّ عناية واهتمام.. ورغم أن المعاني الحية، المتوفرة في هذا الشهر، تدر على الباحثين، موارد سخية، تعمر البحوث والدراسات، بالنبوغ والتركز.
وحتى أولئك الذين تعنيهم دراسة رمضان، إنما يلخصونها في الفروع الفقهية، التي لا يصح الصوم إلا بمعرفتها، كدراسة الأعدار المبيحة للإفطار، والأحوال التي توجب القضاء، أو القضاء والكفارة معاً، وحكم الصائم في السفر الحلال أو الحرام.

أما جماهير المسلمين، فليس نصيبهم من رمضان، سوى التقليد، ولا يفكرون في أكثر من الإمساك، والإفطار مع الناس، ليعتبروا بذلك - وحده - أنفسهم من الصائمين، الذين أدوا الفريضة، ونالوا رضا الله، مع أن الله لم يتجلَّ على المسلمين بـرمضان - كشهر للصيام - إلا لينتزعهم من أحضان المادية الخالصة، ثم يسمو بأرواحهم وأخلاقهم، إلى مصافِّ المقربين... ومع أن رمضان، ليس مجرد شهر فرض صيامه على الناس، ليعذبوا أنفسهم بالحرمان نهاراً، والسهر العاقل ليلاً، حتى مطلع الفجر... فحكمة الله أرهف من أن يحتم على عباده العذاب نهاراً واللهو ليلاً، فهو لم يخلق الجن والإنس، إلا ليعبدوه عبادة معرفة تربية، تطهرهم، وتذهب عنهم رجز الشيطان... وليس الهدف من العبادات، مجرد الطاعة والاستجابة من جانب الناس، والتسخير والتعجيز من جانب الله فحسب، وإنما الهدف الأهم والأجل أن تفيد العباد في حياتهم، وتصلق أرواحهم كيما تُخلق بإنسانيتهم، إلى حيث يليقون بالكرامة الإنسانية، التي أرادها الله للعباد.

نتيجة الإغفال

فرمضان مدرسة... والصوم رسالة... هدفهما نفض الإنسان، من الرواسب والزوائد، وإشماله بحملة تطهيرية وتربوية بناءة، توسع الإنسان كله: عقله وجسمه وروحه... وتعيد منه كل سنة خلقاً جديداً، وتضفي عليه تبلوراً جديداً...

ولكن نتيجة الانشقاق الخطير، الذي صعق المجتمع المسلم - على أثر تضافر عوامل وعناصر عديدة - فنزع الإسلام من المسلمين، وجعل من الإسلام شيئاً مثالياً أثرياً يُقدس ولا يُنال، وجعل من المسلمين شيئاً ثانياً

مترسباً يرفض التوجيه والإصلاح...

ونتيجة تنصل المسلمين عن وعي الإسلام، واقتناعهم باعتباره فرضاً محتماً، لمن أطاعه الجنة، ولمن عصاه النار...

ونتيجة إقصاء الإسلام عن دفة الحكم والمجالات العامة، وتقلصه عن مراكز النشاطات القيادية، وانعزال المسلمين إلى زوايا المساجد وعقر البيوت...

ونتيجة ازدواج الشخصية لدى المسلمين، التي استهلكت على أثر استفحال التجاذب الاجتماعي، وارتباك المسلمين، الذين أصبحوا مصباً ومعتكلاً لمختلف التيارات الفكرية الاجتماعية، فتكسرت شخصيتهم القويمية، وتأثرت بتلك المؤثرات، التي تتكسر وتتناقض مع بعضها... فأضحى كل مسلم صورة حية للتلاقح الاجتماعي، ونموذجاً حائراً، تحلل من ارتكازه الفطري والديني، ولم يظفر بارتكاز آخر يحدد مواقفه إزاء الحوادث الجسام، التي تتوارد بأرقام جنونية في دنيا اليوم، بل بقي متردداً بين الاحياز لقوى الخير، أو التدهور مع المغريات... ونتيجة مأساة الضياع والتمزق، التي يعيشها الجيل المسلم المعاصر...

ونتيجة مؤثرات كثيرة، تحولت الفرائض الدينية - في وعي المسلمين - إلى تقاليد لا تهدف إلا ذاتها، فهي مفروضة، لأنَّ الله تعالى شاءها، فحسب... دون أن يعرفوا لها فلسفة، أو يتصوروا أنَّ لها جذوراً وفروعاً معرفة في الحياة والمجتمع، فيحاولوا كشفها، والتغلغل إليها... فكأنَّ الله سبحانه، رامها بإرادة دكتاتورية عمياء، تطلب لأنَّها تريد... فهي تبغي... ولا بد أن يتحقق ما تروم... ولا مرد لما تشاء... على النمط الأهوج، الذي ألفوه من بعض الحكام الفرديين، الذين كانوا يُطلقون الأوامر التائهة، للتعبير عن استعلانهم، ثم يعاقبون على العصيان، لا لضياع الهدف المنشود، وإنما لأنَّه يחדش غلوائهم العتيد، وإنَّ اعترفوا - في نفس الوقت - بأنَّ ما في ما طلبوه ألف خطأ مزمن يخبط المجتمع كله... فلا بد أن يكون ما يطلبون، وإنَّ اعترضته رقابهم، أو كانت فيه دمائهم... فتجب الطاعة العمياء، وتحقيق المآرب الرعناء، لا لذاتها، ولكن لأنَّهم طلبوا، ولا بد أن يكون ما طلبوا... وتعالى الله العليم الحكيم، عما يرجف المنحرفون علواً كبيراً...

وعلى أثر سيادة هذا التصور المهروس، في بعض الأوساط، أصبح نوع تلقي الناس للأوامر الشرعية، كما يمليه هذا التصور، وأضحى أدانهم للواجبات كيفما يوحى به ذلك التصور، ومثلما يلهمه ذلك التلقي، فكان الأداء مجرد صورة قالبية محدودة... ومن الطبيعي أن تكون إطاعة التقاليد الجوفاء بإيجاد طقوس شكلية آلية، شبه أتوماتيكية. فالأمر الذي يصدر لمجرد إعلان الذات، تكون إطاعته حركة تنطبق على أبعاد صيغة الأمر فحسب، لإسقاط الواجب وكفى!...

وقد تغلغل هذا التصور الجاحد، في بعض الأوساط المؤمنة، إلى حيث نرى الناس يرفضون الإيمان، بأنَّ الله تعالى إنما شاء الفرائض لتركيز الشخصية المسلمة - مثلاً - ولا يطيقون السير على الأسس الجدوية العملية، لإنجاز مقاصد الإسلام، حتى بات من المشاهد أن كثيراً من المتدينين، الملتزمين بحدود الله، لا يحققون هدفاً واحداً من أهداف الإسلام، ولا تطفح أعمالهم وسلوكهم مسحة من روح الإسلام، وتعاليم الرسول...

فما أكثر المصلين، الذين يشهدون الجماعة باهتمام أكيد، ولكنهم لا يتمالكون عن التناول على ضعيف، وإهمال جارهم الفقير، وتناسي قريبهم المريض... ولا يترددون في سب من يعارضهم في أتفه الأسباب، أو لطم الطفل العابر، الذي يدوس سجدهم أو حذائهم، أو نهر صاحبهم في صفوف الصلاة، بغلظة بادية، إذا ضايقهم

المكان، أو أصابهم عضو منه في حركة عفوية... دون أن يدور في خلدكم أنّ الجماعة، وإنّما استجبت، للتواصل والتوادم، وتكوين الجسد الواحد - الذي إذا اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى - من الأجساد المتفرقة، وإشاعة الشعور بالقوة الروحية، وإشعار كلِّ بآنٍ هنالك الكثيرون، ممن يشاركونه الرأي، وينتظفرون عليه في العمل.

وما أكثر من يقول كل يوم الله أكبر، مائة مرة، ثم يذوب تواضعاً واستكانة، إذا تصدى له جندي، أو قابله موظف... ويكيل المدائح المغالية جزافاً، لأصحاب المال والرياسة... وينسى صلواته إذا وطنته مشكلة أو مأساة... ممّا يؤكد على عزوف الحركة الدينية من ضميره، وإخلائه للحركة التقليدية... وتبعاً لنفس السبب، كثر في الصائمين، من لا يعترف بصيامه الإسلام، ولا يعدو صومه حرماناً بليداً، كحرمان النائم والمصروع، دون أن ينبض فيه حس من صيام له حركة وظل وروح...

فشاعت بينهم النماذج التالية

نماذج من الصائمين

١- أولئك الذين يحيون اللهو والتحلل والمجون في سائر الشهور، فإذا حان شهر رمضان، خلصوا إلى الصيام والمسجد والعبادة، وتمسّحوا بأسارير الصالحين، ومظاهر المتقين... فإذا انسلخ الشهر، سلخوا مسوحهم وروانهم، وتكشّفوا عن واقعهم السابق، دون أن يهرّبوا معه تأثيراً واحداً من نبضات الصيام، وهم يرددون مع منشدهم:

رمضان وليّ، هاتها يا ساقى***مشتاقاً تهفو إلى مشتاق

فكان للعبادة موسماً محدوداً، كبقية المواسم الخاصة، فعلى الإنسان فيه أن يفرغ لمتطلباته، وله - في غيره - أن يعاود حياته السابقة، فيكرع ويعوم، كيفما تشاء نزواته، بلا قيود ولا حدود... ودون أن يكون بين العبادة والنزوات تناقضاً وتدافعاً، فالصيام - في رأيهم - يعيش على مائدة الخمر والقمار، وإلى جانب الخيانة والفنذ والاعتصاب... كما نجد في القاهرة، يقيمون المسجد إلى جانب الملهى، ويخرج المصلي من هذا ليدخل في ذاك، لتعبير عن الخطأ في وعي مفهوم فرائض الإسلام...

٢- أولئك الذين يدمنون الصيام والتلاوة والدعاء، في أيام رمضان، ويعيشون الهزل واللهو، والسهرات العاطلة، والتسلّيات البرينة وغير البرينة، عبر ليالي هذا الشهر العظيم، دلالة على نشاط التآلبات الخيرة والشريرة معاً في قرارهم... فهم يستجيبون لصيحات الخير تارة، ونعرات الشر أخرى، ويرفّهون عن هذه نهاراً وعن تلك ليلاً...

٣- أولئك الذين يصومون بالإمساك عن المفطرات العشر، سحابة النهار، فإذا كان وقت الإفطار، اندفع يعبّ من تلك اللذات، التي يحسب أنّه حُرّم منها فيما ذهب من الوقت، فيلتمهم بجشع أعمى، كلما يجد، لينتقم لبطنه وغريزته...

٤- أولئك الذين يستقبلون رمضان، بتهلل الأطفال، شوقاً إلى المزيد من المطاعم الشهية، ظانين أنّهم في ضيافة الله، وعلى مائدته، فلمهم أن ينعموا بأكبر قسط ممكن من المتاع، دون أن تكون عليهم رقابة، أو ينتظرهم

حساب، وهل يحاسب الله ضيوفه على الشيع والارتواء؟.. فذلك يدعون في تنويع المأكولات، وتشكيل الفواكه والمعلبات، لا لينفقوها في سبيل الله، أو يواسوا بها المعدمين من أرحامهم وجيرانهم، كلا.. إنما ليلتهموها باعجاز..

٥- أولئك الذين يصومون، ويوشحون أطراف الليل والنهار. بالتلاوة والصلوات والأدعية والأذكار.. ولكن يحسبون: أنهم ينجزون أعمالاً ضخمة هائلة، ترهقهم، وتبهض أعصابهم الرقيقة الوانية.. فتعتبر لأنفسهم دالة على الله وحقاً على الناس، فيكون على الله أن يحقق كلما يرومون في الدنيا، ويسلم إليهم مفاتيح الجنة مجموعة في الآخرة.. أوليسوا هم الذين يعبدون الله حق عبادته. أوليسوا هم الربيون الذين أخلصوا أنفسهم لله، فعبدوه كما لم يعبده سواهم؟.. ومن أجدر منهم بالجنة، وهم الذين لا يمدون يداً إلى أعمال الدنيا، انشغالاً بالآخرة، ولا يفترقون عن عبادة الله؟؟.. وعلى الناس أن يسكنوهم أحداقهم، ويوفروا لهم أهناً الحياة.. ومن أولى بالتكريم، وهم الذين يعمرن الليل بذكر الله والصلاة، فيما يحييه الآخرون بالهجو والفساد، ويقضون الأيام بالصيام بينما يترفه الآخرون في الإفطار؟؟... فإذا خرج واحد منهم إلى الناس. عكر أساريه. وعقد جبينه، وقابلهم كالحام مريباً، تقدح نظراته الشزر، بالتفوق والإزدراء، ولهم الويل إذا لم يستقبلوه بأحر الإحتفاء والإجلال، ويستحقون منه التنكيل والتنديد، ولا شك أن ذلك وحده يكشف عن خلل في نطفهم، فلا يأتهم من يتناول عليهم بالقذف والجرح الفاجر..

وكان هؤلاء لم يقرءوا قوله تعالى: ((قُلْ مَا يَجْبُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ)) و ((مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)) و ((إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)) و ((وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)) فالذي يفعل الخير، إنما يوفر على نفسه المعروف، ويدراً عنها العذاب، وحتى الذي يسديه إلى الآخرين، إنما يخدم به نفسه عن أولئك، فليس لأحد فضلاً على إنسان مهما عمل خيراً، وليس لمخلوق دالة على الله، وإن فاق الأنبياء والنبیین بل الله الفضل والمن، على الصالحين إذ هداهم إلى مناهج توفر عليهم سيادة الدنيا وسعادة الآخرة، ومن ذا كان يهتدي إلى برامج السعادة، لولا أن هداه الله؟. وهذه الدنيا تواصل رحلتها المضنية الطويلة، بحثاً عن السعادة، وترخص المجازر والأموال، ثم لا تجدها ولن تجدها إلا إذا فانت إلى هداية الله، أو ليس الله تعالى هو الذي يقول: - ((يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)) فالمنُّ لله علينا إذ أنقذنا بهديه.. وأما الله تعالى فهو أغنى عنا وعن كل ما نعمل، وإنما يروم الله من الفرائض، أن تصلح عبادته، وتهديهم إلى الحسنات، كما يهتف بذلك القرآن الحكيم: ((لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ)) فلا يغتم الله شيئاً إن تسامى الناس ملائكة قديسين، ولا يبخس إن كفر العالمون، وأعلنوا عليه الحرب الشعواء، وليس له أي مآرب في أن يضحي هذا أو يصلي ويصوم، ولكن يريد أن يصهر العباد، كي يطهرهم ويذهب عنهم رجس الشيطان، فيؤدوا حقوق الله وحقوقهم وحقوق الناس، ويعيشوا وادعين متعاونين.. ويهنوا في حياتهم الخالدة بالتعميم المثالي الطويل.. ولا يتناقضوا فيعكروا حياتهم.. ويتقاذفوا في الحطيم اللاهب الظروف.. فيلفهم الشقاء والويل..

أما أن تكون لإنسان دالة على الله، لإكثاره المعروف، فهو نتاج ارتداد الفكر الصادق، وانخفاض وعي الإسلام في العقول..

سؤال

فهذه النماذج، التي تغزو أكثرية الصائمين، تتضافر على شل الصيام، عن إنجاز أهدافه الكثار، وتشجع الشكوك، والشبهات، أن تحوم حول ما يسرده المبلعون، من فوائد الصيام.. فيتطلع عليها السؤال التال: -
إذا صح للصيام هذه الجملة الغفيرة من الآثار، التي هي وحدها كفيلة بتعميم الإصلاح الشامل في المجتمع، من القمة حتى القاعدة، فلماذا تشبكت المشاكل، وتتراكب العقد في الجمهور الصائم، ولا يختلف عن الجمهور المفطر، في أي جانب من حياته، رغم تكرر شهور رمضان؟..

جواب

والجواب: -

أ- لا يوجد في البلاد الإسلامية، ما يسمى بالجمهور الصائم - إذا أغفلنا البلاد المقدسة - فأكثر المسلمين، يفطرون الشهر كله، ومتى تمسحت بـرمضان عاصمة من العواصم؟. أو هل رأى الناس تطوراً في البلاد لوفود رمضان؟. ومن ذا وجد حكومة متأسلمة تكافح الإفطار، كما تكافح أدنى الجرائم الثانوية؟. أو تعاقب عليه مثلما تعاقب على سب رئيسها، في الحد الأدنى؟. أو تلزم به الناس كما تلزم الطلاب بدراساتهم والموظفين بدوائهم؟. بل الواقع المرير، الذي يحز في صميم المجتمعات الإسلامية أن جمهور الصائمين - إن صح التعبير - يولف إلا أقلية صغيرة، مبعثرة على مدى أبعاد، شديدة التوتر والتمزق، لأنهم لا ينحتون من الصيام، رباطاً يللم أشتاتهم الموزعة... والمجتمع أبداً، لا يتطور إلا بأكثرية عاملة، أو أقلية متداعمة مجتمعة، تولف مجتمعاً صغيراً تحت المجتمع الكبير، ليعمل على غزوه والتأثير فيه...

وهنا يسبق إلى الذهن سؤال آخر، قبل إكمال الجواب عن الأول، يقال: حتى الفرد الواحد الصائم، يجب أن يصلح بالصوم، ما دام الصيام يؤثر تلك الآثار، وليبق المجتمع فاسداً، فيما نرى الأفراد الذي يصومون لا يصلحون بالصيام، بل لا يختلفون عن غيرهم. أو ليس هذا يؤكد على عجز الصوم عن إنتاج تلك التأثيرات التي تسردنها للصوم؟..

والجواب:

أولاً: إن الفرد الصائم، يتطور قليلاً - ولا ريب - في جسمه وعقله وروحه، وأكبر شاهد على هذه الحقيقة: إن نسبة الصالحين في المصلين الصائمين، أكثر من نسبة الصالحين في غيرهم... كما أن الأمراض الفتاكة، لا تشن حملات التصفية والإبادة عليهم، بقدر ما توسعها في غيرهم، وخاصة الأمراض الناجمة عن التخمة، والبدانة، والترسبات، والإرهاقات الداخلية، والبورات الصديدة... كما أن إحصاءات الجرائم، التي تصدر من أصل مليون متحلل مائع، أضعاف الجرائم التي يدان بها مليون مصل صائم - لو أخذنا هذا العدد وحدة قياسية - وسجلات المحاكم والسجون تؤكد هذا الواقع..

ثانياً: إن كل إنسان يلتحم أو يشتبك مع آخر، يفتح ذلك في واقعه بلا استئذان - تياراً يغذيه بجميع تأثيراته وانطباعاته، من خلف اللاشعور، فيتأثر به ويتفاعل معه - رضي أم أبى - على اختلاف الطاقات السلبية والإيجابية، والمؤثرات والاستعدادات في الجانبين... وإذا كانت خيوط الحياة كل إنسان تتلاحم وتشتبك مع خيوط حياة ما لا يقل عن عشرة آلاف إنسان في السنة - على الأقل - وإذا كانت نسبة المتأثرين من هؤلاء بمناهج

الإسلام ١% أي كان مجموعهم ١٠٠ من أصل ١٠٠٠٠ إنسان، فكيف يطبق الإنسان الواحد، العائم في ذلك الأصل الجَم، أن يحتفظ بتأثيراته، دون أن تُستهلك، أو تتشوه بالتيارات المناقضة الخارجية، الزاحفة فيه. ودون أن يسفر التلاقح الاجتماعي الدائب، عن تأثيره أكثر من تأثيره...

أما الأبطال، الذين يعيشون في صراع مع الحياة، دون أن يتأثروا بها أو ينهاروا عن المقاومة والصمود، فلا يخض بهم الزمان إلا بتقتير، لا يقاس بهم كل صائم، يمنحه الصوم نزرًا من المناعة والتركُّز، ثم لا يلبث الصراع أن ينزع مقاومته، ويسقط في المعركة...

وهكذا يتغلب الجو الوسط اللذان يعيشهما الصائم، على الواقع الذي يعاذه الصيام بالتشديد كل عام..

**

ب: إنَّ الجمهور الصائم - إذا استثنينا أفراداً تحصيلهم الأصابع - لا يؤدي الصوم، كعمل تفاعلي وسيطي، يهدف إلى غايات، وإنما يعتبر الإمساك الذي يطلق كملة (الصوم) غاية بنفسها، كما شاهدنا في النماذج السابقة، التي تولف أكثرية الصائمين - والواقع الذي لا بد من الاعتراف به: إنَّ الصوم الذي يتفاعل مع الحياة ويطوِّرها، حقيقة مجموعة متداعمة، كما صممها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) للمسلمين بقوله: (من صام رمضان، وهو يحدث نفسه: إذا أفطر أن لا يعصى الله، دخل الجنة، بغير مسألة ولا حساب) وإذا كان هذا هو الصوم الذي يهدفه الإسلام، فلا صوم لمن لا يزكي نفسه الصوم، فكيف بصره ولسانه وأطرافه عن التطاول بالسوء، ولا يحن على الضعيف، ولا يعين المحتاج، ولا ينشر المعروف، ولا يتفقد جاره، ولا يعاود أخاه، ولا يميظ الأذى عن الطريق، ولا يكافح الإجراء.. كما لا صلاة لمن لا تحصنه صلاته عن الفحشاء والمنكر...

فليس من الصيام ما يفعله الرجل، الذي يسرف ليلته في زاوية المقهى، إلى جانب التلفزيون، أو على موائد القمار والخمر... أو في السينمات، والملاهي، والمسارح، والأوبرات... أو بالسهرات العاطلة البلدية، التي تنهش لحوم الأموات، وتتفكه بأعراض الأبرياء بالاعتياب والاثام... ثم يشحن معدته بأقصى مبلغ من الطعام و الماء - في وجبة السحور - حتى لا تفرغ إلى آخر النهار... وحينما يغادر الفراش، يصبح منكشاً يتكلف العبوس، للتأكيد على أنه صائم، فينهر من يناقشه، ويشتم زوجه، ويصفع ابنه، لا لشيء إلا لمجرد أنه صائم، وهو يرى في صيامه كل المبرر للإساءة وسوء الخلق... وعندما يمضي إلى عمله اليومي ساعات متواترات، يتكلف التثاقل والانهيار، كي لا ينجز إلا أدنى قسط من عمله، يعاشر خلاله الناس بالتعدي والسباب... ولا تحين فترة الظهيرة، إلا ويسرع إلى مخدعه، ليستسلم لنوم عميق، لا يفرضه إلا قبيل الغروب، حيث تهيج شهواته العارمة، فيتخطى صحن الدار، ليأمر ويستجوب ويستحضر هذا وذلك... والويل لمن يتنكر له، أو يغلط له في آخر ساعة من نهار رمضان... ثم يجلس على المائدة مضطرباً لا يطبق الهدوء، حيث تهزه صيحات الأمعاء، التي تستعجل صوت الأذان، فلا يطلق المؤذن تكبيرته الأولى، إلا ويلتهم بجشع، كل ما تحت يديه، حتى يمتلأ جوفه، فيستلقي إلى جانب المائدة، فترة ينتقم فيها لرنته ما خسرت من التدخين أثناء النهار، ويغزل فوقه رقيقة من الدخان... ثم يسترد قليلاً من النشاط، ليسحب نفسه بتلكؤ، إلى حفلاته وسهراته مع أصدقائه، ليعبر ليلته كأمسها في البطالة والمعاصي...

وليس من الصوم، ما تعمله المرأة، التي تتأبط معاصم أقدانها، في التجولات المريبة، بحثاً عن السينما الخليعة، والملهى المانعة، والسهرات الفاجرة... أو تنتقل مع صويحباتها بين مجالس السهر على شاشة

التلفزيون، وموائد القذف والغيبة والسباب، والضحكات الرقيقة، والمداعبات المحضورة... ثم تستفيق في الضحى متكاسلة، تهمل أولادها، وتشتط على خادمتها... وتقضي أصيلها في الأسواق، بتبرج جاهر، لتشتري من هذا ذاك، وما تحتاجه وما لا تحتاجه، بترف وإسراف باديين، أو ليست في ضيافة الله؟... ومن ذا يطلق أن يمنع عباد الله من نعم الله، وهم في ضيافة الله؟... وبعد إفطار نهم، تعاود حياتها السابقة، ومع هذه وتلك، إن لم يكن هذا وذلك...

وهذا الرجل، وهذه المرأة، مثلان، لجمهرة الصائمين والصائمات... وهذا النوع من الصوم، لا يستطيع أداء رسالة الصوم متوفرة، كما شاءها الإسلام، وإنما يؤدي من رسالته، بمقدار ما تتوفر فيه عناصره ومقارناته.

صحيح أن الصوم مدرسة الجهاد المنتصر، والصبر القوي العزيز، والجود، والحلم، والتقوى، واليقين... صحيح أن الصوم كله خير وتركيز وتطهير، إن لم يصنع من الفرد المسلم، ربانياً ملائكياً، فلا أقل من أن يزيده بالقدرة على مغالبة الشهوات، ومكافحة الأهواء، ويزيده قرباً من الله، ونصيبياً من الفضائل والأخلاق... صحيح أن الصوم ترويض ومران، سنّة الله تعالى، ليعصم المسلم من السقطة والضياع، ويصونه من الاستسلام والخنوع، ويحصنه من أن يخلع عذاره، ويركب رأسه، ويجري أعقاب الغوايات، مستهزئاً بالتبعات... صحيح أن الصوم جامعة تربط المسلمين، في جميع أبعادهم، برباط وثيق لا يُشَل ولا يتوتر... صحيح كل ذلك... وأكثر من ذلك... ولكن الصوم، ليس إرادة معجزة، تنحدر من وراء الطبيعة، لتخرق نواميس الكون، وتفعل أهدافها بالإعجاز...

وما أراد الله سبحانه للصوم أن يكون معجزاً، فيشل رسالة الحياة الدنيا، وإنما الصوم طاقة حرارية، متى توفرت في إنسان أيقظت تياراته الدفينة والمزمنة، لتعبّر عن أقصى تفاعلاتها مع الكون والحياة... وإذا توفرت في أمة، حلقت بها - في فترة قصيرة - إلى حيث لا يحلق إليه حلم الشاعر المجنح...

ولكن ذلك لا يكون، إلا إذا تأدب الصائمون بأدب الصوم، ومثلوا سنن الرسول، الذي كان أحلم الناس، وأحلم ما يكون في شهر رمضان، وأجود الناس، وأجود ما يكون في شهر رمضان، وكان سامياً رقيقاً، وأسمى ما يكون في شهر رمضان، وخاصة في عشره الأواخر، حيث كان يطوي فراشه فيها، ويضرب له في المسجد، خبأً من الشعر، لإدمان الاعتكاف...

وذلك لا يكون، إلا إذا صام الناس جميعاً - عدا المعذورين - وأكرموا شهر الصيام، بالحفاوة والتقدير... ولا يكون إلا إذا صامت الأوساط الشعبية، عن الرقص المبتذل، واللهو الخليع، والاختلاط الآثم، المستتر بالخنا والراح.

ولا يكون إلا إذا صام المجتمع كله... فصامت الدوائر الحكومية، والمدارس، والمستشفيات... وصام الكاتب بقلمه، عن كتابة ما يميله خيالة من حوادث التهتك، والخطيئة والإغراء... وصام الفن عن تصوير العهر والرقاعات، لإثارة ضعاف الأمزجة، والشخصيات المزدوجة، وتشجيعها للخروج على المبادئ والأخلاق، تقليداً لأبطال الأفاصيص الواقعية أو الخيالية... واشتركت الأوضاع، والتقاليد، والإذاعات، والتلفزة، والملاهي، والحانات، والمواخير... مع الناس في الصيام، ليعقدوا جواً صائماً، يتفاعل مع الناس والحياة، فيطور الناس والحياة...

المارقون

أما إذا تمرّد المجتمع كله على الصيام، فأفطرت الحكومات، وأجهزة الدول، والدوائر، والمدارس، والمستشفيات، والشوارع، والملاهي، والمقاهي، والمطاعم، والبارات، وحوانيت المرطبات... واستخدمت الأفلام والفنون، من ليالي رمضان - المستحب إحيائها بالقربات - موسماً حافلاً للتغلغل والنشاط، فاستمرت المقاهي، ومحطات البث، والملاهي، والمواخير، والحانات، والسينمات. حتى مطلع الفجر... واستندت بفتحات السحور، للتوفير على دعايات الإباحية والانحلال...

أما إذا تواترت في الشوارع، والأندية، والحدايق، والمراكز العامة، أسراب الشباب المانع الخليع، وهم يجترونها قطع الحلويات والمعلبات أو ينفثون في لفائف التبغ، ليبرهنوا على شجاعتهم بالتجاهر بالإفطار، ويعلمون تقدميتهم بالشذوذ عن النظام، والتمرد على ملزمات الفكر والعقيدة...

أما إذا أذيعت من الإذاعات (المتأسلمة) - عندما يستهل رمضان - مقطوعات غنائية، تسخر من الصوم، وتدعو إلى التشيع من مباحج الحياة...

أما إذا تربّع خلف كل منضدة حكومية، قرد منتفخ، يحمل بين أنامله سيجارة تغزل خيوط الدخان، ويستحضر الشاي والماء باستمرار، بلا احتشام من المراجعين...

أما إذا أرصدت الدوائر المختصة - مع بزوغ رمضان - بيانات رسمية تندد بكل من يتصدى للمفطرين بالإنكار، وتهدهه بالسجن والإرهاب...

أما إذا تفكّحت رؤساء الحكومات (المتأسلمة) في خطاباتها، بنوادير حول الصائمين، وعلقت عليهم السخرية الرعناء، تدليلاً على تحررهم من التقاليد والخرافات...

ونحن نعلم أنّ هؤلاء جميعاً، هزلاء الضمان، ساقطوا المروعة، ميتوا الإحساس، لأنهم يتحدون الشعور العام، ويجرحون المقدسات، ويتطاولون على أرقى مظاهر الفكر والنظام، والكرامة الإنسانية، المتمثلة في الإسلام، دون أن يباليوا بهتك المحيط، أو يكثرثوا بالتمرد على الله...

ونحن نعلم أنّ هؤلاء صنایع الاستعمار، وأصابع المستعمرين، الذين تحركهم الإيحاءات المنفوثة من وراء السياج أو البحار...

ونحن نعلم أنّ هؤلاء يمثلون طغمة الأقرام، المأجورة لنسف الإسلام وتعبيد الطرق للمستعمرين، وهم الذين تحميمهم الدعايات، والحكومات، والشرطة، والبوليس، والبنادق، والصواريخ...

ونحن نذكر أنّ هذه الحكومات الاستعمارية، التي استخلفت الحكومة العثمانية - في أيامها الأولى - عندما كان يلفها إفلاس الأصابع والصنایع، كان تستكري النساء، ليتجولن سافرات في الشوارع، وكانت تستأجر الرجال، ليتظاهروا على الإسلام، في سبيل القضاء على هيبتة المكيبة في النفوس، واعتياد المعاصي في المجتمع... فلما كثر المانعون المتحللون، تركت الحكومات أجراءها، وألفت من المتطوعين، حلقات لضرب الإسلام وفصله عن الحياة... فهم ينفذون إرادة حكومية استعمارية، من حيث يعلمون أو لا يعلمون...

ولذلك تحميمهم السلطات... ويمنحون كافة الحريات... ويسخرون من الصائمين بوقاحة باسلة، فيما هم أجبين

خلق الله في كل مجال، إلا في مجال التطاول على المؤمنين، والاستهتار بالرأي العام، وإرادة السماء...
ولذلك يكون على المسلمين الصادقين، أن يمرؤا بالعصاة مطأطين، ويهضموا السخرية والازدراء، ويكظموا
ثوراتهم العارية... لا خوفاً من بطشة العصاة، لو تركوا والمؤمنين، لما قاوم العصاة ضحية من النهار... بل لأنَّ
الحكومات تساند العصاة، وتحارب المؤمنين، بالطرق الملتوية مرة، والسافرة تارات... ولأنَّ المستعمرين ألبوا
القوى الخاضعة للحكومات الوضعية، من أجل استخدامها في مطاردة الإسلام، والمتمسكين بالشعارات الدينية،
وجنّدوا حول الزمر التي تتولى حملة الانحلال، الأقاليم والصحف المتاجرة، وجميع أجهزة الدعاية والتأليب.
ولو لم يقم هؤلاء بعمالة الاستعمار، كيف كان للنزق العاهر منهم، أن يتسلق كرامة المسلم الوقور، ولا
يكون له رد الاعتداء، وإنْ مثلاً أمام الحاكم كيف كان له أن يحكم للعاهر على المسلم، مهما كانت الدعوى
والإفادات...

ولو لم تحشد الحكومات إمكاناتها لخدمة الإباحية والاستعمار، كيف كانت تحمي الخارجين على القوانين
الإسلامية، وتدافع عن الذين يؤذون الشعور العام بوقاحة واستفزاز، وتزدرى بالمحافظين على العقيدة والهدوء
والاستقرار...

ولو لم تكن الأجهزة الحكومية، والسائرة في ركاب الحكومات، عميلة موجهة بتوجيه الاستعمار، القابع في
أوكاره العفنة، كيف حقت للأقلام السليطة، أن تثير غضبتها المزعومة، وتنصب نفسها للدفاع عن (ما تسميها)
بالحرية الشخصية، لكل مواطن، إذا منع مسلم إنساناً عن الإفطار، أو عن أية جريمة محرمة، وتنسى الحرية،
وتحامي عن الحكومة والنظام، إذا أنكر مسلم نظام الجمارك والضرائب، والربا والاحتكار، فكأنَّ الحرية المغلوبة
على أمرها لا تعشش إلا في ظل الاستخفاف بالدين، والقيم الروحية...

ولو كانت حكومات البلاد الإسلامية، حرة، كما تتصايح، فكيف تقلد البلاد (المسماة) بالمتحضرة، في كل
تحلل وميوعة، ولا تقلدها في تكوين (بوليس الآداب) لتعقيب الذين يسينون إلى الشعور العام...
وإذا كانت هذه الحكومات، توفر الحرية الكاملة لشعوبها، فلماذا تمنحها للعابثين والمتهجمين على الدين،
وتحرمها على كل من يروم التحامل على اللادينية والمنجرفين...

ونحن لا نطالب الحكومات، بجعل (بوليس الآداب) في البلاد الإسلامية، لأنَّه سيطارده المحافظين، ويشجع
العابثين، ولأنَّ الإسلام جعل ضمير كل مسلم بوليساً قوياً، والحكومات تعمل على خنقه وإلغاء مسؤوليته، فهي
أحرى أن لا تكون بوليساً خارجاً...

ولا نطالب الحكومات، بفرض الرقابة على الناس والأقلام، لأنَّها فرضت الرقابة على الناس والأقلام المؤمنة،
فيما هي تهتف بالحرية، فماذا تصنع، إن هي أعلنت مصادرة الحريات، وفرض الرقابات...
ولا نطالب الحكومات، بحماية الإسلام من العناصر المارقة، لأنَّ الإسلام أمنع من أن يتأثر بمروقها، وقد قاوم
من هم أشد قوة، وأكثر آثاراً فما لان ولا استكان، بل زادوه مناعة ورسوخاً، وزادهم لعنة وفناء...

ولكننا نقول للمتسانلين:

إنَّ صح أن للصيام هذه الجملة الغفيرة من الفوائد، فلماذا لا يختلف الجمهور الصائم، عن الجمهور المفطر،
رغم تكرر شهور الصيام؟...

نقول لهم:

إنَّ هذا النوع من شهر رمضان الذي يتسلل برهبة وضمور، إلى هذه الأجواء والحكومات التي نعيشها، مع ما يألف جمهور الصانمين، في تلك التي فصلناها قبل حين، لا يطبق إلا إنجاز أبعاض مبعثرة من رسالته الشاملة الكبرى، ولا يُسنل عن هذا العجز والخفوت، ما دام هو لا يتكامل بنفسه في المجتمع...

فلسفة رمضان

اشتقاق رمضان

إن كلمة (رمضان) مشتقة من (الرمض) بمعنى الهاجرة - كما يقول أهل اللغة...
ولكن هناك عدداً من الأحاديث، تؤكد: أنَّ (رمضان) من أسماء الله وسمي هذا الشهر، به (شهر رمضان) لاختصاصه بالله، كما يقال: (شهر الله)... ولذلك كره إلينا أن نقول (رمضان) بل اللازم أن نقول أبداً: (شهر رمضان)...
فعن سعد قال: (كنّا عند أبي جعفر عليه السلام، فذكرنا رمضان، فقال: لا تقولوا: هذا رمضان، ولا ذهب رمضان، ولا جاء رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، لا يجيء ولا يذهب، وإنما يجيء ويذهب الزايل، ولكن قولوا: شهر رمضان، فالشهر مضاف إلى الاسم والاسم اسم الله عزّ وجلّ...).
وعن علي (عليه السلام): (لا تقولوا: رمضان، فإنكم لا تدرون ما رمضان... ولكن قولوا: شهر رمضان، كما قال الله عزّ وجلّ: شهر رمضان).
ولكن الرأي الفقهي على أن هذه الاطلاقات مكروهة فحسب، فهذا هو النتاج المستخلص منها ومن بقية النصوص، بعد التقييم والتفاعل...

فقه رمضان

وقبل أن نبحت عن (فلسفة الصيام) يجدر بنا أن نستكنه (فلسفة رمضان) ولا نغلق أذهاننا عن (فقه رمضان) ورسالته وأهدافه، فمن التطرف أن نستجيب له كشهر فرض فيه الصيام، ولا أكثر... بل هو شهر أثره الله تعالى بالصيام، دون سائر الشهور، ولا يتحقق الأثر، إلا لمسبقات جعلته جديراً بهذا الفضل المعكوف...
فما هي تلك الخصائص، التي أولته الأسبقية، وجعلت منه سيد الشهور، والشهر المبارك؟!...
وسنختطف فيما يلي، لقطات من بعض جوانب العظمة، في هذا الشهر الكريم:

شهر الله الأعظم

١

الذي خصه الله بنفسه، وحباه بهذا المجد الخالد، واعتبر الناس فيه ضيوفاً مباركين، على مواند رحمته، فيعتق منهم كثيراً، ويغفر لكثير، ويضاعف الحسنات ويمحي السيئات، ويرفع الدرجات كما فصلها الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبه السابقات...

مرفاً الضمائر

فاستأثر به الله، ليكون مرفاً الإيمان عبر السنة، الذي تنطلق منه النفوس، زودة بطاقات من الإيمان، يعومون بها في بحر أحد عشر شهراً، حتى إذا نفذت ذخائرهم الروحية، في مقارعة الكفر والنفاق العالميين، والسير قدماً إلى الأمام بصمود غلاب، يكسر دفقة التيارات المنحرفة، التي تحاول جرف كل تافه خفيف... التقوا برمضان آخر، في الملتقى على السنة الثانية، وأرسلوا عنده مرهقين ليمدهم بمدد كافية، لمدائبة الانطلاق الصاعد أبداً، والاستقامة بقوة صارمة.

فشهور رمضان، بمنزلة (محطات تموين واستراحة) ركزت على مفترقات السنين، لتزويد السالكين إلى الله - في طريقهم الوعر الشانك البعيد - بالخبرة والذخيرة والوقود... أو هي للنفوس البشرية، بمثابة (بوتقات) متتابعة، تصر النفوس التي تستحم فيها، لتخلع منها غشاوة، وتسبغ عليها روعة، وتتكرر العملية بتكرر السنين، حتى تبلغ بالنفوس الدكاء، قمة مبلغها من الكفائة والطهارة، كيما تتأهب للجنة، واستلام الصلاحيات، التي يخولها الله في الآخرة للمتقين...

روافد المعروف

وحيث شاء الله تعالى، أن يكون رمضان، شهره الذي تستحم فيه الأرواح، ليظهرهم من السخائم والأدران، ويضفي عليها بلورة منيعة... فجر فيه ينابيع الخير والرحمة، ليستطيع أداء هذه المهمة، فإن مجرد تسميته شهر الله، لا تفضله على بقية الشهور، ولا توفر فيه المؤهلات الكافية، لأداء رسالات ومسؤوليات شهر الله... كالبطاح، التي لو شاء الإنسان أن يحولها بحيرة منغومة، لا تكون إلا إذا فصد فيها شرايين الأرض... والحفائر، التي لو أراد أن تكون واحة من الغدران، لا تكون إلا جنت الرواعد، ليذرف غريال السحاب... هكذا أوسع الله رمضان بروافد المعروف، وأملى فيه كل خير، حتى يكون أقدر للتوفير على هدفه...

الكتب السماوية

ولكن الإنسان قبل كل شيء أحوج إلى مناهج تصمم إرادته وأقداره،.. فالبالغ الذي استكمل رشده، وفتح عينيه، فرأى القانون يراقبه، والمجاهر تتناهبه من جميع أطرافه، دون أن يعزب عنها لحظة أو أقل من لحظة، وعيون السماء مشرنية تحصي أنفاسه في اليقظة والرقاد. وتصور كل شيء منه حتى النفحة والنأمة، ورسل الملائكة يسجلون كل ما يلفظ ويعمل ويريد، في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى... ويجد أمامه خضم الحياة الهانج الرهيب، ويعلم: أن سوف تلاقفه الأمواج الهادرة المريعة، ولا تسلم إلا الشاطئ إلا جثته يوم موته، حيث تخف بها إلى الجنة، أو تجلد بها قرار الجحيم...

هذا الإنسان الواجف الرعديد، الذي إذا شاء أن يفتح حانوتاً، درس - باهتمام - بالغ موقع دكانه - ومركز بضاعته، ومستقبل السوق... وإذا أراد أن يركم لبناً على بعضها - باسم البيت - ليستريح إليها أحيان الفراغ، ويسلم إليها رأسه فرص الرقاد، فحص طبيعة الأرض، ووضع المكان ومناخ المنطقة، والجو والجيران.. وحتى إذا رام أن يمشي خطوات يتحسس مواضع أقدامه، ويبحث عن الهدى والنور.

هذا الإنسان الذي ينبت على المزلق، ويعيش بين الجنة التي لم يحلم بمثلها، والهاوية التي فغرت عن مخابئ السموم، وتكشّرت عن أضرار من نار...

هذا الإنسان التائه الجبان، فورما يتفتق وعيه، تستبد به الهواجس، ويلفه القلق والتيه، وتنبض خواطره برشق من التساؤلات الهائلة الملحة، التي تنقر ذاكرته بلا انقطاع:

- من أنا؟.
- من أين جنت؟.
- إلى أين سأمضي؟
- لماذا جنت؟.
- من جاء بي؟.
- ما هو الذي دفعه إلى أن يخلقني؟.
- أين الطريق؟.
- من يقودني؟.
- من ذا يرافقتني؟
- بماذا أتقوّت عبر الطريق؟.
- ماذا أتزود؟.
- بأي شيء أدرا الأهوال؟.
- كيف أسلم؟.
- ما هو مصيري؟.

وفيما هو نهب الاستجابات التي تتوارد عليه بعنف بليغ، ويلتمس بصيصاً خافتاً من النور، يعالج جانباً يسيراً من هذه الطلاس، إذا بكتب السماء، تسطر الأجوبة الواقعة المقنعة، بأسرع من تقافز الأسنلة في الخيال، وترشده إلى الحاجات الأخرى، التي ذهل عنها وهو يزرح تحت وطأة الارتباك وينشر أمامه الخطط والمناهج

الكاملة، ويعين القادة الأمناء، ويسير المواكب، ويهيب بهذا الإنسان المتشنج: نهنه عن وجدك واضطرابك، وأخذ إلى الراحة إلى الهدوء، وطمئن نفساً وجأشاً. وسر مع القافلة، إن كنت تهاب واقعك، وتلتمس السعادة والنجاة.

فتغمره الفرحة الكبرى، التي تتجدد، كلما عثر في الطريق على الهالكين، الذين هسّمتهم الهاوية الظروسة، أو مزقتهم الأمواج لتسيغ ولانم الأسماك..
وهذه الكتب السماوية، التي حققت أمانى البشرية، وانتصارها على الإرهاب. ومخاطرة الحياة تنزلت في شهر رمضان...

فالتوراة، نزلت في السادس من رمضان...

والإنجيل، نزل في الثاني عشر من رمضان...

والزبور، نزل في الثامن عشر من رمضان...

والقرآن، نزل في ليلة القدر..

فحق للبشرية أن تحيي رمضان، احتفالات عامة مستمرة، بفرحتها الكبرى، وانتصارها الأكبر...

وحق للمسلمين - بالخصوص -: أن يتخذوا من رمضان، أكبر أعيادهم، فالقرآن الذي هبط فيه لهم، ليس كتاباً سماوياً فحسب، ودستوراً سماوياً فقط، وإنما هو الإسلام كل الإسلام، ومصدر النبوة، ودستور المسلمين، وملهم ثقافات وعلوم، ومعجزتهم الخالدة، التي تؤكد صدقهم، وشارة أسبقيتهم التي يدلون بها على العالمين، وأضخم رصيد يمتاحون منه ولا يترفون، والحصن والسلاح، الذي يتذرعون به ويزحفون...

وإذا كان الإسلام، الكلمة الأخيرة في قاموس السماء، ومنهاج البشرية - جمعاء - إلى يوم القيامة، وأوسع الأديان وأكملها، وفوق كل دين ومبدأ، وفوق كل شيء... فما أجدد المسلمين، أن يتفوقوا على غيرهم في الاحتفاء بميلاد هذا الشرع العظيم، متمثلاً في نزول القرآن...

الصوم

وبعد أن أكمل تصميم الحياة البشرية، بإرسال الكتب المقدسة، التي هي أوفر الجواذب الروحية... وتكريماً لإنجاز تنظيم الإنسان، فرض الصيام على الأمم التي شملتها الأديان، لأن الحفاوة بالبواعث الروحية، لا بد أن تكون بالاستجابة الروحية - وتلك هي الانتصارات المادية، التي تكون أحفالها بالمواد المادية - وتكريم كل شيء بنوعه...

والصوم خير وسيلة لتجريد النفوس، وتطيرها من الزوائد المتطفلة عليها، إعداداً، للتلقي والتجاوب، مع نداءات السماء... فكان خير تقدير للكتب السماوية، وأكرم العوامل الإعدادية، لتمكين شهر رمضان، من تفرغ رسالته، باعتباره شهر الله...

ليلة القدر

وأعلن (صلى الله عليه وآله وسلم) أن إحيائها بالعبادة، تعادل إحياء ألف شهر كامل بالعبادة... لأنَّ النَّاسَ لا يبلغونها إلا عندما يبلغون أقصى تأهبهم الروحي للعبادة، والعبادات لا تقاس بأبعادها الظاهرة وإنما تقدر بمدى الإيمان والتأهب النفسي للذين تنبعث منهما العبادات، كما أن قيمة الأيام ليست بساعاتها، ولا قدر الليالي بطولها وعددها، وإنما قيمة الأوقات، بما فيها من خير وقربة، وطاعة مخلص، فحقت كلمة ربنا ((لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ))..

وبعد أن زود الله شهر رمضان، بعرقين رئيسيين: (كتب السماوية، والصوم) يجعلان منه شهر الله، جعل فيه ليلة القدر، التي تمثل عقدة القلب في رمضان، وتبلغ فيها المكرمات قمة نبوغها، وأمر عباده: أن يحيوها بأكرم أعمالهم، ويبلغوا فيها أبلغ أماد الصفاء والخشوع... ثم ردها في ليالٍ عديدة، كي ينصرف النَّاسُ فيها - جميعاً - إلى الحسنات، وهم لا يخسرون المعروف إن وفروه في غير ليلة القدر، بل يحتفظون بآثارها في ركائزهم، مهما تقدمت العهود، وربما كانت الأخيرة ليلة القدر، فالسباقات ترهف تأهبهم، واعتيادهم العبادة لليلة القدر... ومن فضل الله سبحانه، أن جعل تصريف الأقدار في هذه الليلة المباركة، التي تخلص النَّاسَ فيها لله، وينزعون من صدورهم الأحقاد، والنوايا السوداء، ويحاولون إشاعة المعاني النبيلة في نفوسهم، فيكون أقرب إلى الأقدار الخيرة، عما لو كانت الأقدار توزع وتأخذ مقرراتها ومراكزها، والنَّاسُ منهمكون في اشتباك مستميت حول جيفة الدنيا...

المستحبات

وبعد أن كان شهر رمضان، شهر الله الأعظم، الذي يهدف توسيع حملة تطهيرية شاملة، على رواسب السنة... بعد أن قررت عناصره الرئيسية، التي تؤهله لهذه الرسالة الكبرى، من الكتاب، والصيام، وليلة القدر... بعد ذينك لوحظ: أن هذه العناصر الثلاثة، عامّة تسع الجميع، التي قدر في تقريرها أدنى الطاقات المتوسطة، فهي في مقدور كل من عدى العجزة المفلوجين، وهناك طبقات من النَّاسِ، لهم طاقات وكفاءات فوق ذلك، وفيهم استعداد فعلي للقيام بأكثر من ذلك، دون تكلف وتوان... وهناك العطلة المتقاعدون، تخلّوا عن الحياة، وتفاعسوا عن العمل.... وهناك المنهمكون في الحياة، الذين تتاح لهم فترات شاغرة، لا يمكن استخدامها للفرائض، لأنها أبدية ترفض الأعذار، وتلك العطلات، أحياناً مبنوثة متفرقات... فلا مبرر لإهمال هؤلاء، ما دامت الدنيا دار تكامل، وما دام رمضان، شهر التصفية والتكامل!!

ولذلك أوسع الله شهر الصيام، بالقربات المستحبة، وأكثر منها حتى تستغرق الليل والنهار، وجعل لها مقادير خيالية شديدة الأجراء من الثواب ليأتي كل منها بما يسعه، ولا يهدر فراغاته في الملهيات البخسة الرعناء...

الإكثار من القربات

ومن أجل تزايد التأهبات بمرور الشهر، تزداد القربات المندوبة، كلما مضت أيام من رمضان، فلا تكون في

الأيام الأولى منه، بقدر ما هي في الليالي البيض، ثم تبلغ قمته في ليالي القدر، والعشر الأواخر...
وتبعاً لتزايد القربات، وإكثار الناس منها، تزداد الاطلاقات من النار، في غضون هذا الشهر العظيم، ف فيما يطلق الله تعالى كل يوم وقت الإفطار، ألف رقية من النار، يطلق في كل ساعة من ليلة الجمعة ونهارها ألف ألف رقية من النار، ويطلق في ليلة الفطر ما أعتق في الشهر كله...
لأنّ الناس يتدرجون في التحرر من النار، والتأهل للجنة، بتدرج مفعول القربات، التي يمارسونها في ثنانيا هذا الشهر الكريم...

تشكيلة متنوعة

وحيث إنّ إصابات الناس، ونقاط ضعفهم تختلف... و الشيطان يتسلل إلى كل من ثغرة، ويصرعه بإغراء...
والتركيبات العنصرية والنفسية المتنوعة، أثيرة في تنوع الاستجابة للعاهات... وكل يحتفظ بعرق انحراف خاص... واختلاف الأوباء يسبب اختلاف الأدواء..
ولهذه الحقيقة نجد مستحبات رمضان، تشكيلة كثيرة التنوع والاختلاف، ففيها الصلوات، والأدعية، والأذكار، والمناجات، والصلاة، والصدقات، والأغسال والزيارات، والمواعظ، والقراءات لأجزاء القرآن، والإفطار..
لنحتوي هذه المجموعة، على كل تجربة ودواء، لاستئصال جذور الداء مهما كان، كيما تطهر من يمارسها من أي مرض يهدئ فيه.. حتى إذا لم تصب تجربة عرق الداء، تصيبه الأخرى...
وهكذا يتكامل شهر الله الأعظم، بملزماته التي تتصافر، لتوسع الفرد بهزة عامة، تنفض منه التطفلات، ونهضة تطهير تشمل روحه وعقله وجسمه... وتتركه بعد رمضان، غيره قبل رمضان...

شهر التبليغ

٢

ورمضان شهر التبليغ!..

فلإنسان - بطبيعته - خاضع للغرائز، والعواطف، والميول المتدفقة من خلف اللاشعور... ولا بد له أن يسايرها، ضمن نطاق، تختلف الأديان والمبادئ في تحديده.. ولولا الحوافز المعنوية التي تكبح جماحها، لكان على الإنسان أن يسلس لها القياد، ويعنو لسيطرتها المطلقة بلا نطاق، ويتقمص سيرة الحيوانات.
وحيث إنّ الموائد المادية الخالصة، منبسطة في كل مكان، لترعى الانتباه، وتغري العواطف العاتية، وتخلص لها الإنسان، دون أن تترك خاطرة في طواياه، تهمس بنبض مناوى... والإنسان الذي أطلق سراحه، ليرعى في هذه المناعم الشهية، أحد عشر شهراً، يشعر بتضاؤل القوى المعنوية، أمام بركات المادة...
والعبادات اليومية - رغم نتائجها الفعّال - لا تدع الإنسان يلمس، أنّ القوى المعنوية مسيطرة على القوى المادية، لأنّها انطلاقة روحية، تعيش إلى جانب الاطلاقات المادية.. فالصلاة لا تصد الفرد عن التشبع من

رغبات البطن والجنس - اللذين تنطلق منهما قوة المادة، وتمثلان الشرايات المادية في قمتها - حتى تكون دليلاً عملياً، على أن الروح فوق المادة، وأن الاستجابات الروحية، أقوى من الاستجابات المادية... فالإنسان بطبيعته العرجاء - التي لا تزداد سيراً، إلا وتزداد انحرافاً، وبعداً عن خطة العقل والدين - يحتاج في كل فترة، إلى تجربة عنيفة ترده إلى سواء الصراط، وتقحم في واقعه شعوراً آخر، يُطارد الشعور العملي السابق، بتوحد المادة، الذي كانت الحياة العملية، تؤكده طوال السنين الغاربة، كل يوم ألف مرة...

وهذه فلسفة اعترف بها الجميع، غير أن المسيحيين - وإن هضموا هذه الفكرة - لكن أعيادهم العلاج الناجع - حيث استقلوا بأنفسهم، واستغنوا عن دينهم الواقعة - فوضعوا (أسبوع التبليغ) لينطلقوا فيه بحملات تثقيفية جماهيرية واسعة النطاق، لترميم ما انهار من العقائد، والقضاء على طغيان المادة وعتوها، وتكبيها بحدودها العادلة المفروضة، غير أنهم باعوا بالفشل الذريع في نهاية المطاف، لأمر:

١- ظهر أن مجموعة عناصر الشعب، لا تستطيع تأجيل الحياة والمجتمع والتاريخ، لمدة أسبوع، حتى يحضر الكنائس، وصلوات التبليغ، لمجرد الإنصات، إلى الخطب المتتابعة الطوال...

٢- إنهم كانوا يحاولون مكافحة رواسب السنة، في أسبوع، ولا يمكن إبادة رواسب السنة في أسبوع، لأن تأثيرات النفس لا تزال إلا بأثر أقوى، والنفس لا تتأثر بسرعة، ولا تسليخ انطباعاتها السابقة بسهولة...

٣- إنهم استخدموا - في أسبوع التبليغ - الخطب الرنانة، والمواعظ البليغة - المتكررة بطبيعة عجز المواد الروحية لدى المسيحيين - فاقترضوا عليها، ولم يلتمسوا الوسائل العلمية، دون أن يشعروا بأن المشاكل الواقعية، لا تعالجها سوى الحقائق الواقعية، أما الألفاظ والأصوات، فلا تقاوم غير الألفاظ والأصوات، ولا تعالج عدا الألفاظ والأصوات، ولا تطيق نفس التجربة المحسوسة، التي يعيشها الفرد كل يوم، وتتواتر عليها الشواهد الماثلة في حياته الخاصة...

وهكذا شلَّ (أسبوع التبليغ) عن إنتاج هدفه، وإنما أسفرت النتيجة عن أن لم يشترك في (أسبوع التبليغ) غير الرهبان والمبشرين، وأناس آخرون من العطلة وشذاذ الآفاق.

وأما الإسلام، فإنه استطاع أن يعالج هذه المشكلة المستعصية، على ضوء الحقائق... فقد شرع لمكافحة هذه السيطرة المادية: (شهر التبليغ) الذي يمتاز عن (أسبوع التبليغ) ب:

١- إنّه لا يحاول إلغاء الحياة، وتخليص المجتمع للقضايا الروحية، حتى يكون محاولاً لمناقضة طبائع الأشياء، كي يكون محتم الفشل والانتكاس...

٢- إنّه قدر واقع الناس، فرأهم أبناء المنطق والتجربة معاً، فبينما هم لا يوحدون المنطق، وإلا لنشأت (المدينة الفاضلة) ولأمن من في الأرض كلها جميعاً، لا يوحدون التجربة، وإلا لما آمن إنسان، ولما عاشت القيم الروحية، والمثل العليا، وإنما هم يشركون هذا وذاك، ففيما هم يؤمنون بالمنطق، لا يغفلون التجربة، وبينما هم يقيمون التجربة، لا يكفرون بالمنطق المجرد...

ولهذا الواقع توصل إليهم الإسلام في رمضان - عن المنفذين معاً، منفذ المنطق الخالص، والتجربة المحسوسة، فشهر رمضان، زيادة على أنه موسم الخطب والمحاضرات الإسلامية، والصلوات والأدعية والأنكار، يعتمد أكثر ما يعتمد، على التبليغ الملموس، المتجسد في الصيام - الذي يحدد غلواء المادة ويأخذ من عتوها الأهوج، بعمليات بيولوجية وسيكولوجية - وبقية العبادات المفروضة والمستحبة في هذا الشهر، كالزكاة،

والصلاة، والإحياء...

فالإنسان الذي أنفق أقساماً من ماله في غير رغباته، وأحيا عمليات لا يحبها، وسهر طويلاً وهو أتوق إلى النوم، وأضرب عن المطاعم شهراً كاملاً - من قبيل الفجر حتى المغرب - وحتى عن الحبة الواحدة من الطعام، والقطرة الصغيرة من الشراب، لأمر واحد من أوامر الإسلام، وهو يعلم أن لا رقيب عليه إلا الله! ولو شاء لأمسك عن كل واجب ومستحب، وركب رأسه إلى حيث التحلل والمجون، دون أن يعاقبه أحد إلا الله تعالى، ثم يبقى مصراً على مجافات رغباته، واستمرار الجشوبة في طاعة الله... تعلمه التجربة: أن القوى المعنوية، هكذا تسيطر على القوى المادية، ويتمركز في كيانه، أن الإنسان خاضع للروح، أكثر مما هو خاضع للجسد... ومن تركز في تفكيره هذا المفهوم، لا بد أن يأخذ طابعاً قوياً يتحكم فيه من خلف اللاشعور، وهو: أنه يجب أن يكون مطيعاً لله، لا للمادة والغرائز والنزوات، ويجب أن تكون استجابته للمادة، في حدود ما وافق الله، وأباح... وهذه التجربة الماثلة تؤكد له: أن الحكم الصادر من الله، فتت عناصر هذه الأفاعي المعبئة في الإنسان - باسم النفس اللوامة الأمارة بالسوء - وأخذت تلك النيران الملتهبة - باسم الغرائز - التي كان الإنسان يجاملها، ويحسب لها ألف حساب، حتى اندحرت دون مقاومة أو جلال، تجاه زوبعة واحدة من ركائز الإسلام...

وكذلك الإنسان يشعر بسيطرته على عوامل الشر، ومباهج الحياة، ويعرف أنه ليس آلة صماء، لا نبض له ولا إرادة، بيد النفس والغرائز - كما كان يتصور من قبل، وإنما هو إنسان، له كيانه القاهر... ويقدر نجاحه الباهر، وطابعه الأصيل، الذي يبقى أثره أحد عشر شهراً - على الأقل :-

وهكذا يكون رمضان، شهر التبليغ... وهكذا يعالج الإسلام مشكلة الإنسان الكبرى، ويزوده بطاقات تؤكد له النصر، في صراعه مع سيادة النفس، واستبدالها بحكومة الإنسان... ذلك الصراع الدقيق الخطير، الذي اعتبره الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): (الجهاد الأكبر).

شهر التطور

٣

ورمضان - بعد ذلك - شهر التطور، فالإنسان - بطبيعته - يملُ الاستمرار على عمل معين، والخلود إلى حالة واحدة، وبرنامج رتيبة للعيش والحياة... كما يمل العكوف على لون خاص من الطعام، والدؤوب في وظيفة معينة... وإنما يريد - بعزيمة حب التطور -: أن تتطور معيشته، ولا يحذب على منهاج واحد طوال السنين... فعند ذلك يأتي شهر رمضان، ليجدد معيشة الإنسان وحياته، في نمط آخر من السلوك، يختلف كل الاختلاف عن سابقه، بما يحفل به شهر الصيام، من تنظيم يغير حياة الفرد في جميع أبعادها... حتى يستقبلها بعد هذا الشهر، بتلهف وتودد، ويضرب فيها بخطى راغبات...

فرصة الاستجمام

كما أنّ تفكير الإنسان يكل، وينبو عن معالجة المشاكل، ومقاساة الآلام، متى استخدم لمواصلة العمل، سنة أو سنين، فيحتاج إلى فرصة للاستراحة والاستجمام، حتى ينفذ فلوله وتوتراته، ويرمم انهزاماته، ويستعيد نشاطه ويجدد عزائمه وقواه، لاستئناف الحياة من جديد، والسير في ركب الحياة، بنشاط حي يقظ... وهذه الفرصة العريضة المنشودة، يجدها الإنسان موفورة في شهر رمضان...

فترة النبوغ

وهناك حقيقة يغفلها الكثيرون، وهي أنّ الفرد لا تتاح له فرصة التفكير، لتخطيط المستقبل في فترات العمل... لأنّ الإنسان العامل، يفرغ طاقاته النشيطة، وذكاؤه الفكري، لتدبير حياته، وترفيه معيشته اليوميّتين، ومكافحة المكاره والمتاعب... ولا يسعه - بعد ذلك - أن يفكر ملياً، في تجديد حياته، ورسم الخطوط العريضة لمستقبل أفضل، ولو أنّه استغل الفرص القصار، لهذا التفكير العظيم، فإنّ العلاقات التي تربطه بحوادث اليوم، تخضع تفكيره لتأثيرات مفروضة عليه، فتجعله شديد التحيز، لمسبقاته وتأثيراته الحاضرة، ولا ترسله على سجيته المستقيمة، لتعبّر عن إرادتها، وتنتج نتاجاً مستقيماً...

والفكرة التي يستخرجها الإنسان من زحمة الوقائع، ومرتكب المناقضات وهو يتوسط معترك الحياة - تكون أشبه بأصداء النسيم - التي تتكسر في لجب العواصف والزوابع، فلا تغري ولا تعجب... كالجندي الذي يحاول برمجة خطط الهجوم والدفاع، وهو في اشتباك مع خصمه، ويتخالسان تخالس الفحلين، ويتنازعان الأرواح... لذلك تجد أكثر الناس، يسرون على الخطة التي وجدوها أمام أقدامهم، يوم فتحوا أعينهم على النور، دون أن يناقشوا ويفكروا فيها، ولو سألتهم عنها لقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارها مقتدون... والفرصة الكافية، لتجديد النظر في الحياة، تتاح للإنسان - على أوفرها - في شهر رمضان... لهذه الرسائل المنشودة من هذا الشهر، نجد الإسلام يحث على أن ينسلخ الفرد - طوال حياته السابقة، ويتجرد من أواصر المادة، وصلاتها العذبة المغرية - مهما استطاع - وينصرف بكله إلى عبادة الله، ويتفرغ للتلقي والتجاوب، مع دواعي الدين والضمير، حتى يكون على أهبة واستعداد لتلبية بواعث الإلهام... كل هذه الاتسلاخات، لتكون حياة الفرد - في هذا الشهر - غير حياته في سائر الشهور، فيندوق تطوّر الحياة... وينال فترة الاستجمام... ويتمتع بفرصة النبوغ، للمناقشة والتفكير، حول وضع مخطط المستقبل...

شهر العبادة

وأخيراً، استيقظ الغرب، إلى أنّ كل حسنة في المجتمع، تحتاج إلى تغذية مستمرة لتعيش، وتحتاج إلى فترة

خاصة - تختلف باختلاف مدى حاجة المجتمع، إلى تلك الحسنة - لتلك التغذية...
 فطفت الدول والمنظمات، تخصص الأعياد أو الأسابيع، بأبطالها ومكاسبها، كـ (يوم الطفل) و (يوم الأم) و (عيد الكندي) و (عيد الشجرة) و (أسبوع الإمام علي) و (أسبوع الصحة) و (أسبوع النظافة).
 ... للتوفير عليها خلال تلك الفترة، وإسباغ المزيد من الرعاية والحيوية عليها، وتنظيفها من النسيان والضمور، وإعادتها إلى الاعتبار اللائق بها في الأذهان...
 والإسلام - بطبيعته الواعية، السبّاقة إلى درك وتقدير كلّ حقيقة - عرف أنّ العبادات - بصفته الروحية البحتة - لا تعتكف على ولائم المادة، ولا يعيشها المفتنون بالمباهج، والارتواء من الجمال... وإنما يتركون التوفر على العبادة، لأغنياء الروح والعقل، الذين اختمروا بالزهد والتقشف... وأما هم فينصرفون إلى عبادة المادة... وحيث يعمر أكثر الأرض، بغاة المادة ورواد المتاع، تتقلص العبادات، وتتقصر العزلة والانسواء، التي تتأكد وتتضافر، بالانسحابات المتتابعة من جبهة عباد الله، والانسواء تحت جبهة عباد الحياة...
 وتبعد الشقة بين الجانبين، بتوغّل كل في اتجاهه ونحو هدفه... وينتهي الفرز النكد - بعد قرن واحد - إلى انطواء زهاد في زوايا المعابد، وانحصار الآخرين، في سجاج مقفل، من مراتع الشهوات...
 والإسلام لم يفرض العبادات، لتكون مهمة بعض ومعصية بعض، فيخصص لها أناس ويكفر بها أناس، وإنما فرضها رياضة روحية عامة، يجب على الجميع ممارسة قسم منها، وإبقاء الآخر خير موضوع، فمن شاء استقل منها، ومن شاء استكثر... فلا بد من تشريعها - بموازين الاجتماع - لتندمج بالمجتمع كلما أريد لها النزوح والانكفاء...
 ولذلك قدر شهر رمضان، وضاعف فيه الثواب لكل قربة، وأرصد فيه المستحبات، ما لم يرصدها في سواه من الشهور، وفتح أبواب الجنان، وأرصد أبواب الجحيم، وكبّل الشياطين، وطوّر - بالصيام - برامج العيش، إلى صيغة تكون أطوع للعبادات، وأبعد عن التوغّل في الحياة... ليكون هذا الشهر، شهر العبادات، وموسم الطاعات، الذي يسحب المسجد من عزلته المقفرة، ويحشر فيه الجميع، ليجددوا عهدهم بالله والإسلام، وينفضوا عزلتهم الروحية، وركادهم الطويل... كيما تبقى العبادات، حقيقية اجتماعية، لها مراكز واختصاصيون - طوال الوقت - ورواد موسميون، يتوفرون عليها شهراً، ويعيشونها بشح بقية العام...

شهر التوبة

٥

وحيث إنّ الصيام، يسكت الجسد - مؤقتاً - عن متابعة نداءاتها، وحاجاتها الكثار، يتاح التحلل من نفوذه، ويفسح المجال، لجميع ركائز الروح، أن تنطلق وتعبّر عن واقعها - ولو قليلاً، بالمقدار الذي لا يسنج لها، وهي ترزح تحت كابوسه الشديد -.

وتبعاً لانبثاق الروح من كبح الجسد، يتسامى المرء فوق نفسه، ويستطيع أن يحاسبها أدق وأقسى حساب. والصفاء الذي يضيفه الصيام، وإحياء الأسرار، والعبادات... يعد الإنسان لعرض نفسه على كتاب الله، الذي

يتلوه ويتدبر آياته بامعان... ويوقظ فيه توجسات أليمة، من البطشة الكبرى، وغضبة السعير، فيهرب من ذنوبه - بعفوية صميمه - إلى التوبة والاستغفار، خاشعاً منيباً، لا يطفى أوامه غير الدموع الساخانات، حيث يكون المذنب أقرب إلى قبول توبته.

ولذلك ندب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، المسلمين إلى الإكثار من التوبة في هذا الشهر، صح عنه: (إنَّ الله سبحانه ملكاً ينادي أهل الأرض، منذ أول ليلة من هذا الشهر حتى آخره: ألا من تائب فیتوب الله عليه، ألا من مذنب فيغفر الله له).

شهر الذكر

٦

ورمضان، فتحة واعية للنشاط الروحي، ففيه يكون الإنسان، أقدر على فهم ما يلفظ أو يسمع أو يرى!. ولذلك دُعينا فيه إلى الإكثار من التسبيحات، والعكوف على تلاوة القرآن!. ولذلك كان ثواب كل قرينة مضاعفاً، لأنها تفرغ في هذا الشهر، عن وعي وإدعان أكثر، والثواب - أبداً - لا يقدر بحجم العبادة وأبعادها الظاهرة، وإنما يكون تقييماً، بالتجربة التي يعيشها المتعبّد، والنتاج النفسي أو الخارجي الذي تنجزه... وهكذا كانت (ضربة علي يوم الخندق، أفضل من عبادة الثقلين)، كما صرح الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) رغم ملايين الضربات والانتصارات، التي تلت ضربة علي في يوم الخندق، ولكنها لم تكن ترسم المصير للكفر أو للإيمان، وأما ضربة علي، فقد كانت فيصلة، سجلت الخلود للإسلام، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بارتباك، وكتبت الفناء الشامل للكفر، وهو في قمة زهوه وخيلانه...

شهر الجهاد

٧

قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه). وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (الخير كل الخير، في السيف وتحت ظلال السيف)، وأضاف قائلاً: (الجنة تحت ظلال السيوف). وإذا كانت الحروب القديمة، لا تدور إلا على السيوف والخيول، فقد خصصها الرسول العظيم بقوله: (الخيول، معقود بنواصيها الخير)، فالسيوف والخيول، هما عصب الحروب، وأداتا الجهاد، فكان الخير كل الخير، معقوداً بنواصي الخيل، وفي السيف وتحت ظلال السيف.

وإذا كان كل الخير، في الخيل والسيف، فلا إيمان بلا جهاد، إذ لا إيمان بلا خير، فكان من الطبيعي أن يقول الله سبحانه: ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)). وكان من الطبيعي: أن يهتم الإسلام بأمر الجهاد، اهتماماً كبيراً. فما دام أعداء الحق

والإنسان، يتوسلون بالقسوة والسلاح، لنزف الدموع وامتصاص الدماء، فلا بد لأنصار الحق والإنسان، من استخدام الرحمة والسلاح - معاً - لإبادة الشر، وإسعاد الناس. ولا بد للقرآن أن يهيب بالمسلمين قاتلاً: ((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)).

أو ليس الإسلام، هو الذي عانى من ألوان التعذيب والتشريد، ما أتى على صبر الجلادين الطغاة - الذين كانوا يواجهون بها الإسلام - ثم لم يستطع توسعاً إلى قلوب نفر من أهل مكة، فلما احتفى بالسيوف اليبثية، أصبح أمراً واقعاً ذا مناعة لا يمكن تجاهله ولا القضاء عليه، أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا؟..

أو ما سجل التاريخ: إنَّ يتيماً لا مال له ولا رجال ولا سلاح، خرج في الفيافي والقفار الملتهبة، يناجي صخورها السوداء، ويمرح فوق رمالها الزاحفة، فحدث انقلاباً عظيماً في المعمورة، ووضع يداً على المشرق، ويداً على المغرب؟.. أترى من هو ذلك اليتيم العظيم؟ وما هي قوته، التي زلزل بها الأرض وصعق الملوك - أولي الحول والطول، والسطوة والسلطان - يوم لم تكون في يده سلاح إلا والأقوى منها في أيدي أعدائه؟..

إنه النبي محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنها العقيدة العتيدة التي لا تنالها العواصف ولا تملئها القواصف، وهذه القوة، هي روح الجندية التي تهيمن على العظماء الرجال، فتحركهم نحو عظام الأمور. فروح الجندية، هو الذي يمنح الكون، الحركة والخصب والنماء.

ولو لا بسالة الجندي الذي يتعفر على رمال البادية - في هوانها النقي وجوها الصافي، من أضرار التوابل والطور، والفواكه واللحوم والخمور - لم يبق إنسان حراً على وجه الأرض.

ولو لا روح الجندية، لما اندفع الشاب الحالم، إلى مجال الموت باسم الثغر، ولما جعل نفسه سياجاً، ليحفظ الراقين على الأسرة الهقافة.

ولو لا روح الجندية لما خرج الرجل من أحضان أسرته لمصارعة القدر، ولما عبر البحار، على متن طائفة تقتحم الزوابع، وهو يعلم أنَّ روحه معلقة بين أنامل القدر، ولا يعلم متى يميل به الجناح، فتهدوي به الريح في مكان سحيق، أو تغوص به إلى أعماق البحر.

ولو لا روح الجندية، لا بزغ في جزيرة العرب، أبطال تفجروا غيرة حماساً، فسبقوا الأعاصير واقتحموا لهوات الأسود، فكانوا أقوى من الصخور وأثبت من ظهر الأرض، كلما اقترب الوعد الحق، ووقعت الواقعة، وعض الظالم على يديه، صارخاً: (يا وَيَلْنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ).

فبروح الجندية انبثقت من فم (طريد مكة) ثورة عطلت الحياة الجاهلية برمتها، وظلت على الدهر طرية، تضرب الأمثال، فتناهبها الأسماع، ولا يحلوا إلا بها الحديث، ولا يصح إلا بها واقع الحياة.

وبروح الجندية، توسع الإسلام، فتغلغل في تخوم آسيا، وتسلفت منه إشعاعات بلغت مضارب أفريقيا، وامتدت إلى كل قطر شعباً من نور.

فكان على الإسلام أن يحيي روح الجندية، ما دام يحب الحياة، ومن أجل ذلك ورد في الحديث: (إنَّ الله يحبُّ الرجل الشجاع، ولو على قتل حية)، وجعل الإسلام خمسين حسنة، لمن قتل الوزغة بضربة واحدة، وعشراً لمن قتلها بضربتين. وما شأن الوزغة في مقاييس الشرع لو لا أنه يريد أن يبعث إلى الشجاعة في مختلف مظاهرها، حتى ولو تمثلت في قتل الوزغة.

ولكن، كيف يمكن إنعاش روح الجندية في الإنسان، حتى يكون متأهباً للفداء، والإحسان إلى أمته ولو

بالتضحية الغالية؟ إن روح الجندية - كأية ملكة فاضلة في الإنسان - لا تنطلق إلى الإبترويض النفس عليها، فإذا أبعد مستوياتها الممكنة قهر نفسه بالمجاهدة، وأنزلها من عتو المادة البهيمية، إلى ساحة الأعمال الشاقة، للحدود الشرعية، بلغ مستوى التعبير عن مواهبه الدفينة، وإن رقد في فراش النعمة، غرق في بحار النعمة، فالنفس كالفرس الجموع، وإن أسلست لها تقحمت، وإن أشنقت لها تذلت.

والصوم، من أعظم أنواع تربية روح الجندية في الإنسان، لما فيه من التمرين، على تحمل الشظف، ومقاومة الطبيعة، والاستقلال بالملكات الشخصية، التي تجعل أصحابها، من المجاهدين، الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس.

لأن ممارسة الصبر على الجوع والعطش، خير تجربة للشجاعة، ومن احتمل الجوع والعطش، يمكن أن يتدرج في المراحل القاسية، التي تنتهي بتحمل الفداء، بينما يستحيل على من يبعضه ألم الجوع والعطش يوماً واحداً أن يثبت في المعترك الهائل، الذي يموج بالرزايا، إذا رجت الأرض رجاً، وتخلعت القلوب وزلزلت، بهزيم المدافع ودوي الطائرات، وهو يرى الأشلاء تتناثر حواليه، ويسمع وجيب القلوب وأنين الجرحى.

إن طبيعة الانغماس في الشهوات، واجتراح المعاصي والترف الخليع، تبعث على الرطانة والاستخذاء، وتنتهي بالذل والهوان، وطبيعة الصبر والصمود، والترفع عن الملهي والشهوات، تبعث على الاتزان والشموخ، وتنتهي بالعزة والمجد.

وقد عبر (ارسطاطاليس) عن هذه الحقيقة - في كتابه الذي وجهه إلى (الاسكندر) - عندما قال: (إذا رأيت أمة، أعدقت عليها النعم، وجانبها النصب والتعب، وأبطرها الرخاء، فتعلم أن ساعتها قد اقتربت، وإن أجلها قد أوشك أن ينتهي، فإما تلك الأمة التي أصابها الجهد بسبب الحرب، ومقارعة الأبطال في الميادين، ومحاربة عدوها الغادر الفاتك، فإنها تنشط من عقالها وتبني مجدها).

وقد قال (الطنطاوي) في تفسير (الجواهر): (ولما كان الصوم والاعتكاف، كفاً للنفس عن الشهوات، والقتال وملاقات الأعداء، من أهم أنواع الصبر، ناسب أن يلزأ في قرن، وتنتظم جوهرة الصيام، وفلذة الجهاد، في سمط واحد، فكلاهما صبر، وكلاهما رفع للنفس عن حال البهيمية. فالصوم تعالي النفس عن شهوات الطعام وذلة الحطام، والجهاد رفع لها عن أن تستخذي للظالمين أو تذلل للقاهرين).

والإنسان في الحياة، في جهاد مستمر، لأنه محاط بالأعداء، الداخليين كالغرائز، والخارجيين، كالحوانات المؤذية، والأعداء الآدميين، فإذا بدأ بالصراع مع أعدائه الداخليين وانتصر عليهم، فما أحرأه بأن يقهر أعدائه الخارجيين، وإن فشل في تطهير باطنه، فما أجدره بالفشل في خارجه.

أو لا يكفي تاريخنا أكبر عبرة وموعظة، فإن المسلمين عندما تركوا الفرائض الإسلامية، خضدت شوكتهم، وذهبت ريحهم، وأصبحوا خُشباً مسندة، يختطفهم الأعداء من كل جانب، ويجعلون أسيادهم عبيداً، وعندما لموا الفرائض الإسلامية، بلغوا القمة، ومرغوا الطواغيت في التراب، وما واجههم فرعون، إلا وغادروه هسيماً تذروه الرياح، والجيوش التي أشرف عليها صعيداً زلقاً أصبح ماوهاً غوراً، فلن يستطيع له طلباً.

وفي شهر الصيام، يمارس الصائم جهاداً مريراً، فيجتمع له جهاد بالنهار، على الصيام، لكبح نفسه وغمط شهواته، وجهاد بالليل على مواصلة الحسنات، والقيام، تشجيعاً لضميره وإيمانه...

ومن تعود مباشرة الجلاذ شهراً في كل عام، مع النفس - التي تمثل الإنسان - يألف المشقة، ويصلد للنوائب،

ويعتاد التحرر من الهوى والنزوات، ويصبح على تأهب دائم، للمخاطرة والاقترام...
ومن كان على استعداد ساهر، لحماية نفسه من هجمات الشيطان، والتغلب عليه، فالأحرى به أن يكون على
استعداد متواصل، لحماية دينه ووطنه من هجمات الأعداء، والانتصار، عليهم مهما صعبا واشتدوا...
ولهذا كانت الأمة الإسلامية، أمة جهاد وتحرير، وكان رمضان، ميعاد انبثاق ثورات المسلمين، وانتفاضاتهم
الضاربة المنتصرة، على المردة الطواغيت...

رباط الإسلام

٨

ولئن كان الإسلام، مجموعة عناصر متنوعة الأشكال والأبعاد، ولا تنجب مفعولها الموحد المنشود، إلا إذا
تمثلت مجموعة متعاونة، يكمل بعضها بعضاً، لتصبح جهازاً حياً يؤدي خدمة كبرى، للجسم والعقل والروح،
وللمجتمع بعد ذلك... لزم أن يلمها رباط وثيق، يشدها عن التشتت والانفراط... فكان شهر رمضان، رباط
الإسلام...

لأن أركان الإسلام الخمسة، التي ركز عليها، هي:

١- الإيمان، لتمديد العقل، وتوجيه العقيدة، نحو الواقع، الذي تقرره الفطرة السلمية - في شهادة التوحيد -
وتقرير القيادة العامة، للفرد الموجه بتوجيه التوحيد - في شهادة الرسالة - وأخيراً لإعلان فلسفة الحياة،
وتنظيم الإسلام...

٢- الصلاة: لربط العقل والعقيدة بالله، وربط قلوب المؤمنين وأرواحهم ببعضها، ومعاهدتها بالصقل والتطهير
يوماً...

أخيراً لترويض البدن، وتنشيط العضلات..

٣- الزكاة، لترميم الاقتصاد، وسد الثغرات، التي تسببها الانهزامات السوقية، والطوارئ والأحداث، والفلج
والبطالة... وإشاعة روح التكافل الاجتماعي، بين الطبقات..

وأخيراً لإرهاق الإحساس بالتعاطف الأخوي في المسلمين...

٤- الصوم: لتحديد زحف المادة، وإسداء عون للروح الراضحة تحت سيطرة الجسم...

وأخيراً، لتزكية الجسم من الأمراض.

٥- الحج: للتأكيد على نداءات الروح، في رحلة روحية مفعمة، تمثل كثيراً من حقائق الإسلام، كالقيامة،
والمساواة...

وأخيراً لتنشيط العلاقات، والحركة الاقتصادية، بين البلاد الإسلامية.

وهذه الأركان الخمسة، تتعاون على صياغة الفرد، في قالب الكمال، وتمنح المجتمع، لبنات سليمة تنهض
به، إلى المستوى الجدير به...

وشهر رمضان، هو الرباط الذي يجتمع هذه الأركان، ويؤكد عليها جميعاً..
 فالشهادتان تتكرران، في أيام رمضان أكثر من غيرها - في القربات المستحبة في هذا الشهر.
 والزكاة، تزداد في (زكاة الفطر) و (الكفارات) و (الإفطار) وسائر البر..
 والصوم، قد خصص به هذا الشهر، قبل كل شيء...

والحج، وإن كان لا يتمثل في رمضان، لكن رمضان تعبئة عامة للحج، كما تتراءى في الأدعية السنوية كل ليلة... ثم لا ينقضي مدة هذه التعبئة، باستهلاك شوال، إلا يفتح أمام الصائمين، موسم الحركة الجماهيرية الشاملة، نحو مؤتمرهم العالمي السنوي، في عِراض الحرم الأقدس، وعند البيت الحرام.. حيث يجد الناس أنفسهم، على أعتاب شهر الحج، لتحقيق التعبئة الجماهيرية السابقة، وتظهيرها في واقع الحياة، والتفاعل، ثم الإنتاج.

جامعة المسلمين

٩

وهذا الشهر، يمثل جامعة روحية، توحد مشاعر المسلمين، وتجمع قلوبهم، منيبة، مخلصه لله وحده، بالطاعات والحسنات، وتمنعهم - جميعاً - في أوقات مماثلة، عن رغبات البطن والجنس، منذ بزوغ الفجر حتى المغرب، ثم تسمح باستعادة حياتهم السابقة، والاستجابة لحاجات الجسد... وتشجيعهم على الانطلاق، للتنافس في خير، والتسابق إلى المعروف، والبرّ بالوالدين، وصلة الأرحام، وتفقد الجيران والأخوان، وإعانة الضعيف، والإنفاق على الفقير، وتوفير الحقوق، والتواصل، والتحابب، والتواد...
 * * * * *

هذه نقاط من فلسفة شهر رمضان ذاته، موقفه من الحياة...

* * * * *

وبعد هذه التوفرات الروحية، كانت ذكريات رمضان...

ذكريات رمضان

فتاريخ هذا الشهر المبارك، حافل بذكريات، تعتبر حجر الزاوية، في كيان الإسلام على ممر القرون فقد تتابعت فيه الأمجاد الخالدة لهذه الأمة الوسطى، وهي تحمل بين جنباتها، أحداثاً جساماً، كان لها دور كبير، في انقلابات خطيرة، غيرت سنة التاريخ، في كثير من قطاع الأرض...

وإن كان لا ينفع المسلمين أن أبانهم بنوا أمجاداً، ولكن الأمم الناهضة، التي تريد الحياة، لا بد أن يعيش تاريخها ذكريات تضيء الطريق، للجيل الطالع فيلخص من تجارب الماضي، ما يبني به الحاضر، ويحذق في الأخطاء السابقة، حتى لا تتكرر في المستقبل... فينظر من خلال حاضرة المظلم، إلى مستقبله الوضاء... ليحبك

خيوط قدره بيديه، ويطوي الشعرات المفروضة عليه لإنقاذ أهدافه وأهداف الحياة، بقلب معصوم من الخطأ، بمقدار ما أخطأ أبانه، وخطأً خبيرة، بمقدار ما جرب أبانه، من قبل...
والمسلمون، أمة لأتاهم أصحاب رسالة إنسانية، وتتركز على عقيدة سليمة... وهم تاريخ لأن عقيدتهم أحدثت أخطر انقلاب، وقوض دولاً وأقام دولاً، وأشعل ثورة بناءً في العقول، ولا تزال فتية شهباء...
فعلينا: أن نستضيء بهذا التاريخ، في سيرنا الصاعد، ونفحص حوادثها بدقة بالغة، لنستنطق منها العبر والتجارب... ونتابع تلك الأحداث التي رافقت تفتح الإسلام، بنوع خاص، لأنها حجة علينا بتقرير المعصومين، ولأنها أثقل بالتجارب والعظات...
وكانت تشغل خواطر المسلمين - من أقدم عصور الإسلام - ذكريات قبل سواها، ويفجر شلالها هلال رمضان، لتبعث فيهم عزيمة غلباء.

* * * * *

ومن تلك الذكريات، ما سبقت تشريع رمضان في الإسلام، ومنها ما توالى بعده، ولكنها جميعاً، مما يؤهل هذا الشهر، لأن يعيشها المسلمون عيداً ومهرجاناً...

واليك بعض تلك المفابر:

١- الكتب المقدسة

فقد نزلت في هذا الشهر العظيم، كتب السماء، واتصل الوحي بالأرض، ومنه القرآن الكريم، الذي هو بداية اندفاع ثورة فكرية، بزغت من خلالها شمس الإسلام.

٢- مولد النور

وصح أن الله تعالى خلق النور، في غضون هذا الشهر...

٣- ليلة القدر

فقد خصصت برمضان، هذه المباركة التي جعلها الله أفضل من ألف شهر، وقرر فيها تصريف أقدار السنة، وأكرم بها محمداً وآل محمد... وأثمنها بسورة من القرآن: ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)).

٤- غزوة بدر الكبرى

وفي السابع عشر من رمضان عام ٢هـ، أحرز المسلمون أولى انتصاراتهم على الطغيان، في معركة بدر الكبرى، التي هي أول لقاء مسلح بين الإيمان والكفر، وأول تجربة قاسية، عاشت بين شيعة الحق وأشياع الضلال...

فلقد ثبتت الفئة المؤمنة، ثلاثة عشر عاماً، في أرجاء مكة، والعذاب يلفها، من احتشاد غلواء قريش، على خنق الإيمان في القلوب... حتى هاجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنون، من العذاب إلى المدينة، ليتخذوا منها قاعدة حريزة.

وقد كانت هجرتهم هذه، مبعث شماتة في صدور قريش، التي اعتبرتها ضعفاً وجبناً، مكللين بالهزيمة الشنعاء...

فيما، لم يكن هناك، ما يوحى بالضعف أو الهزيمة، لأنَّ المقاومة التي تؤدي إلى الانتحار في الظلام، دون تحقيق هدف - من قريب أو بعيد - لا تعتبر نصراً!! والاختفاء من جانب، للظهور من الجانب الآخر، أقوى وأثبت، لا تسمى هزيمة!! ولكن قريش الغاشمة، كانت تلتمس الوقعة في المسلمين، إن عزَّ عليها الصدق فبالأكاذيب، فحسبها أنها تنال من محمدٍ فحسب، رغم أنه لم يفكر في الحرب، ولا تظاهر بالاشتباك المسلح، حتى لا يعدُّ انسحابه ضعفاً متجسداً في الهزيمة، خلسة أدرج الظلام، ولكن قريش الباغية، وجدت لها فرصة سانحة للتهكم والسخرية، فأمنت فيهما تنكيلاً بالرسول الجديد...

ولكنَّ الآن مضت سنتان، أثبتنا وجود المسلمين، فقد خلص لهم (يثرَب) أو كاد، وظفروا بسيوف استطاعوا أن يردوا بها التطاول، وينددوا المعتدين بالحرب، إن دأبوا في عتوهم...
وها هم الآن يعترضون (ركب قريش) انتقاماً لتنكيلها بالنفير الباقين في مكة من المؤمنين...
وها هم الآن يقارعون التهديد بالوعيد، ويتصدون للتهكم بالتهكم، ويخاطبونهم، مخاطبة الند للند، لا مخاطبة العبيد للأسياد، كما كانوا بالأمس...

ويتضخم هذه المؤثرات، تطوّر الاشتباك بين المؤمنين والمشركين، من التناوب والمناقضات الفردية، إلى الحرب الباردة... فألبت قريش، جيوشها الضاربة، وفرزت زهاء ألف سياف إلى (المدينة) لتقضي على آخر مسلم فيها... وشهر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في وجوهها من لديه من مقاتلين...
ورغم أنَّ الفئة المؤمنة، كانت أقلَّ عدة وعديداً، ولكنها قبلت التحدي، بلا تخاذل، فلها (إحدى الحسنين) وإن فازت بالجئنة، فهي الأمل الذي هاجرت إليه، وإن كتب لها النصر، كان لها فخراً، لأنَّ الفخر للفئة المنتصرة، إذا تساوى الخصمان، فكيف إذا انتصرت الفئة القليلة، واندحرت الفئة الكثيرة؟!.

و شاء الله أن تكون هناك آية، في انتصار فئة قليلة، على فئة كثيرة بإذن الله... كما قال القرآن الكريم:
(وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))

((إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ))
((إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ))

و شاء الله أن تدمع آية الحق - مهما تضاعلت - آية الباطل - مهما تضخمت، لو كره المجرمون، فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم...

و شاء الله إذلال الأسياد الجبابرة، بأيدي تلك القلة، التي عاشت طويلاً، تهضم العذاب والإزدراء...
فأبو جهل - ذلك الطاغية، الذي صفع عبد الله بن مسعود، يوم سمعه يتلو كتاب الله، وهو يقول: حتى أنت يا ربيع الغنم - بعد أن صرَّع في المعركة، ليلفظ أنفاسه الأخيرة، حملق بعينه في شاب، وضع نعله على رقبته، ليحز رأسه، فنادى: من أنت؟ فأجاب عبد الله أنا ربيع الغنم! فرد الطاغية الحقير لقد ارتقيت مرتقاً صعباً، يا ربيع الغنم، أسرع وأجهز علي!!

وأمية - الذي كان يكوي (بلال الحبشي) ويطره عارياً تحت الحديد على الرمضاء - هو الذي انتهى بسيف بلال، بعد أن أثخنه (معاذ) و (معوذ) من أصحاب رسول الله...

... فما كان النَّاسُ، يعتبرون المسلمين في مكة، إلا فئة متنصلة مستضعفة، لا تطيق حولاً، ثم أثبتت واقعة بدر: كيانهم المجيد، ومثلت الانتصار الساحق لهم، والإعلان الأول لثورة الإسلام، وشخصيته الاجتماعية، باستئصال المؤامرة الكبرى، ضد الإسلام و الرسول والمسلمين...

٥- فتح مكة

وفي اليوم الحادي والعشرين، من شهر رمضان، عام ٨هـ كانت (غزوة الفتح)... وكانت الإنجاز الراشد لذلك المكسب الرابع... ولنن سجلت (غزوة بدر الكبرى) النصر الأول للمسلمين، فإن (غزوة الفتح) قررت النصر النهائي للمسلمين...

فالأعوام الثمانية، التي تلت الهجرة، لم تكن كفيلاً، بإقناع الرأي العام بقوى العقيدة الإسلامية على الدهر، وأنها كلمة باقية في الأرض - كما كان يؤكد الرسول - رغم أنها ظلت في صراع دائم مع قوى الشر والطغيان، دون أن تقهر أو تلين، وخرجت من التجارب القاسية تقود الجماهير من نصر إلى نصر، غير أن الرأي العام العشائري، والطغاة من أصحاب السيطرة والنفوذ، كانوا يفسرون تلك الانتصارات المتلاحقة، بأمور صدفية، كما كانوا يرجعون الانهزامات في القوى المناوئة، إلى أخطاء وأغلاط عسكرية فحسب... فكانوا يتوقعون في كل غزوة، هزيمة الإسلام، كما كانوا ينتظرون في كل يوم اغتيال الرسول الأقدس... ولذلك، ظلوا يتهاونون في الانضواء تحت راية الإسلام، رغم اقتناع كثير منهم بأفكار الرسول، وإعجاز القرآن...

وكيف يحق لرئيس مطاع أن يزج بنفسه في مخاطرة، غير مرسومة المصير؟. أو هل يمكن الثقة بالإسلام، ولما يحكم إلا يثرب وقطاعاً مجاورة؟. ولم يزل موقع مكة عاصمة المشركين، وقاعدة الآلهة، متمردة تلاحق الضربات على الإسلام!!.

فلما انتهى فتح مكة، دون أية مقاومة، وسيطر المسلمون على أخطر منطقة في الجزيرة العربية - يومذاك - من غير أن يريقوا محجمة دم، وذلت قريش الظافرة على التاريخ، وحطموا الأصنام التي علت ظهر الكعبة، ليعبدها النَّاسُ كأنها الآلهة، وجعلوها رذاذاً تحت الأقدام... استقام للمسلمين كيانهم الشامخ الوطيد، وعرف الإعراب - الذين علقوا أبصارهم، وقلوبهم، وآمالهم بمكة - إنَّ المسلمين لن ينتكسوا بعد ذلك أبداً... وعلموا أنَّ الإسلام مضمون النجاح، ومرسوم المصير... فطفقوا يدخلون في دين الله أفواجاً...

وبهذه المناسبة، سمي العام بـ (عام الوفود) لتزاحم وفود القبائل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أجل الدخول في الإسلام.

وكان ذلك أوج نبوغ شخصية الإسلام، الذي أكرمه الله بسورة كاملة تقديراً لروعة المبلغ الرفيع:
(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)).

٦- المواخاة

وفي الثاني عشر من هذا الشهر، عقد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المواخاة بين أصحابه... وكانت تلك اللفتة، من أحكم خطط الرسول الحكيم، فقد أحذق بها تقدير الرجال، وربط كل ضعيف الفكر أو الشخصية بقوي يرفعه إلى مستواه... وأعرب بها عن حقائق كانت تتناصر القوى الانهزامية، لتغطيها وإنكارها... كما قام بتقييم الرجال، وتثبيتهم في مواضعهم، وأعلن مواقفهم من الحياة... فأتقن وأعظم...

٧- شهادة بطل الإسلام

حيث استشهد في صبيحة الحادي والعشرين منه، بطل الإنسانية الخالد، الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، على أثر الضربة السامة، التي أهوى بها على أم رأسه، المجرم الأثيم، عبد الرحمن بن ملجم، بينما كان في الصلاة، في محراب مسجد الكوفة، عام ٤٠هـ...

٨- وفاة أبي طالب، عمّ الرسول الأكرم، ووالد الإمام أمير المؤمنين، في السابع عشر من رمضان، عام الهجرة...

وفاة السيدة، خديجة الكبرى أم المؤمنين، وأفضل زوجات الرسول، ووالدة الصديقة، فاطمة الزهراء (عليها السلام)، والتي تحدث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن مكانتها في الإسلام، فقال: (ما قام ولا استقام ديني، إلا بسيف علي ومال خديجة).

١٠- ميلاد الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام)، عام ٢هـ في النصف من رمضان.

١١- ميلاد الإمام محمد بن علي الجواد (عليه السلام)، عام ١٩٥هـ على بعض الروايات...

١٢- فتح ثغور الأندلس (أسبانيا) على يد موسى بن نصير ٩١هـ. وانهزام الملك (رودريك) وانتهاء السيطرة على أقطار أسبانيا، بقيادة طارق بن زياد...

١٣- بيعة الناس، مع الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، عام ٢٠١هـ.

١٤- انهزام الإفرنج المسيحيين، الذين استولوا على سوريا وضواحيها، على أيدي جيوش المسلمين، عام ٥٨٤هـ.

١٥- استنقاذ البلاد الإسلامية، من (التتار) ثلاث مرات، عام ٦٥٨ و ٦٦٦ و ٧٠٢هـ.

١٦- فتح المسلمين، جزيرة (رودس) سنة ٥٣هـ.

١٧- سقوط الدولة الأموية، عام ١٣٢هـ.

هذه المكاسب والإنجازات - والكثير من نوعها - بعض ما حازها المسلمون في هذا الشهر المبارك، مما تتفق وكرامته، وما يتطلبه من تهذيب النفس والمجتمع، والتوجه إلى الله، وتجديد الإيمان والعزائم، لخوض معترك الحياة والارتفاع بالنفس عن عالم المادة والغرائز والشهوات، إلى عالم أرفع... وأرفع...

ولعلّ هذه المناسبات التي سبقت تشريع الصيام بهذا الشهر، والتي قدّر أن تلحقه كانت السبب، أو بعض السبب، في تخصيص الصيام بهذا الشهر، دون غيره... فإن تواتر الإلماعات الروحية، في فترة زمنية، يجعلها أليق بمثل الصيام، الذي هو تجاوب روحي واع...

كما أنّ الانتصارات الروحية تستدعي حفاوة روحية، تتمثل أروع ما تتمثل في الصيام...

وربما يكون هذا التخصيص، لأنّ الله تعالى خصص هذا الشهر بنفسه، ليكون شهر الطاعة والغفران، فقرر فيه الصيام وباقي الثربات، للتوفير على إنجاز أهداف شهر الله، بصفة شهر الله.

وقد يفسّر هذا النوع من التخصيصات، بمجرد تركيز معنى الطاعة والالتقياد في الأذهان، وترويض العباد على الخضوع للنظام... كما قد يتراءى هذا الجانب، في بعض العبادات...

فلسفة الصيام

حقيقة الصوم

الكيان الإنساني - بحكم فطرته التي فطره الله عليها - وحدة... تشمل الجثمان والروح... تشمل (المادة) و (اللامادة)..

فهو مؤلف من قبضة من التراب، تتمثل فيها عناصر الأرض، من حديد، ونحاس، وكالسيوم، وفوسفور، وأوكسجين، وهيدروجين... لتشتيع فيه شهوات الأرض، ورغبات النفس، ونزوات الحس الغليظ...

... ونفحة من روح الله، تنبعث منها سبحات العقل، وتأملات الفكر، ورفرفات الروح...

والعجيبة في هذا الكيان البشري، أن ذلك الشتات النافر المنتثر، قد اجتمع وترابط وتوحد، وأصبح أكبر قوة على الأرض! ذاك حين تقتبس الذرة المجهولة، من قوة الأزل السافرة، فتشتعل وتتوهج، وتنبثق طليقة جاثمة، تمتزج فيها المادة، واللامادة، فهما سواء...

وفي ذات الوقت يحتفظ، كلٌ باستقلاله وإشاعاته ورغباته... وينشب الصراع الحامي الطويل، فأيهما انتصر، ملك قياد الفرد، وسرى عليه نفوذه وسلطانه...

فالجسم المادي، مركب من البسائط الأرضية، وخاضع لأحكامها، فهو لا شيء غير مادة عضوية، مركبة من خلايا تشبه خلايا الحيوان والنبات... وبحكم فطرته المركبة، سانر إلى الاستحالة، والاندماج، إلى أجزائه البسيطة السابقة... وأما الروح المشرقة، فليست مركبة من بسائط أولية، حتى يحكم عليها بالاستحالة إلى تلك البسائط، بل هي باقية أبدية...

ولكل من الجثمان والروح، مطالب تناسب طبيعته، ودرجته في مراتب الوجود، فالجثمان لا يفترق عن بقية أنواع المادة، في قبوله للزيادة والنقص والقوة والضعف، والتحلل والتركيب... ومن أجل ذلك، فهو محتاج إلى مقومات تقومه من نوعه، كالغذاء والكساء والسكن... ولكن الروح - بطبيعته العلوية النيرة - لا تطلب المقومات العنصرية، وإنما هي تواقفة إلى الشرف والكمال، للإمام بأسرار الملكوت، والتطلع على ما وراء الطبيعة...

وإذا كانت الروح تنزع إلى الكمال والارتقاء - والتجربة الإنسانية الصاعدة، دلت على مقدرتها على التحلق والارتقاء - فما الذي يصد بعض الناس عن التطلع إلى الكرامة الإنسانية، ويدهضهم في المجاهل والمزلق، ليتسفلوا متخبطين؟! نعم... إن الجسم بشهواته ونزواته، الذي يسجن الروح الشفافة عن التوثب والانطلاق... لأن الجسم والروح ثقلان متأرجحان، ككفتي ميزان، لا تثقل هذه إلا وتخف الأخرى، ولا ترجح تلك إلا بمقدار ما تبخس هذه...

ولذلك نجد في الناس من غلبت عليه مادته، فوهب نفسه لها، لا يفكر إلا في إشباع شهواته، كيفما أمكن ذلك الإشباع، فهزلت روحه، وتضاعلت منكودة حاسرة... ومنهم من محض للروح، فسمت وتعالمت، بينما انهدت قواه وتكسر كيانه...

فأي الطرفين قد أصاب الحقيقة، وأحرز النجاح الإنساني المنشود؟ لا جرم أن كليهما قد أخطأ الواقع!... فأما من تطوع للجثمان، وجرى في أعقاب الشهوات، فقد خنق إنسانيته، ولم يزد على بهيمة وحش... وأما من انقاد

للروح، فقد هضم حقوق جثمانه، وعطل نظام الكون، ويكون أشبه بمن دخل حديقة غناء، ليستغلها وينعم بها، فتورع عنها، حتى صوحت أزهارها، واقتلحت قاعاً صفصفاً تأويها الحشرات والديدان...

إذن فعلينا أن نلتمس حاجات الروح والجثمان، فنعدل بينهما، ونوفيها حقوقهما العادلة.

* * * * *

وإذا كان الجسم يحتاج إلى نظام الصحة، في استيفاء سعادته، فكذاك الروح، تحتاج إلى نظام الدين، في استيفاء نموها الطبيعي، ورشدها المأمول، والظفر بالأمانى التي تشرئب إليها...

والصيام من سنن الدين، التي تعمل لتكثيف الروح... وهو للروح كالرياضة السنوية للجسم، فكما أن قانون الصحة، يُحتم على كل عامل - يريد حفظ صحته - أن يريض نفسه شهراً كاملاً في السنة، يقلل فيه من غذاء النفس (أي العمل على الحقول الفكرية)... كذلك نظام الصحة الروحية، يفرض على كل إنسان، أن يقلل شهراً في السنة من غذاء جثمانه...

ولما كانت بيئة أطباء الأجسام، في ضرورة الإقلال من تغذية النفس، شهراً كل عام، هي لزوم تعويض ما فقده الجسم، من القوة، مدى الأحد عشر شهراً، نتيجة الانهماك الفكري... كذلك حجة أطباء الأرواح، في القصد من الطعام مدى شهر كل سنة، هي تعويض ما فقدته الروح الإنسانية من جراء تفرغ الإنسان، للماديات طوال العام...

وليس الهدف من هذه التحديدات، إلا حصول الموازنة، بين الروح والجسد، وعدم غمط حقوق تلك، للتوفير على هذا، أو إهمال هذا لتشجيع تلك... كيما يعيش الإنسان كاملاً معتدلاً، في مناخ قانوني، يسبح لروحه وجسمه معاً، أن يُعبّر عن سجيتهما، ويبلغا أقصى مدى إمكانات النبوغ والرشد فيهما...

ذلك، كان مشهداً من تصارع الجسد والروح، وكانت حكمة الصيام فيه بالغة...

هناك قوى أخرى تتصارع في الإنسان، لا بد من إنصافها في نفسها، وللصيام في معاركها إصبع، بل مسند القضاء...

... لأن الإنسان جسد وروح يتصارعان... وشهوة وعقل لا يفتأ بينهما الصراع، غير أن الشهوة تتشبع للجسد، والعقل يتشبع للروح، فالجسد والشهوة معاً في جانب، والروح والعقل معاً في جانب، ومجال الصراع هو الإنسان...

فكما أن الجسد يحتاج إلى الغذاء العنصري، كذلك الشهوة تحتاج إلى الغذاء الجنسي... ولكنهما ينطلقان من نقطة واحدة، فمتى شبع البطن تحركت الغريزة لترتوي، وكلما سكنت الغريزة هدأ الجسد...

فلذلك كان لا بد أن تسكن الغريزة ويهدأ الجسد، ليتحرك العقل وتنشط الروح... ومن أجل هذه الحقيقة، كان الصوم أجدى وسائل تربية العقل والروح معاً... أو لا ترى كيف يمنع بصرامة، تحركات الغريزة والجسد معاً، ويجعل لهما كفارة سوا...

* * * * *

ومن هنا كان الصوم، ركناً هاماً من أركان الدين... وهو الركن الذي يجمع بين واجب التعبد، وبين ترويض الجسد والغريزة، مما حل لهما المتاع به، في فترات دقيقة رتيبة، ليستريحان بين الحين والحين، وينشط العقل والروح...

وهنا تكمن عبقرية الإسلام، فليس هو دين دنيا فقط، ولا دين آخرة فحسب... بل هو دين الحياة بجملتها الشكلية والزمنية... دين العالمين، من يوم خلق الله الكون إلى أن تنتهي الحياة، كما عبر عن هذا الواقع سيد الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم). (ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، بل خيركم من أخذ من هذه وهذه).

* * * * *

وإذا حق ذلك، ظهر أنّ الصوم سنةٌ بشرية، وجزء صميم من نظام الكون الذي يجب أن يعيش أبدأً إلى جانب الخبز والماء، وأن يعيشه الإنسان، كما يعيش البطن والجنس، وما دام له عقل وروح، فهو من الحاجات الأساسية الضرورية للإنسان، وليس من الأحكام الموقوتة، التي تفرض لاستجابة فترة زمنية، حتى يلغيه التطور، كما يظن بعض الهانمين مع الأهواء، وكما فعل عبد العزيز الجايظ مفتي تونس: إذ تنازل إلى رغبات (بورقبية) رئيس الحكومة التونسية فأفتى (بالغاء صيام شهر رمضان، إذا تعارض مع تطور البلاد، وعدم صيام الشبان، الذين يجب عليهم أن يغذوا أنفسهم، للمحافظة على صحتهم).

وإنما هو سنة ثابتة على الدهر، لا يتطور أبدأً، ما دام الإنسان والكون وما دامت الحياة، عدا الحالات الاستثنائية، التي نص الشرع على استثنائها من أول يوم...

الصوم في سائر الشرائع

ولذلك كان الصوم ركناً في جميع الأديان السماوية، وأشباه الأديان، وحتى في الشرائع الوثنية، فقد كان قدماء المصريين، والإغريق، والرومان، وسكان ما بين النهرين في العراق، يصومون أياماً مختلفة في العام... وقد روي أنّ نوحاً (عليه السلام)، صام، عندما جنحت به سفينته إلى البر، غبّ أن عصف به الطوفان، مائة وخمسين يوماً...

ومعروف أنّ موسى بن عمران (عليه السلام)، كان يصوم ثلاثين يوماً كل عام، وكان للعبريين صوم خاص يؤدونه، غير أنّ اليهود، جعلوا يصومون يوماً واحداً في العام، هو يوم عاشوراء، ابتهاجاً بنجاة بني إسرائيل من الغرق، في البحر الأحمر...

وأما النصارى فأشهر صومهم وأقدمه، هو الصوم الكبير، الذي يقال إنّ عيسى بن مريم (عليه السلام)، كان يصومه... وقد ابتدع رجال الكنيسة ضرباً آخرى من الصوم، يباشروها الآن...

وتصوم أصحاب الديانات والملل والنحل الحياة اليوم، مدداً مختلفة، لها مواعيدها وطقوسها الخاصة... وقد صامت مريم بنت عمران، ويحيى بن زكريا، صوم الصمت، وقد تحدث القرآن عن صوم الأولى فقال: ((... فإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَيْتِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلَّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا...))... وأنبا عن الآخر فقال: ((... قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا...)).

أنواع الصوم

إنَّ إيقاف النفوس دون ما تهواه، من أصعب الأشياء، فإذا تعودت النفس شيئاً، لا تستطيع مفارقتها إلا بشق الأنفس. ولهذه الحقيقة، تأخر فرض الصيام إلى ما بعد (الهجرة) حيث تركز الإسلام وشع في النفوس، ففرض الله الصيام في السنة الثانية من (الهجرة)، ولما توفي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان المسلمون قد صاموا تسع سنين.

وكانت الآيات التالية، أول نداء فرض الصوم على المسلمين:

((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ... الخ...)).

وفي نفس الآيات، التي أمرت بالصيام، نص القرآن على وضعه عن طانفتين، هما المرضى والمسافرون، على شرط أن يلا فوه في بقية أيام السنة، فالله تعالى يريد الصوم شهراً في كل عام، ولكنه يريد اليمين ولا يريد العسر، فإن اعترضه مرض أو سفر، فلا بأس بتركه إلى فرصة أخرى، فالمريض إذا برء من مرضه، والمسافر إذا استقر في بلده - أو أي بلد ينوي فيه الإقامة - وجب عليهما إعادة الأيام، التي أفطروا فيها.

* * * * *

وتنص آيات الصوم، على أن الله فرض الصوم على المسلمين، كما فرضه على الأمم السابقة، لأهميته القصوى، في التربية الجسمية والعقلية والروحية، ولأنه يؤكد صلة العبد بربه.

وعصب الصوم، كف النفس عما تشتهيه، وكانت الأمم السابقة، تكف عن ألوان خاصة من الطعام، كما كانت تكف عن الكلام فترة من الزمان، على ما أمر الله زكريا بقوله: ((... آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا...)) وعلى ما أوصى عيسى بن مريم أمه بقوله: ((فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)).

وجاء الصوم في الإسلام، أسمى وأكمل منه في بقية الشرائع بحيث يلائم علاج الأبدان والأرواح، ففيه كف الجسم عن الطعام والشراب، فترة معقولة من اليوم، لأمد محدود من العام، فيه كف الشهوات عن مباشرة نزعاتها. ويستحب أن يرافقه، كف اللسان عن اللغو والإثم. وكف النفس عن كل رغبة منكرة، ومثل هذا الإمساك العام، جدير بتطوير البدن والروح.

بينما يكون الإمساك عن اللحم والقمح، مثلاً - وإن كان ينفع لتخفيف الوطنية عن المعدة، وإتاحة الفرصة للأجهزة الهاضمة، حتى تستهلك الرواسب المتكلسة عليها - إلا أنه لا يغني لتطهير الجسم كله، من كافة الزوائد والفضول، فما دامت المعدة ممتلئة بالطعام، تبقى مرهقة تنقص العمر وتفسد الصحة، وإن لم يكن فيها لحم ولا قمح. فالعلاج الكامل هو الإمساك عن جميع ألوان الطعام والشراب، حتى تستهلك الأجهزة الهاضمة كافة الزوائد والفضول، وتأخذ نصيبها من الراحة، لاستعادة عملها بقوة ونشاط، وكذلك الكف عن مطلق الكلام - فإنه وإن كان لا ينفع لتحديد اللغو والإثم، التي يقترفها اللسان - إلا أنه لا مبرر لكف اللسان، عن التفاهات البرينة والمعاملات النبيلة، أليس الكسب عبادة؟ وليس الإصلاح بين الناس معروفاً، ألسنا نعرف - بالضبط - الظروف والعوامل، التي أدت إلى شرع هذين النوعين من الصوم، وهما الصوم عن بعض ألوان الطعام والصوم عن الكلام - صوم الصمت - ومن الطبيعي أن تكون لهما حكمة بالغة، ما دام الله سبحانه تعالى هو الذي شرعها في الإسلام - أفضل وأكمل، فإنه يمنع عن خصوص الجريمة، ولا يلجم اللسان كله، لأنه قد ينطق بالجريمة، فيمنع

الصائم - بل وغير الصائم أيضاً، غير أنه يؤكد المنع بالنسبة إلى الصائم - عن اللغو والآثام، ويطلق لسانه في الكلام المباح، بل نهى عن ترك الكلام كله، لأنه يؤدي إلى تجميد الحياة فقال علي بن أبي طالب (عليه السلام): (حفظت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل). وقد وصف الله المؤمنين، بأنهم طاهروا اللسان أبداً، سواءً في أحيان الصيام وغير أوقات الصيام فقال: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ). (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) ونبه المسلمين، إلى أن للأقوال مسؤولية مثل ما تكون للأفعال مسؤولية، حتى لا يستهين أحد بما يقول، فقال: ((ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)) وأضاف الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت). وأكد قائلاً: (من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه، أضمن له الجنة).

* * * * *

ولا بد أن يكف الإنسان، جوارحه جميعاً - عن المحارم، حتى يتحقق له الصيام، فإن حاله - كحالة الصلاة - حالة تقرب إلى الله تعالى، فكما أن ثواب الحسنات يضاعف فيها، كذلك عقاب السيئات، قد يضاعف فيها، وربما يسري الخلل منها إلى نفس الصوم، كما قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه). ثم أصدر التعليم، الذي يجب أن يتبناه الصائم عندما قال: (إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد، أو قاتله، فليقل إني صائم).

ولما كان الصوم، تزكية للنفوس، وتطهيراً من الآثام، جعله كفارة لبعض الذنوب فمن ترك الحلق في الحج، (فقدية من صيام) ومن لم يتيسر له الهدي، (فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتك تلك عشرة كاملة) ومن حلف على أمر، ثم حنث، (فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلقتم). من قتل مؤمناً، فعليه إطعام ستين مسكيناً، وعتق رقبة، وصوم شهرين متتابعين، كما قال عز وجل: ((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)). ومن ظاهر زوجته، ثم أراد أن يرجع إليها، كان عليه تحرير رقبة، فإن لم يقدر، فصام شهرين، كما قال سبحانه: ((وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا)) ومن قتل الصيد محرماً، كان عليه إحدى الخصال الثلاث وهي الهدي، والإطعام، والصيام، على ما نص الذكر الحكيم في قوله: ((بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِالْعَكْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ)).

هذه هي الموارد، التي نص القرآن الكريم، على أن الصيام فيها كفارة عن الذنب، وفي الفقه، موارد أخرى، يقع الصيام فيها كفارة، إما ابتداءً وإما بدلاً.

* * * * *

وهناك صوم تطوعي، حث عليه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، مثل صوم ثلاث أيام من كل شهر، فقد

ورد في الحديث: إنه يعادل صوم الدهر، ويذهب بوجر الصدر، ومثل صوم (الأيام البيض) من كل شهر، وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، ومثل صوم يوم مولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المصادف لليوم السابع عشر من شهر ربيع الأول.

ومثل صوم يوم الغدير، المصادف لليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام، ومثل صوم يوم مبعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو اليوم السابع والعشرين من شهر رجب، ومثل صوم يوم (دحو الأرض) من تحت الكعبة المقدسة، وهو اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام.

وصوم يوم (عرفة) وهو اليوم التاسع من شهر ذي الحجة الحرام، ومثل صوم يوم المباهلة وهو يوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام.

ومثل صوم اليوم الأول من شهر ذي الحجة الحرام، وأفضل منه صوم التسع الأول منه، فعن الإمام الكاظم (عليه السلام): (من صام أول يوم من العشر: عشر ذي الحجة، كتب الله له صوم ثمانين شهراً، فإن صام التسع، كتب الله له صوم الدهر). ومثل صوم التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام، ومثل صوم اليوم الرابع إلى اليوم التاسع من شهر شوال، ومثل صوم النصف، من شهر جمادى الأول. ومثل صوم اليوم الأول والثالث والسابع من شهر محرم الحرام.

ومثل صوم يوم النيروز. ومثل صوم كل خميس وجمعة، ومثل صوم شهر رجب وشهر شعبان، فعن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): (رجب، شهر عظيم، يضاعف الله فيه الحسنات، ويمحو فيه السيئات، من صام يوماً من رجب، تباعدت عنه النار مسيرة مائة سنة، ومن صام ثلاثة أيام، وجبت له الجنة، وفي حديث: (أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لم يكن يصوم من السنة شهراً تاماً إلا شعبان يصل به رمضان).

* * * * *

وهناك، أنواع شتى، ومن الصوم المكروه، كصوم يوم عاشوراء - لأنه يوم تبركت به بنو أمية، وابن آكله الأكباد - والصوم الحرام، كصوم يومي (العيدين) و (صوم الوصال) و (صوم الصمت).

فوائد الصوم

تتلخص فوائد الصوم الرئيسية، في ثلاثة رؤوس: الاجتماعية، والنفسية، فأنا لا نسهب عنها الآن... وإن كان الكل متزواجاً، فالفرد الصالح، ينتهي بالمجتمع الصالح، والمجتمع الصالح يعني بالفرد الصالح... لأن المجتمع ليس سوى الفرد المتكرر، والفرد المتكرر ليس سوى المجتمع... غير أنا نعتبر المقياس مبدأ الأثر، فتارة يبدأ بالفرد، ثم يرتقي عن طريقه إلى المجتمع، وطوراً يبدأ من المجتمع، ويتسرب بواسطته إلى الفرد... فسنحدث - هنا - عن بعض فوائد الصيام: الاجتماعية، والنفسية والصحية، مع العلم بأن هذه الفوائد، ليست مشاعاً بين مختلف الطبقات، فمنها ما يخص الغني وحده، ومنها ما يخص الفقير وحده... والقسم الثالث، ما يشترك فيه الغني والفقير، سواء بسواء... ولكن سأحول أن لا أسجل إلا ما ينفع الجميع...

الفائدة الاجتماعية

تتجلى الفائدة الاجتماعية: للصوم في الأمور التالية:

١: النظام

فهذا الكون الفسيح، خاضع لنظام رهيف دقيق، منذ (الذرة) - التي تعتبر أصغر شيء كشفه العلم الحديث - حتى السديم الذي هو أكبر ما تناوله العلم الحديث.
فالسديم خاضع لنظام الذرة، والذرة خاضعة لنظام السديم، كلاهما يجريان تحت نظام واحد دقيق رهيف، لو انفرط إحدى جزئيات أيهما، عن مداره المحدود، سار بسرعة جنونية، لتصطمم بنفسها وبالآخرى، فتهلك وتبيد..

هكذا الكون وحدة متممة الأجزاء، ولا يسير فيه شيء إلا بضوابط دقيقة محكمة... وكل شيء فيه ينطبق بحركات تكوينية قهرية لا يد له فيها ولا ورأي ولا اختيار، ما عدى الإنسان والحيوان، في بعض حركاتهما الخاصة، فلهما الخيرة فيه، غير أن غريزة الحيوان، دليله إلى رأي الطبيعة، وهو منساق بإرادة الغريزة، وأما الإنسان فإن اشترك مع الحيوان تحت سلطان الغريزة، فإنه بملك إرادته المطلقة، في بعض الأعمال الأخر، التي يدلها الدين على إرادة الحياة فيها، ليؤدي امتحانه في دار الدنيا. ويبلغ تكامله المنشود...

فالتغذية والصلاة، جميعاً، من الحاجات الضرورية للإنسان، غير أن الغريزة تدله على التغذية، والدين يدلّه على الصلاة... ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة... فكان لا بد للإنسان أن يلتزم بهما معاً، ولكنه يلبي نداء الغريزة في باطنه، لقوتها وتحسس أثرها القريب، في الوقت يتكاسل عن استجابة الدين، لأنه لا يشعر في نفس الوقت، بنتائجها العاجل...

والإنسان صعب عاتي الشكيمة، تجاذبه النفس إلى الهوى والشهوات، بينما الدين يدعو إلى الهدى والاعتزان، فلا ينفذ أوامر الدين، وإن اقتنع بها فلسفة، حتى لو شاء أن ينفذها في واقعه، يتوانى عنها، فينسى منها كثيراً، ويتناسى كثيراً لأن أوامر الدين موقوتة رتيبة، والمدائبة في تنفيذ الأوامر الدائمة الموقوتة، تحتاج إلى مراس على النظام، حتى يصبح قطعة من حياته العفوية، فتذكرها هي بنفسها، وإن شاءت الطوارئ الإغفال عنها، كالغريزة ترفع صوتها كلما ألح بها النسيان...

تمرين التكبير

ويأتي الصوم، ليمرن المسلم على النظام في حياته، وعلى الجماعية في معيشتة، فالمسلم في أي وقت من ساعات النهار، يجد الطعام أو الشراب موقراً لديه، وقد يطول النهار، حتى تفرغ معدته من بقايا الطعام، فتتحرك ليتصور صاحبها جوعاً، وربما يلح به الحر في الصيف القانص، فيحن إلى جرعة من الماء، ويجد أمامه أرتالاً من الماء القراح، ولكنه يمسك عن تناول أي شيء، قبل أن تاذن الشمس بالمغيب، وفي لحظة الغروب، في جميع أقطار العالم الإسلامي - كل بحسب توقيت بلده - تعتبر لحظة انتهاء المنع العام، فيكون جميع المسلمين

جالسين بين عوائلهم، ينتظرون لحظة المغرب، إلى أن ينتهي فيها النهار ويسود الليل، وينصتون بخشوع وإيمان، إلى كلمة: (الله أكبر) تنطلق من المآذن أو من المدافع، لتمد الأيدي في جميع البلاد، إلى أول جرعة أو أول لقمة.

ريجيم خاص

لقد انطلقت كلمة: (الله أكبر) مع انطلاق الفجر - أول النهار - فردت الأيدي وكفت الأفواه، في لحظة واحدة، وانطلقت كلمة: (الله أكبر) - في آخر النهار - فانطلقت الأيدي والأفواه، في لحظة واحدة، ليركز في وجدان عامة المسلمين، النظام الجماعي، الذي يرفض التمييز بين فرد وفرد ويرفض التقديم أو التأخير ولو لحظة أو أقل من لحظة.

أو ليس (الريجيم) قد اشغل أطباء هذا العصر وكل عصر، فيقسو المرء على نفسه قسوة بالغة، لاتباع (الريجيم) الذي يفرضه عليه طبيب مختص، حتى يخفف من وزنه بضعة أرطال، أو يهدأ من ضغط دمه، بضعة درجات، ويحرم نفسه من الدسومات والحلويات والروائح - وهي في متناوله - شهوراً وأعواماً، لهدف صحي فحسب؟. ثم أو ليس الهدف النفسي أسمى من الهدف الجسمي؟ أو ليس المجتمع أفضل من الفرد؟... إن (ريجيم)، رمضان يجعل المسلمين - جميعاً - ممرين بأقصى التجارب، ليكونوا - أبداً - على أهبة الاستعداد، للترحيب بالأزمات، التي تضعف بهم فتحاول اجتياحهم، دون أن يززع شيئاً من مناعتهم الصلدة، لأن (ريجيم) رمضان قد جعلهم كالجنود المدربين، الذين تمرسوا بأعنف التجارب، ليتغلبوا على الطوارئ، مهما أمعت في الوحشية والإرهاب.

٢: المساواة

لقد أصبح الاقتصاد، عصب الحياة المعاصرة، التي محضت إيمانها وولائها للمادة، وحيث كان (البطن) الوعاء الرئيسي للمادة، كان من الطبيعي: أن تصبح (مشكلة البطن) رأس المشاكل، التي تجتاح العالم، بفلسفتها ومبادئها وحلولها، فالرأي الحديث يرى أن (البطن) هو (العقل العملي على الأرض). وفي (البطن) نكبت البشرية، وانتكست القيم، ومن (البطن) انطلقت الحروب، وتناقضت المشاكل. وقد تضاربت الاشتراكية والرأسمالية، حول مصير (البطون) و (أصحاب البطون)... ولكن المذاهب - التي اختلفوها حتى اليوم - لحل (مشكلة البطون) لا تزال مذاهب الكتب والمؤتمرات، ومناهج الذين يحاولون إسعاد الإنسان، بزيادة أو نقص في أعصابه.. ووسط هذا المعترك الصاحب، يرتفع صوت الإسلام ليقول كلمته - كما هو شأنه ودأبه في جميع المعارك - وليعلن رأيه وقراره لحل هذه المشكلة.

فإما رأيه، هو يرى أن نعم الحياة، مهما توفرت وتزايدت، لا تقدر على إشباع جشع إنسان واحد، ما دام الإنسان خلق مجبولاً بالجشع، فإن جاع يطلب الرغيف، وإن ملك الرغيف ينازع الآدم، وإن ظفر بهما يحاول تلوين مائدته، ولو توفرت له مائدة ملونة يحرص على ادخار ما يزيد على حاجته وأولاده وأحفاده، وإن حصل كل ذلك، يروم تسلق المناصب الرفيعة، ولو أتاحت له، يرمي إلى سل العروش وانتزاع التيجان، وإن نالها، حن

إلى جمع السلطات كلها في قبضته، ولو أعطاه الله أزمة الدنيا، واسنده على عرش سليمان، أراد العروج إلى السماوات واستعمار النجوم، وإن تمكن منها، حنت به أنفة فرعون، فقال: أنا ربكم الأعلى، ورمى الله - في زعمه - بسهم نمروذ، وبغى التوسع إلى حيث يرفض الحدود والوقوف.

وإذا كان الإنسان نهماً توسعياً، لا يرضى بالحدود، فمن غير المجدي معالجة (مشكلة بطنه) بتوفير النعم عليه، أو إتاحة الفرصة له، حتى يمتص الدماء ويكرع الدموع، لأنه كالمصاب بمرض (الاستسقاء) لا يزداد على شرب الماء إلا عطشاً، وإنما النافع له، تعقيم مادة الجشع في قرارته، حتى لا ينبض في نفسه حنين إلى ما في أيدي الناس، بل يصبح خاضعاً للشعور بالمساواة، التي تجعله كبقية الأفراد، عليهم أن يتعاونوا في توزيع الفرص عليهم، لينال كل نصيباً متقارباً من نصيب شريكه في الحياة.

وأما قراره، فهو قرر فريضة (الصوم) ليشعر الجميع، بنوع حكيم متزن من (المساواة)، التي تشجب غريزة (الاستنثار)، دون أن تشل المواهب المتفوقة، عن التفاعل والإنتاج.

ف (الصوم) فقر إجباري، تفرضه الشريعة الإسلامية، ليتساوى الجميع في بواطنهم - سواء من يملك الملايين ومن لا يملك شيئاً - كما يتساوى الجميع في صفوف الصلاة، وموقف الحج، ليشعر أصحاب الأموال والأنساب والمناصب، بأنّ الناس - جميعاً - متساوون في اعتبارهم، كما أنهم متساوون في أجسامهم، فجسم الملك ليس أضخم من جسم الجندي، ولا يأكل أكثر مما يأكل الحارس، ولا يتصرف بجسمه في الملابس والمساكن، أكثر مما يتصرف فيه فراشه، وربما كان الأمر بالعكس، وأما الأموال والأنساب والمناصب فإنها أمور خارجة عن واقع الأفراد، وتمايز الأفراد بالأمور الخارجة عن واقعهم، تمايز غير واقعي، وإنما التمايز الواقعي بين الأفراد، إنما يكون بالأفكار والأعمال فحسب. وحتى ذلك التمايز، يكون معنوياً وأخروياً، لا يسمح بتطاول أحد على أحد بسببه، ولا بتغيير موقفه أمام الله أو النظام أو المجتمع.

فها هم الأغنياء والكبراء، وأولئك هم الفقراء والضعفاء، يجوعون - جميعاً - في وقت واحد، ويشبعون، جميعاً - في وقت واحد، ويجمعهم شعور واحد، وحسّ مشترك وطبيعة سارية فيتعبدون بأمر عام من الله، فالله تعالى فوق الجميع، والجميع متساوون أمامه، وهذه الأموال المتراكمة المبعثرة، لا يتمتع بها أحد، حتى ولو نفثة في (سجارة) إلا بأذن الله، لأنّ المال لله، يصرفه كيف يشاء، والجميع عباده.

* * * * *

وهكذا الصوم يدع الفقير يشعر بشعور الغني، والغني يحسّ بإحساس الفقير، فيتعاطفان، ويتراحمان، على صعيد المساواة، لا على حساب السيد والمسود، والمعطي والسائل.

ف (الصوم) فريضة إسلامية، ومن طبيعة الإسلام أن يخلع طابعه العام على جميع فرائضه وشعاراته، فهو يطبعها بالمساواة.

و (الصلاة) رأس العبادات وعمود الدين، تفرض على الجميع مع انطلاقة (التكبير) من المآذن والمدافع، فيقف الجميع في وقت واحد، في صفوف متساوية منسقة، متجهين إلى نقطة واحدة - وهي الكعبة -.

و (الضرائب) الإسلامية - المتماثلة في الخمس، والزكاة، والجزية والخراج، والمقاسمة - تجبي من الجميع، بنسبة محدودة، عند توفر شرائطها، وتوزع على الجميع بنسبة محدودة، عند توفر شرائطها.

و (الحج) واجب عام يشمل كل من استطاع إليه سبيلاً، ويؤديه الجميع، في زيٍّ موحد، ويقفون في مواقف

معينة، ويمارسون طقوس خاصة، ويهتفون بندايات محدودة.

و (الجهاد) واجب عام يشمل كل من يطيق حمل السلاح - عند توفر شروطه - ولا يستثنى منه إلا فاقدوا الشروط.

و (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر) واجبان عامان، يشملان كل من يشاهد معروفاً متروكاً، أو منكر معمولاً، ويقدر على الأمر بالأول والنهي عن الثاني - مع توفر شروطهما - من غير فرق بين الشخصيات بالمسؤولة، وغير المسؤولة، ولا بين رجال الدين وغيرهم.

و (التولي) - لأولياء الله، و (التبري) - من أعداء الله - واجبان عامان، يشملان كافة المسلمين، بلا تمييز أو تفریق، بين أعظم الأفراد وأصغر الأفراد.

و (الصوم) هكذا، فهو يساوي بين الطبقات المتميزة، على صعيد الجوع والعطش، فيعرف الغني ألم الفقير، ويعرف الفقير مساواته للغني.

وكذلك، يطبق الإسلام نظام المساواة العملية، واضحة صريحة، معلناً أن الحياة الصحيحة - على أتمها - إنما تكون حين يتساوى الناس في الجوع والشبع، لا حينما يتفاضلون بالأموال.

وهنا ينهض الشاب الطبيعي، ليقول إذن، فالإسلام يدعو عن طريق الصوم، إلى المساواة التي ندعو إليها عن طريق الاشتراكية.

غير أن الجواب، يأتي عفو القلم وجري خاطر، فالفرق بين الصوم، الذي فرض لإشعار المساواة، وبين الاشتراكية الجائرة، التي فرضت لهدم الأسس الفطرية للاقتصاد الحر، كالفرق بين الرياضي الذي يحمل الأثقال، ويقوم بأعنف الحركات، وبين السجين الذي يرزخ تحت الأصفاد، والأعمال الشاقة، كلاهما في الظاهر يتحمل الأعباء الثقالة، ولكنهما يختلفان في الأسلوب والهدف، أشد الاختلاف.

إن الصوم، يولد في الأفراد الشعور بالمساواة، حتى يندفعوا إلى تلبية الوازع الداخلي، لرفع مستوى الفقير، كما أن التعاليم الصحية، تدفع الأجهزة المعوية، إلى توزيع خلاصات الأغذية على العضلات، بنسبة عادلة، بينما الاشتراكية تقطع هذا بالحديد والنار، لتوفر على ذلك، كما لو أردنا التسوية بين عضلات إنسان مترهل، فقطعنا اللحوم المنسدلة من البطن والأكفال، لنلصقها بالمناكب والأعضاء.

إن الفارق بين الطريقتين، ظاهر بين، وإن كان قد يدق على المتحمسين المندفعين، الذين تعودوا: إلقاء النظرة السطحية على الحقائق، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التوغل، لإدراك كنه الأشياء.

٣: الرحمة

ومتى شعر الجميع، بأن هذه الأموال، التي كانوا يحرصون عليها، ويعرفونها مقياس التمايز بين الطبقات، أصبحت لا تغني عنهم شيئاً، فقد تساوى الأغنياء، بأولئك الفقراء، الذين لم يتكاثروا بالمال... تهون الثروات في أنظارهم، فلا يحرص عليها الأغنياء، ولا يحقد على أصحابها الفقراء.

ومن الجانب الآخر، حيث يشعر الأغنياء، بوطأة الجوع فتفت أحسانهم، يتذكرون أولئك الفقراء، الذين هم أبدأ بمنزلة الصانمين في الجوع الحرمان، ومن الأمور المثبتة في علم النفس: أن الرحمة لا تنشأ إلا من الألم.

وطريقة أيلام الفرد تنحصر في أمرين:

الأول - إصابته بالكوارث النكبات.

الثاني - فرض الصوم عليه، حتى يمتنع عن الغذاء وشبهه الغذاء، مدة، آخرها آخر الطاقة - أو أدنى منها - والأمر الثاني أقرب إلى تفجير الرحمة في النفس، لأنه يترك للفرد مجال التأمل والتفكير، بينما الأمر الأول، يذهله ويربكه، ويصادر منه كل إمكان للفكر والاستنتاج.

ومتى تبودلت الرحمة بين الغني والفقير تآلفاً، واطمن كلٌّ منهما إلى صاحبه، فتخبو ثورة الفقير، كما تذوى كبرياء الغني.

فبالصوم يصبح المجتمع ملائكياً، يشعر الأغنياء والفقراء فيه بالمساواة، فلا يثور الفقير على الغني، ولا يستعلي الغني فيه على الفقير، فيكون المجتمع الملتزم بالصوم، معجزة من معجزات الإسلام، التي عجزت عن الإتيان بمثلها قوانين الأرض.

ومما يجدر ذكره أن فائدة الصوم هذه، ليست مما يخص الأغنياء، الذين لا يدفعون الزكاة، حتى يقال: فلم فرض الصوم، على الذين يؤدون الزكاة؟! فالتاس جميعاً - يجب أن يكونوا رحماء بينهم، فالكل راع، والكل مسؤول عن الرحمة على رعيته، والغني الذي يدفع الزكاة - مثل الغني الذي لا يدفع الزكاة - يلزم أن يكون رحيماً، يشفق على من رأسهم. كما أن الفقير - مهما كان مدقعاً - فله زوجة وأولاد وأقارب، يتكفل حمايتهم، فيجب عليه: أن يفيض عليهم من عفوه ورحمته، ما يكافئ غلظة العيش وخشونة الحياة.

إن فالرحمة حاجة الجميع، ولا يستغني عنها أحد، وإن كانت في الغني أنفع، فإتياها في الفقر أروع.

٤ : الحرية

والصوم، ينشر في المجتمع روح الحرية - كما يجب أن نفهم الحرية - لأنَّ (الحرية) هي: (التخلص من أنواع الأسر، الذي يجعل الإنسان أحياناً، لسلطة عليه إرادتها، ويدين لها بالطاعة) وهي كلمة، تقابل كلمة (العبودية). وبتعبير آخر، إنَّ (الحرية) تعني: (استقلال تفكير الفرد، في أن يفعل ما يشاء) وإذا كانت هنالك سلطات تحاول فرض توجيهها على فرد، فتلك هي (العبودية) سواءً أكانت تلك السلطات، خارجة عن كيان الفرد، أو داخلية في كيانه، فالخضوع لله (عبودية)، والرضوخ للعقل عبودية، والخنوع أمام السلطان الجائر عبودية، والاستسلام للنفس عبودية. ولكن هل تكون جميع هذه الأنواع من العبودية مكروهة، أو تكون كافة هذه العبوديات مستحبة، كلا، إنَّ الرضوخ للعقل وإن كانت عبودية إلا أنها عبودية محمودة، والاستسلام للنفس عبودية مذمومة، إذن، فذات العبودية، ليست حسنة ولا سيئة وإنما هي حقيقة مجردة من الصفات، ولا تتصف بالحسن والقبح إلا إذا طرأت عليها ألوان خارجية.

فالعبودية لله محبوبة، لأنها عبودية واقعة، لا يستطيع أي مخلوق فكاًكاً منها ((وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً)) ((وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)) ((وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ))، ولأنها عبودية تنفع ولا تضر، والعبودية للعقل كذلك، محبوبة، لأنها ترشد إلى الخير، ولا تضر في الشرور، وأما العبودية للسلطان الجائر، فإتياها عبودية مبغوضة، لأنها ليست واقعة، ولأنها تضر ولا تنفع، والعبودية للنفس كذلك، مبغوضة، لأنها تضر في الشرور، ولا ترشد إلى الخير.

ومنن الحقائق: إنَّ الإنسان أبداً يكون خاضعاً لاثنتين من هذه العبوديات الأربع، ولا يستطيع التحرر من اثنتين

منها إلا ليرضخ لأخريين، فأما يكون الإنسان خاضعاً لله والعقل، وأما أن يستعبده السلطان الجائر والنفس، ولا يمكن أن يتحرر من عبودية السلطان الجائر والنفس، إلا إذا رضي بعبودية الله والعقل.

ولا ريب: إن عبودية الله والعقل، خير من عبودية السلطان الجائر والنفس، بل العبودية الأولى، شرف لا يدانيه شرف، وفوق النبوة والرسالة، كما نقرأ في الصلاة: (أشهد أن محمداً عبده ورسوله) ولولا أن العبودية لله أشرف من رسالة السماء، لما قدمت عليها، بينما تكون العبودية للسلطان الجائر والنفس، جريمة لا تدانيها جريمة، حتى جعلها الله أول جريمة يحاسب عليها الإنسان قبل الموت، كما في قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاتُوا جُرُوءًا فِيهَا)).

وإذا كان الإنسان مخيراً بين أن يختار أي نوع من هذه العبوديات الأربع، فالذي يرضى بعبودية الله والعقل، يكون حراً بأكمل معاني الحرية وأنبليها، فيما يكون الذين يجدون حريتهم في مخالفة الله والعقل، قوماً مستعبدين، قد استبعدهم سلطان جائر بأفكار مزيفة، أو استبعدتهم شهواتهم، فانجرقوا في تيارها المسعور. وهم حينما يعيبون على المؤمنين عبوديتهم لله والعقل، يعبدون أنفهم ما في الحياة من أفكار وغايات، وها هي صورتهم تظهر في القرآن - بكل وضوح -: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه؟) فمن يتمرد على عبودية الله تعالى، يكون قد استسلم - سلفاً - لعبودية الهوى: وما أجمل قول (ابن خضرويه): (في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية).

* * * * *

وتقتصر الحرية - في مفهوم كثير من الناس - على أحد معنيين: -

الأول: أن يكون الفرد، عبداً مملوكاً لفرد آخر.

والثاني: أن يتمتع الفرد، بالحقوق الإنسانية العامة - التي وردت في (الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان) غيب الثورة الفرنسية - التي أهمها حق الحياة وحق الملك، وحتى المأوى، وحق الوطن... وتتخلص، في: أن لا يكون الفرد، تحت سلطان حاكم مستبد، أو عدو مستمر.

وهذان المعنيان لمفهوم الحرية، وإن كانا صحيحين، إلا أنهما ليسا كل ما في كلمة (الحرية) من محتوى، إذ تسبقها حرية أخرى - قد تكون هي الحرية الحقة، التي تنطلق منها بقية معاني الحرية - وهي حرية الفرد من شهوات النفس، لأن الفرد، لا يباشر عملاً إيجابياً أو سلبياً، إلا تلبية للوازع الداخلي، فإذا سيطرت عليه شهواته، عاش أسيراً يخضع لنفوذها، ويمتثل أمرها، فكيف يستطيع مثله - وقد صرعه نفسه التي بين جنبيه - أن يتغلب على حاكم مستبد، أو عدو مستعمر؟

وهذا المعنى للحرية، هي التي جرت في منطلق امرأة عمران، إذ حكى عنها القرآن: ((إذ قالت امرأة عمران رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)). فما قصدت تحرره من عبودية الإنسان لأخيه الإنسان، وإنما قصدت تحرره من عبودية شهوة النفس، حتى يستطيع الخلوص لعبادة الله.

فهؤلاء الذي يجرون وراء الملذات، عبيد لما وقعوا في أسرهم، من مال ومتاع، كما في بعض القول المأثور: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة) وكما قال بعض الأحاديث المأثورة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما انتصر في عزوة، قال لأصحابه: ((... لقد فرغنا من الجهاد الأصغر، فعليكم بالجهاد

(الأكبر). فقالوا: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ (فقال (صلى الله عليه وآله وسلم)): (جهاد النفس).

* * * * *

وفي صوم سمو، لا يدركه إلا من مارس الصوم، فهي أنت - في شهر الصيام - تماماً كعهديك بأي يوم من أيام السنة، تجد حولك الطعام والشراب والنكاح - في كل لحظة - وتستطيع أن تمد يدك لنتال ما تشتتهي، وقد تكون طبيعة بلدك وعملك، بحيث تضحي سبباً جائعاً ظامناً، وربما تكون جرعة ماء، كافية لبل ريقك، ولكنك تريباً بنفسك عن الإسفاف إليها، وتسمو على جميع ما في الدنيا ما تشتتهي نفسك، وبالبحاح، إنك تربي نفسك على التسامي والتعالي، لتكون كبير النفس حقاً، حتى تستطيع أن تعتمد على نفسك، لممارسة مهام الأمور، إنك تنمي في نفسك الثقة بالله والثقة بنفسك، لتخرج إلى المعارك المصيرية، سواءً أكنت فرداً، أم حقت بك الألوفا... فمن يستطيع قهر نفسه، يستطيع قهر كل ما يتعرض من صعاب، فإذا طلب الحرية العامة، وحمي وطيس معركتها مع متحكم ظالم، أو مستعمر غاشم، لم تتعلق نفسه بعرض من الدنيا، بل أثر الموت في سبيل الحق، والحياة الحرة في حماية السلاح على العيش الناعم في ظل الطغيان.

وعلى هذا المعنى تربي الرعيل الأول من أمّة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهوت على أقدامه الرؤوس والتيجان، ورفرفت راية القرآن على ثلاثة أرباع المعمورة.

* * * * *

وهناك سؤال يفرض نفسه على البحث، وهو:

(إذا كان الصوم لمجرد الارتفاع بالنفس عن (عبادة الطعام) فقد تبرز في المجتمعات، النفوس الكبيرة السامية، التي لا تعرف للطعام وزناً، ولا تعتبر الإمساك عنه إلى أمد قريب، من الامتحانات العسيرة الشاقة، كالأخيار في كل جيل أو على رأسهم المعصومون (عليهم السلام) فيجب أن تخصص فريضة الصوم بغيرهم، لأنهم بلغوا ما يحاوله الصوم).

الجواب من الوجهين:

أولاً: إن رسالة الصوم، لا تختصر في مجرد الارتفاع بالنفس عن (عبادة الطعام) حتى يستغني عنه كل من لا يأبه بالطعام وعلى رأسهم المعصومون (عليهم السلام) وإنما تكون للصوم فوائد كثيرة متنوعة. منها الاجتماعية، ومنها النفسية، ومنها الصحية، وقد تتوفر هذه الفوائد - بأجمعها - في بعض الأفراد، وقد لا يتوفر إلا بعضها في البعض الآخر، فلا بد من ممارسة الصوم على الجميع، ليكمل كل نواقصه من تلك الفوائد. والمعصومون (عليهم السلام)، وإن استغنوا عن فوائده الاجتماعية والنفسية، لأنهم قد بلغوا فوق ما يحاوله الصوم، إلا أن من المحتمل، احتياجهم إلى فوائد الصحية، وإن الله تعالى: كان أعلم منا بحاجاتهم ونواقصهم، يوم أمرهم بالصوم.

ثانياً: وحتى لو فرضنا اختصار فوائد الصوم، في الارتفاع بالنفس البشرية عن (عبادة الطعام) ووجد في المجتمعات، الأخيار الذين يستهينون بالطعام، فإن هذه الصفة السامية - شأنها شأن بقية الصفات - تحتاج إلى التغذية والتشجيع، حتى تبقى وتتركز، وإن تركت وأهملت، تضعف وتتوتر، فالأخيار يستهينون بالطعام وكل ما في الدنيا من نعم، ولا بد أن يؤكدوا - في أنفسهم - هذه الصفة باستمرار، ليزدادوا سموً وارتفاعاً، كالبطل، الذي يرفع بيديه (٥٠٠) كيلو غرام من الحديد، فإنه إذا استطاع أن يرفع هذه الكمية الكبيرة من الحديد، لا يكشف عن

استغناؤه، عن الدؤوب في ممارسة الحركات الرياضية اليومية، التي يؤديها مع عدة أرتال من الحديد، لأنه قد أحرز البطولة بواسطة الرياضة اليومية الخفيفة، وسوف يفقد بطولته إن ترك رياضته اليومية.

ثالثاً: وإذا استغنى الأخير، وعلى رأسهم المعصومون (عليهم السلام)، عن فوائد الصوم برمتها، فإن الصوم ذاته عبادة تقرب إلى الله تعالى، والمعصومون (عليهم السلام) مهما بلغوا، لا يستغنون عن العبادات، التي تقربهم إلى الله زلفى.

٥: الضمار

والصوم - بطبيعته - رياضة عنيفة في ذاته، ورياضة عنيفة في حدوده التي ترفض التلاعب ولو بمقدار لحظة واحدة، وهو رياضة للنفس، بما يكبح من جماحها، ورياضة للبدن، بما يحمله من تجربة قاسية.

وهو تعبنة إعدادية عامة، وتأهب القادرين على خوض معترك الحياة، لاقتحامه، كلما دقت الأجراس.

فالخيل، تضرع قبل السباق، والجند، يدرّب قبل المعركة، وكل صاحب مهنة أو وظيفة، يجرب قبل أن يعهد إليه بمسؤوليته، ولكن ليس هنالك إعداد عام لحمل أعباء الحياة، سوى الصوم، فهو الضمار العام للحياة.

* * * * *

والصوم - شهراً في العام - بالنسبة إلى الروح، كالرياضة السنوية، بالنسبة للجسم.

فقانون الصحة الجسمية، يحتم على كل عامل يريد حفظ صحته: أن يضمّن نفسه شهراً كاملاً في السنة، فيقلل في من غذاء النفس - أي الأشغال العقلية - وكذلك قانون الصحة الروحية، يحتم على كل إنسان أن يقلل من غذاء الجسم، شهراً كاملاً في السنة. ولما كانت حجة أطباء الأجسام، في ضرورة الإقلال من تغذية النفس، شهراً كل عام، هو لزوم تعويض ما فقده الجسم من القوة، مدى الأحد عشر شهراً، باستهلاك الاشتغالات العقلية، كذلك يحتاج أطباء الروح، بأنّ القصد من إقلال تغذية الجسم شهراً كل عام، وهو تعويض ما فقده الروح من القوة، باستهلاك الاشتغالات المادية.

ولا يهدف الإسلام من هذا التنظيم الحكيم، سوى حصول التوازن، بين حقوق الروح وحقوق الجسم، ليصبح الفرد المسلم، إنساناً كاملاً معتدل المزاج، متوسط المطالبات الطبيعية، حتى يسهل له نيل السعادة التي مات الفلاسفة دون الوصول إليها، وحتى يتقمص الوجود (روحانية) قبلت شكل العالم وأكسبت تلك الحفنة المتواضعة من الحطام البشري - في الجزيرة العربية المهملة - خلافة الله في الأرض، أنجبت منها قادة الملوك، وإخوان الملائكة.

وليس الصوم، من نوع الرياضات الهندوكية، التي يمارسها المرتاضون الهندوس، لسحق النفس، وإهمالها نهائياً، وإنما هو من نوع الرياضات الخفيفة، التي يوصي الطب جميع الناس، بممارستها لتنشيط عضلاتهم، لا لسحقها وإنكارها، ولعلّ القرآن الكريم حاول التعبير عن هذه الحقيقة، عندما اختتم بيان الصوم بقوله: ((يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)) أو لم يقل الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): (الصوم نصف الصبر، والصبر ثوابه الجنة)،. ولو كان الصوم يعادل طاقة الإنسان، يقضي على كيان النفس، لكان كل الصبر، ولم يكن نصف الصبر، لكنه ترويض لا تحطيم.

٦: الأيمان

(الإيمان) عادة، أكثر مما هو فكرة، فالصدق يسهل له الصدق، وبينما يتقل عليه الكذب، عندما الكذب يهون عليه الكذب، ويصعب عليه الصدق، والصلاة كبيرة إلا على الخاشعين.

وهكذا ينطبع الإنسان بكل ما تعود من حسن وقبيح، حتى المفكرون، فإنهم يتأثرون في تفكيرهم بالتقليد والعادة، ولهذا الواقع، نجد المفكرين، يرزحون تحت عقائد وتقاليد مجتمعتهم وأرضهم، ولا يتحررون منها، بل يرهقون أنفسهم، في محاولة تصويب تراثهم، وتبرير أخطائهم الموروثة، نعم ربما تكون التقاليد سخيطة إلى ما لا يمكن تأييدها بأي منطق، فيثور. عليها المفكرون، أو تقهرهم الجواذب الخارجية، لمكافحة عقائدهم البالية، فيفكرون في إلغائها، غير أن هذه الحالات قليلة لا تغير الاتجاه البشري العام، الذي يدعو إلى التمسك للتراث القومي، بقطع النظر عن كونه حقاً أو باطلاً، إلا الأنبياء والأئمة المعصومون (عليهم السلام)، فإنّ البيئات لا تنال منهم، ولا تفرض آرائها عليهم، لأنهم لا ينطقون عن هوى، ولا ينحرفون عن إرادة الله قيد شعرة.

وانطلاقاً مع هذه الحقيقة، يفرغ الإسلام طاقته، لجعل الأيمان عادة - ولكنها عادة علمية حكيمة - ولا يقتنع لتركيز الأيمان في العقول، بالحجج والبراهين فحسب. فالأيمان ليس فكرة علمية تنعزل في الخيال، دون أن تغادر مقرها إلى يوم النشور، إلا لتتسرب من خيال أستاذ إلى خيال تلميذ، وإنما الأيمان - أو الدين لو شئنا التعبير في إطار أوسع - عقديّة، وعملاً، وحياءً، وهي تأتي أن تخضع للبرهان، فتمت استطاعت البراهين أن توجه الأعمال أو تنظم الحياة؟ بل لا بد في ذلك من القوة، أما القوة المادية - وهي لا تتماصك إلا لتتلاشى، ولا تزحف، إلا لتعصف بها الانتفاضات، فتكسحها من الطريق - وأما القوة المعنوية الكامنة في النفوس، وهي تحكم ولا تزول، وتصلح للبقاء والخلود.

والإيمان - بذاته - قوة معبنة في النفوس، وجاهزة للتفجير، وإلقاء الضوء أمام الإنسان، في كل خطوة ونبضة وكلمة، غير أن الأيمان الذي يُتلقى من الأدلة والمناقضات فقط، لا تعدو أن تكون فكرة، لها مكانتها في الخيال والكتب إلى الميدان، وتحاكم الناس، وتحاسب المترفين، وتأخذ وتعطي، فذلك ما لا يؤديه الأيمان الفكري، وإنما يكون ذلك من صلاحيات الأيمان الواقعي، الذي أصبح فكرة وعادة، ثم الفكرة تولد العقيدة، والعادة توجه المجتمع. وبهذه - جميعاً - تكمل العناصر اللازمة للدين.

والإسلام لهضمه هذه الحقائق، يكّدس بين أيدي الناس، ملايين الأدلة العلمية والكونية على الدين، لإنتاج الفكرة التي تنتهي بالعقيدة، وبهذا يكمل الدين الفكري، الذي هو شطر من الدين، وحيث يبقى الشطر الآخر شاغراً، لا تفهمه الحجج والبيانات، يأمر الإسلام بالعبادات، لتكوين الدين العملي، وأحفل مظاهر العبادات، والصلاة، ثم الصوم، ثم الحج، ومتى احتلت العبادات مركزها الحيوية، تبتعتها الاجتماعيات: (المعاملات - في عرف الفقهاء -) بالتبع، ومتى كررها الإنسان أصبح عادة، يألّفها ويأنس بها ولم يجد في مزاولتها تعباً ولا نصباً، بل كثيراً ما يهرب من المتاعب إليها. لأنّه يجد فيها راحة ضميره، واطمئنان قلبه، والقرب إلى الله تعالى. وهكذا العادة توجه المجتمع.

وأما كيف تفتح العبادات مجالها إلى التطبيق، بعد ما ظهر أن الفكرة لا تنطبق إلا بالعادة، وكيف الفكرة تولد العادة؟؟ فجوابه إنّ الفكرة - في المستويات العادية - لا تقدر على فرض نفسها، ولكنّ الفكرة - في المستويات القيادية - تكون قوية نابضة، إلى حيث تشق طريقها في الحياة بنفسها. فمثلاً النبي ووصيه - في كل دور - يأتيان

بالعبادات التي بشر بها، لقوة إيمانها، ثم - بطبيعة الدعوة - يتبعهما إخوانهما وأزواجهما، وأولادهما وسائر أفراد أسرتهما، فيكون مجموعهم عرفاً خاصاً، وكل من يدخل معهم في الأيمان الفكري، يشعر بأنه يخرج من مجتمع ويدخل في مجتمع آخر، فينصهر في المجتمع الجديد، ويأخذ بعباداته تلبية لإرادة الجو الاجتماعي، ثم ينضاعل المجتمع القديم، بقدر ما يتوسع المجتمع الجديد، ثم يتوسع نطاقه ويتوسع، حتى يحتوي على أمة كبيرة، لها عادات موروثة، ومتأصلة في حياتها.

والصوم، يمتاز - ما بين العبادات - بأثره الفعال، في جعل الأيمان عادة، لأن الصوم - أبداً - يكون قريبة إلى الله، ولا يتسلل إليه الرياء، ولا السمعة، ففي وسع أي فرد أن يفطر متى شاء ودون أن يعلم به أحد من الناس، فإن لم يفطر الفرد، واستمر في الصيام طول النهار، يدل على أنه كان متذكراً لله - ولو بالارتكاز - وإلا فمن غير الممكن أن يرى الماء وهو عطشان، فلا يشربه، ويجد الطعام وهو جوعان، وثم لا يطعمه، إلا لوزع باطني، يهون عليه تحمل العطش والجوع، في سبيل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

فمن قاوم غرانزه، وكافح رغباته كلها، طول النهار، طوال شهر كامل، راضت نفسه على الاتقياد لله، ورضخت لاتباع أوامره وزواجه حرفياً، سواءً أعرف فلسفتها أم لم يعرفها؟.. فلا تكاد تمضي عليه شهور من رمضان، إلا وتتركز أعماله وأقواله، على (مراقبة الله) حتى تصبح (ملكة) مطبوعة راسخة، في أعماق أعماق وجدانه، بحيث تقوى على التحكم في حياته، وتنمو وتتوسع على ممر الأيام، ولا تتهافت ولا تبور. فبالصوم يتمكن الأيمان من نفس الفرد، ويملاً كيانه، ويتأصل في عواطفه وأفكاره.

٧: اختبار سنوي

وبعدما يحاول الصوم، تأصيل القيم الاجتماعية السابقة، لا يتركها تحت رحمة الحوادث، التي تسفى كلما تأتي عليه، وإنما يغذيها ويرعاها - ما دامت الحياة - باختبار سنوي دقيق. حتى يكملها إن نقصت، وينميها إن لم ينقص منها شيء.

فلصوم اختبار للمنتمين إلى الدين الإسلامي، وامتحان لضمائرهم وأعصابهم وإيمانهم، إنه عملية تفتيش.

تفتيش ديني.

وتفتيش صحي.

وتفتيش إرادي.

وتفتيش ثقافي.

وتفتيش اجتماعي.

وتفتيش خلقي.

أما إنه تفتيش ديني، فإن شهر الصيام، يعتبر محطة في طريق الزمن، أو في طريق العمر، يقف فيها المسلم، بعد أحد عشر شهراً - ليسائل نفسه: أين أنت من دينك؟ وهل انصرفت هذه الشهور من عمرك على نحو مرض لضميرك الديني، أو أن هناك نواقص - فيك - تحتاج إلى الرتق والترميم؟؟.

فواجب المسلم، أن يحاسب نفسه مساء كل يوم، ليتأكد أين هو من علاقته بربه، وعلاقته مع الناس؟؟.

استجابة للحديث الشريف: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا). ولكن إذا لم تتسير هذه (الوقفة اليومية) فلا أقل

من أن تكون (وقفه سنوية) في أفضل الشهور، وهو شهر رمضان، الذي يساعد جوه الروحي، وذكرياته الدينية، على هذه (الوقفة).

ولا بد أن يكون هذا التفتيش شاملاً، للظاهر والباطن، حتى يتأكد المسلم من عقيدته القلبية، وضميره الديني، ويعرف هل أن علاقته بالله موطدة، أم اعتورها الخلل والفتور؟ وإذا كانت تشكو الضعف والعلل، فعليه أن يسارع إلى إنقاذها بمدد روعي، يعيد إليها التوفر والنشاط.

وإما إنه تفتيش صحي، فإن الصوم يوفر على الأجهزة الباطنية، فترة راحة، لهضم الرواسب، التي تطفلت عليها بالجشع وتلون الأطعمة. ولكن لا يستفيد من هذه الناحية، سوى الصائم الذي عرف أن الصوم هو الذي يكون له جوع وعطش يذكرانه بجوع وعطش يوم القيامة، وأما الصائم الذي يشحن بطنه من أول الليل إلى آخره بألوان الطعام، حتى يلهث من أول النهار إلى آخره، ويتجشأ على مائدة الفطور، فإن الصوم لا يزيده إلا تخمة وثقلاً.

وأما إنه تفتيش إرادي، فإن الصوم يعين على قوة الإرادة، أولاً: لأنه يقسر الإنسان على الإضراب عن شهوات الجسد، التي تحرم في أوقات الصوم، في مدد متقاربة رتيبة.

ثانياً: لأنه ينسق وجبات الطعام، في الفطور أول المغرب، والسحور قبيل الفجر، فيتحقق له تدريب إرادته على العزم، ومرانها على الالتزام بالرأي الأسد.

وأما إنه تفتيش ثقافي، فمرجهه إلى ما هو مستحب في شهر رمضان، من تلاوة القرآن، ودراسة معانيه، ومذاكرة الأحكام، والتطلع إلى السيرة الكريمة، ومن الطبيعي أن تستطرد هذه العلوم، إلى التاريخ واللغة والبلاغة، وبقية الثقافات الروحية والعربية.

وأما إنه تفتيش اجتماعي وخلقى - وهما متلازمان، فمتى صلح الخلق صلح المجتمع، ومتى فسد الخلق فسد المجتمع - فإن الصوم حيث يهدأ الأعصاب، ويخفف سرعة الدم، يساعد على خفض الجناح، والجروح إلى الخير والمعروف، بالإضافة إلى أن التعاليم الواردة في أدب الصائم وكون الشياطين مغلولة في شهر رمضان، والتحذيرات العنيفة المأثورة، عن ارتكاب المنكر في حالة الصيام، تطيب النفوس، وتنعش القلوب، فتنشر روح التسامح والوئام بين أفراد المجتمع.

الفائدة النفسية

تتلخص الفائدة النفسية للصوم، في الأمور التالية:

١: الإرادة

إن المجتمع - اليوم - يعالج صراعاً دائماً - في مجزرة الأعراض، والكرامات، نتيجة لضياح المبادئ والمثل، وتبعاً لاندفاعه اللإرادي مع المطامع والأهواء، سيراً في ركاب التقاليد المفترضة، والعادات المختلفة السخيفة. لذلك اندلعت العواطف والشهوات، لتقضي على أصداء العقل والضمير.

وهذه الجرائم، التي أربكت الحياة، وشغبت على التاريخ والاجتماع، ناتجة من ضعف (الإرادة) التي لا تجرأ

على مقاومة عوامل الشر والإغراء، ولا تستطيع أن تكفكف العواطف والشهوات.

لأنَّ (الإرادة) هي القوة، التي تمكن الإنسان من أن يقول: (نعم) أو يقول: (لا)، عندما تدعوه شهوة أو عاطفة، أو يسخره ظالم مستهتر، لخدمة أغراضه ومطامعه.

فب (الإرادة) يكون الإنسان حراً في حياته، بحيث لا تستعبده شهوة، ولا تقهره عاطفة، ولا يملك عليه مصيره إنسان أبياً كان ذلك الإنسان، وهكذا يكون سيد نفسه، ويملك أن يريد وأن لا يريد... فالأدب الذي يرشد الابن إلى ما ينبغي أن يفعل وما لا ينبغي، والابن الذي يتبع إرشادات أبيه، المعقولة، يسير في طريق قويم، إلى أن يصل إلى أهدافه في الحياة، بقدم ثابتة، ونجاح مطرد، فإذا كان عامل العاطفة مسيطراً عليهما في أوار تنشئته مال، الابن إلى (الدلال) ففسد وأفسد. وإذا كان عنصر (الإرادة) متحكماً في التربية نشأ الابن عضواً نافعاً في الهيئة البشرية.

فوظيفة (الإرادة) في حياة الإنسان، هي وظيفة (الضابط) في المعسكر، وإن (الإرادة) تكبح جماح الغريزة، وتخفف غلواء (الحيوان) الذي يعيش في عروق (الإنسان) فيثير شهواته وعواطفه، كما أن (الضابط) يقبض المعسكر، فيمنع توتره وفضوله.

ولما كانت (الإرادة) تملك أن تقبض وتبسط حياة الإنسان، وتحدد شهوته وعواطفه، كان على الإسلام أن يهتم بتكوين (الإرادة) للإنسان حتى يستطيع أن يطيع الإسلام، ففرض عليه الصوم، الذي هو (مدرسة الإرادة) ليحفظه من السقطة والضياع، ويأخذ بيد المسلم، من أن يستسلم للأحداث، أو يستخف ويستهيئ بالتبعات، فلا يركب رأسه ولا يخلع عذاره، ولا يجري في أعقاب كل غي وغاو.

والصوم يؤدي إلى تكوين (الإرادة) من ناحيتين:

الأولى: إن الصوم من طغيان الجسم على الروح، والمادة على الإنسانية، والعبودية على الحرية، وترويض للإنسان، على أن يقول: (لا) عندما تدعوه شهوته إلى الأكل أو الشرب، أو الاستمتاع، أو تدعوه عادته إلى أحدها.

ولتلاحظ نوعية الأمور التي حرّمها الله على الصائم، وشدة علاقتها بحياته اليومية، ومدى هيمنة العادة عليها، لنعرف قوة عملية الصوم، وأثرها في تربية (الإرادة) فإن رياضة النفس فيما هو من ضروريات الحياة، يجعل الإنسان أقوى على ترويض نفسه، للكف عما دونها.

وهنا ندرك: كيف ينتهي الصوم بالكفاح لأجل الحق والخير، فإن الكفاح إرادة الخير، وانطلاق لتحقيق تلك (الإرادة) مهما كلف الأمر.

وقد يؤدي البحث إلى سؤال، هو: (إن الصوم إلى جانب كونه ترويضاً للنفس لتربية (الإرادة)، عبادة لله، كبقية العبادات، التي يلتقي فيها الإنسان بربه، فتتضاءل إرادته وتذوب إزاء إرادته الله تعالى، وهل يمكن تقوية (الإرادة) بعرضها على التضاؤل والتذوبان)؟.

والجواب: (إن إرادة الإنسان، عندما تخضع أمام إرادة الله سبحانه، ولا تذوب لتموت، وإنما لتحي وتدمم، فالإرادة الإنسانية، إذا استقلت في الوجود، تكون متهافتة قالبية للانهيار أمام الزعازع والأهوال، ولكن إذا انصهرت الإرادة الإنسانية في الإرادة الإلهية، تعود إلى الحياة أقوى ما تكون على مواجهة الأحداث في ميادين الصراع، حيث تتخذ من الانضمام إلى إرادة الله، مصدر قوة وثقة، لا يمكن أن يأتي عليهما شيء، ما دام إيمانه

بالله مطلقاً، يعرف الله فوق كل إنسان وسلطان.

الثانية: إنَّ الصوم حيث يطول أمده شهراً كاملاً، يغير - هو والمستحبات التابعة له - برامج حياة الفرد، لأنَّه قد اعتاد في أيام السنة، أن يتناول وجبات الطعام، في مواعيدها المعهودة، حتى يشهر بالضجر والملل، ولكنه حين يصوم، يقع مع عاداته في صراع عنيف، فالعادة التي ملكت عليه حواسه، وفتحت مجراها في سلوكه، تجذبه إليها في أوقاتها، ومسلحة بقوة الشهوة إلى الأكل أو الشرب أو الجنس، ولكنه يمضي في إرادته، دون أن يلتفت إليها، فيمنعه عن الطيبات في أوقاتها، ويوفر عليه الطيبات في غير أوقاتها، وتبعاً لذلك، تتطور حياته كلها، فينام في غير وقته، ويعمل في غير دوامه، ويعبد الله أكثر من سائر الشهور، ويجتمع بالمسلمين أكثر من بقية المناسبات، ويحاول إتيان القربات أكثر من الأوقات الأخر، وكل هذه التطورات، تأتي فجأة، مع بزوغ هلال شهر رمضان، فيجتمع للمسلم - الذي عاش حياة رتيبة - جهاداً بالنهار على الصوم، لكبح نفسه ونوازعها وأمنياتها، وجلاد بالليل، للسهر على القربات، أحياناً لضميره، وتنشيطاً لإيمانه.

ومن تدرّب على أن يمتنع - باختياره - عن شهواته ولذائذه، ثم يبقى مُصرّاً على الامتناع عنها في أوقات معينة، لا لشيء، إلا استجابة لأمر واحد من أوامر دينه، لا بد أن تخر على أقدامه الأهواء والعادات، صرعى مغلولة، ويشعر بالنصر، الذي يحس به القائد المظفر، فتخضع هواجسه وشهواته لفكره، منقاداً للوازع النفسي، مذعنة بالحس الديني، المسيطر على النفس ومشاعرها.

وما الحياة في مظاهرها الجادة، إلا عزم يؤثر الإقدام على الإحجام، وأهم فوق بين الذين ينجحون في أعمالهم وبين الذي يفشلون، إن أولئك يتحكمون إلى إرادتهم، يواجهون الحياة بعزم حديدي لا يعرف العجز والهزيمة، وهؤلاء تخور إرادتهم، أمام عادة أو شهوة، فيسقطون خائعين.

* * * * *

عبادة التحرر

وممارسة الصوم - في شهر رمضان - لإبراز استقلال (الإرادة). تمرّن الصائم على اعتياد التحرر والاعتناق، من أحابيل الغريزة ومكايدها، وترهف عزمته وتشحذ مواهبه، وتستخرج ركانزه الدفينة، ليودعها مصرف روحانيته، ليجدد عنها - عند الشدائد - مدد الثبات والعزم والخشونة والجلد، حتى ينقلب الصائم بطلاً تتفجر أعصابه إيماناً ومضاءً، فلا يذل ولا يخشع، ولا يستكين، وإنما يبقى كالجندي المُعبأ، يتحفز - أبداً - للدفاع والثوب.

لأنَّ الإخلاص لله في العبادة، يعني - في جوهره وحقيقته - التحرر من الخضوع، لكل قوة - من دون الله - مهما بلغت، وبذلك كان الصوم، وسيلة لتحرير الإنسان من عبودية أخيه الإنسان، ومن عبودية العادات، والشهوات.

٢: الثبات

إنَّ (الإرادة) في النفس، بمنزلة مركز الأعصاب في الجسد، فمتى تقوّت (الإرادة) تفرعت عنها صفات كثيرة، فإذا قويت (إرادة الفرد)، حتى سيطرت على نفسه، لا تتمرد عليه أعصابه، ولا ترتبك مشاعره، ولا يغيب عنه

شعوره، مهما عصفت به الأزمات، وإنما يصبح رجلاً مفكراً صموداً صبوراً، لا يكاد يثور في أوانها وغير أوانها، بل يبقى إنساناً متمكناً قاد عنان ذاته، ومرن على تحمل الصعاب، فيرسخ في موضع أقدامه، محافظاً على الهدوء والالتزان، عندما تعزف الأحداث، ويغني الموت، وتتراقص الأهوال، ويتشذر الناس - من هنا وهناك - مغلولة خوارة، ويبقى هو رابطاً، لا تزعه الشدائد والأخطار، وإنما يتلقاها بفانض إيمان، وشجاعة مطبوعة، فهو الذي راض نفسه على المخاطر، في سبيل الله وفي سبيل الله وحده، ولا يزال يغذي إيمانه وعزائم بالصوم شهراً من كل عام.

هكذا الصوم، يجعل المسلم شاعراً بأنه سيد نفسه وإرادته، وأنه هو وحده الذي تعود الصبر والثبات، ليملك بنفسه مصيره، ويقود مستقبله.

و (الثبات) فضيلة عظيمة. كان فلاسفة العالم - قبل الإسلام - وكثير من المرتاضون - حتى اليوم - يفرضون على أنفسهم الشدائد القاسية - عليهم ينالوا بعض (الثبات) ولكنهم - بالرغم من قسوة فرائضهم - لا يبلغون ما يبلغه المسلم بالصوم.

ولقد أرق علماء النفس والاجتماع أنفسهم، ليوفروا للإنسان علاجاً يسبغ عليه الثبات، فلم يبلغوا ما بلغه الإسلام، ولم يقدرُوا على إنقاذ البشرية، من ألوان التوترات، التي تجدها اليوم، ولم يجدها المجتمع الإسلامي في الصدر الأول، بفضل الصوم، ولم تملك القوانين الوضعية - حتى اليوم - رغم تطوراتها المستمرة أن توفر للإنسان الفرصة الكافية - التي اعتبروها أساس الثبات - التي أتاحها الإسلام لشعوبه في شهر رمضان.

* * * * *

وهذان الخلقان: (الإرادة) و (الثبات) لا يستفادان من أي فريضة، كما يستفادان من الصوم، في الوقت يكونان مما يعم الأغنياء والفقراء، فإتتهما من أزم الصفات لكل إنسان، في كل تكليف، وعند كل تبعة، وهما لازمان للفقير لزومهما للغني، وإذا كان أحدهما أوج إليهما من الآخر، فهو الفقير لأن الغني قد يجد لديه، ما يعوض التفريط في أعمال (الإرادة) و (الثبات)، بينما الغرامة ليست ميسورة للفقير.

٣: الاحتمال

كان الإنسان وحشاً خرج من الغاب، ولكن لم يخرج الوحش من الإنسان، ورغم (الملك) الواعي في ضميره - الذي يرسل إليه التوجيهات أبداً وفي كل حال - فإن (الوحش) الراقد في حناياه، قد يطغي عليه، فيثور ويلعن ويسب ويعكر الحياة، وقد يجد هذا (الوحش) إمكان التعبير فيفرغ سخائمه، ويهدأ، وربما لا يجد قدرة التعبير، حيث يجد أمامه (أوحش منه) أو يكبله (الوحوش) الأخر، يغلقون عليه نوافذ الحياة، فيضيق صدره فيحطم نفسه، وينتحر. هل (الانتحار) إلا إرادة ذلك (الوحش) الجزع؟ (إن الإنسان خلق هلوياً * إذا مسه الشر جزوعاً)، هل المنتحر إلا إنساناً عاجزاً. غير واثق بربه وبنفسه.

والصوم، جاء لترويض ذلك (الوحش) ليصبح (إنساناً) مستأنساً يألف الناس ويألف ما حوله، ويألف به الناس، ويألف ما حوله، أو لم يقل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (المسلم ألف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يألف)؟

فالصوم، مستشفى جماعية سيارة، تعالج فيها الغرائز، ومصفاة، تصفى فيها النفوس، من شوائب المجتمع،

وبوتقة، تصهر فيها الأرواح لتنضج وتتبلور، فلا يسكره الشيع، لبيطر فيعربد ويفسد، ولا يهيجه الفقر، ليسعى مسعوراً في الأرض، يقتل هذا ويلعن ذلك، لكسب العيش الحرام.

أو ليست الشكاوى الفردية الجماعية والدولية، التي ترددها البشرية وتنصب لمعالجتها المحاكم والمؤتمرات، كلها من الجزع وعدم الاحتمال، فالغني يجزع من الغني، والفقير يجزع من الفقير، وكلاهما يعلن الحرب على الآخر.

والصوم، جاء ليعلمنا الغنى ليلاً والفقر نهاراً، حتى ننال خبرة اقتصادية، تمكننا من احتمال الغنى واحتمال الفقر، وإذا كان في الناس من يظن الصعوبة في احتمال الفقر، فأني أرى المشقة في احتمال الغنى، أكثر وأصعب.

إن شهر رمضان، فترة امتحان، يؤدي فيها المسلم ما أستذكره من الفضائل، فمن الناس من يؤدي الامتحان - كما اعتاد بعض الطلبة - بالغش، ومنها من يؤديه كسلاً وخيبة، ومنهم من يهمله ويتسلل منه، ومنهم من يؤديه بنجاح وتفوق.

وإذا كان الصوم اختباراً لأية فضيلة، فهو - قبل كل شيء - اختبار للاحتمال، كما قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (الصوم نصف الصبر، والصبر نصف الأيمان).

٤: الأخلاق

نستطيع أن نعرف (علم الخلاق) بأنه: (علم الواجب). لأن معنى (الواجب) هو الالتزام بأداء عمل مفروض، على أن يكون هذا العمل، غير قائم على (القهر) ولا على (المنفعة) فالعمل القائم على (القهر) ليس عمل أخلاقياً، بل كثيراً ما يكون ضد الأخلاق، لأن عنصر (الإرغام) يسلب حرية الإنسان وعزته، فيغدو الإنسان (آلة) لا تعرف الأخلاق.

والعمل القائم على (المنفعة)، لا يكون عملاً أخلاقياً، لأن الإنسان لا يؤديه إيماناً به، بل إيماناً بأجرته، فيفقد العمل صفته الذاتية المستقلة، ليصبح عملاً طريقياً يتقصد صفة هدفه، وإتاما العمل الأخلاقي، هو العمل الذي يأتي به الإنسان، لذاته المجردة، لا تكاد نجد عملاً، ينطبق عليه هذا التعريف، أظهر من الصوم، لأن الصائم لا ينال جزاءً على ذات الصوم - وإن نال الجزاء على صورته الظاهرة - ولا يفرض عليه إزام قهري - وإن فرض إزام على القيام بصورة الصوم - لأن حقيقة الصوم لا تبرز للوجود إلا بعد اكتمال شرائطه، وكل إنسان يستطيع أن يفطر دون أن يعلم به أحد، فلا يقع ذات الصوم الحقيقي، مقابل الأجرة، ولا تحت القهر.

بالإضافة إلى أن الصوم، حيث يهدأ الأعصاب، يخفف دورة الدم، وتهدأ فورت الجسد، فيحيا الصائم بروحه أكثر منه بجسده، فيكون انقياده لعقله أسهل من غير أحيان الصوم، فتنتلق في نفسه الفضائل دفعة واحدة، فتطغي غرائز الفضيلة على غرائز الرذيلة، ويتسامح أخاه، ويصفح عن المسيء، ويسعى للمصالح العامة، ويصل الرحم، يتحرك في عقله حب التأمل والتفكير، في فلسفة الوجود، وفلسفة الغنى والفقر، فتجيش عواطفه، ويود لو يستطيع أن لا يرى جانعاً أبداً، وأن يسخو بكل ما لديه، لإتقاذ الناس من الجوع، الذي يقاسي منه الأميين، فيندفع إلى تفقد الأهل والأرحام، وإطعام الجائعين، ومساعدة المحتاجين.

على أن الصائم الجائع، يكون أبعد الناس، عن التفكير في الخداع، والخصام، لأنه لا يجد الحول الذي يؤوله للخشونة والغلظة، وإتما يكون رقيقاً سهلاً، فيكون أصدق الناس لهجة، وأوفاهم وعداً، وأبعدهم عن الأذى والشر.

زيادة على أن رمضان، شهر يتطهر فيه كل شيء، ويتهذب فيه كل شيء، لأن الصوم يسموا بالروح، إلى حيث تحقر عنده المادة، ويصفو له إشراق القلب، ما دام دينه يقرر: إن الجوارح كلها لا بد أن تصوم، وتشارك المعدة والفرج، حتى يكمل صومه، على ما ورد من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (ما من عبد يصبح صائماً، فيُستتم فيقول: إني صائم، سلامٌ عليكم، إلا قال الرب تعالى: ((استجار عبدي بالصوم من شر عبدي، قد أجرته من النار، وأدخلته الجنة)). والحديث المأثور عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا صام أحدكم، فلا يجادلن أحداً، ولا يجهل ولا يسرع إلى الحلف والإيمان بالله، فإن جهل عليه أحد فليتحمله). فالصوم اللسان من الكذب، والغيبة، والنميمة، والقذف، وشهادة الزور، وتصوم العين عن الامتداد إلى المحرمات، ويصوم القلب عن الحقد والحسد والرياء، وتصوم اليد عن غير المباح - كالقتل والضرب والسرقة - وتصوم القدم عن السعي إلى المنكر والضلال، ويصوم الفكر عن التسولات الفاجرة والشبهات، وهكذا تتهذب النفس والحواس، ومتى تهذبت الشخصية الإنسانية، كان هنالك المجتمع السعيد.

وهذه المعاني الأخلاقية، التي يهدفها الإسلام من وراء الصوم، هي معانٍ كبيرة، ذات مقاصد تتعلق بإيجاد المجتمع المتكامل، وتعميم نظريات اجتماعية واقتصادية بالغة الأهمية.

٥: الجود

ومتى ترفع الإنسان عن الحياة، ومرنت نفسه، وتضاعلت أمامه موائد الدنيا، تسخو نفسه، فيسهل عليه الإنفاق والإيثار.

على أن الصائم حيث يتذوق ألم الجوع والحرمان، ويعيش حياة الفقراء والمساكين، يشعر بشعورهم، ويتلخع عن الدنيا، بقدر ما يطمئن إلى ثواب الآخرة، فيرق قلبه ويلين جانبه، فينخفض جناحه للمعوزين، ويرثى لهم، ويجود عليهم بطيب النفس.

ولنفس السبب، نجد الفقراء أرق على بعضهم من الأغنياء، حيث إن الفقير، يستطيع أن ينبض بشعور الفقير، ولكن الغني لا يطيق أن يشعر بواقع الفقير.

وعن ابن عباس: (كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان). وإن أهل البيت (عليهم السلام)، ضربوا أرفع المثل في الجود، عندما كانوا صائمين، فأثروا على أنفسهم المسكين واليتيم والأسير، حتى حياهم القرآن بسورة كاملة من القرآن، وهي سورة (هل أتى).

٦: الشكر

و الشكر صفة كريمة، تعني: (تقدير النعمة)، وهو بالإضافة إلى أنه يستدر رحمة الله تعالى كما ورد في القرآن الكريم: ((لئن شكرتم لأزيدنكم))، يدعو إلى استهلاك النعمة، في أفضل مصارفها، ويعصم الإنسان، عن

التبذير، الذي ينتهي - حتماً - بإثارة نعمة الله تعالى، كما ورد في القرآن الكريم: ((وَلَكِنَّ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)). وفقدان النعمة، بواسطة استهلاكها في مصارفها اللائقة.

والإنسان لا يستطيع تقدير النعمة، ما دامت متوفرة فيه، وإنما يقدرها إذا فقدها، فليس في الناس من يشكر نعمة السمع، مثلاً - إلا القليل ممن روضوا أنفسهم بالعبادات - ولكن إذا أصيب بالصمم الكامل، يعرف مدى عظمة نعمة السمع، ويقدرها تقديراً.

ولهذا الواقع، كان قسم من الأمراض والآفات، نعمة، يوفرها الله على العبد، إذا وجدته معرضاً عنه، من دون أن تؤثر فيه المواعظ والنذر، فيصيبه الله ببعض الآفات حتى ينتبه عن سكرته، ويؤوب إلى ربه خاشعاً شاكرأ. والصوم مرتبة بدائية من المواعظ العملية، حيث يسلب الله به من العباد، بعض نعمه في أوقات محدودة، ولا يسلبهم الاختيار، حتى يصابوا بالذل وإنما يسلبهم مؤقتاً وباختيارهم، بعض نعمه، كيما يتذوقوا ألم الحرمان، فيعرفوا نعمة الله، ويشكروه، عندما يحل لهم الطيبات...

ومتى تكرر هذا الحرمان، أياماً متتالية كل عام، تركز الشكر في نفوسهم، فلزموه على كل حال، فأصبحوا شاكرين.

٧: العفة في الصوم

والصوم، يحرك - في الإنسان - الشعور بالعفة العامة، فتتحرك فيه عفة البطن، وعفة الجنس، وعفة الكلام. فيتحرك فيه الشعور بالعفة، عن شهوة البطن، لأن الله قد أحل لعباده الطيبات من الرزق، وأباح لهم الأكل والشرب من غير سرف، فقال تعالى: ((كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)) وأضاف عز وجل: ((قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) واندفاعاً مع هذه (الإباحة المطلقة) تعود المرء في حياته اليومية الرتيبة أن يتناول ثلاث وجبات من الطعام - سحابة نهار - بكرة وظهيرة وعشياً، وأن يحتسي من ألوان المشروبات المباحة، أكبر مقدار يريد، في أي وقت يشاء، ولكن إذا صام يضرب عن الطعام والشراب، مهما لدغه الطوى وأحرقه الظمأ، وهو يجد كل ما لذ وطاب وتحت إرادته، ثم يمسك عن ذلك كله، ويحبس نفسه عنه.

ويتحرك فيه الشعور بالعفة، من شهوة الجنس، لأن الله سبحانه: أحل مباشرة النساء - بشرانها - متى شاء الرجل فقال: ((فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعًا)). ((نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَثُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ))، ولكن هذه المتعة، تضيق في حياته إذا صام، ولا تباح إلا في الليل، لقوله تعالى: ((أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)) فيضطر طوال أيام رمضان، إلى أن يلجم هذه الشهوة العاتية، أضف إلى ذلك: أن طبيعة الصوم، تكسر حدة الشبق، وتهدب الغريزة الجنسية، على هذا الضوء، وجّه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العزاب الذين لا يستطيعون نكاحاً، إلى الصوم، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء).

ويتحرك فيه الشعور بالعفة، عن شهوة الكلام، وبقيّة ألوان الشهوات لأن حقيقة الصوم، لا تقتصر على الامتناع عن شهواتي البطن والفرج فحسب، بل تشمل إمساك جميع الجوارح عن الحرام، ولئن كانت المحرمات

محظورة على المسلم في عامة أوقات حياته، فإن حرمتها على الصائم أكد، أو ليس في الحديث: (كم من صائم، ليس له من صومه إلا الجوع والعطش). و (من لم يدع قول الزور والعمل له، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه). وقد أباح الله رداء السيئة بمثلها، فقال جلّ جلاله: ((وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)). ولكن كره للصائم أن يتنازل حتى إلى مستوى المعادلة بالمثل، وتراشق السباب والتهم، وفضل أن لا ينبس ببنت شفة، سوى إعلان تحصنه بالصوم، ف (الصوم جنة).

٨: الأمانة

إن التربية الحديثة، اعتمدت طرقاً شتى لغرس الأمانة في نفوس الأطفال، ولكنها لم تعرف - حتى الآن - طريقة عملية، لتنمية الأمانة في نفوس الكبار، وحتى الطرق التي تمارسها لتعويد الأطفال، على الأمانة، لم تكن ناجحة إلا أقل من ٥٠% وقد سبقها الإسلام، بابتكار الصوم، لتربية الصغار والكبار على الأمانة، وهو عمل ناجح - يمكن أن نقول - مائة بالمائة، لأنه يدعو إلى ترك الأكل والشرب والجنس، وليس هناك أقوى أمانة من الإنسان الجائع، يرى الطعام فلا يتناوله، ويستبدّ به العطش في يوم قانظ، ثم يدع الماء، ويلج به الشيق، ولا يقربه، كل ذلك وهو يعلم أن لا رقيب عليه إلا الله، فإن شاء أكل، وإن أراد شرب، لأنه يستطيع أن يلتمس الرخص للإفطار. ومردّ هذه الرخص، إلى تقديره هو في المطاف الأخير، فليس هنالك حارس يلزمه لإرغامه على الصيام، وإنما يلتزمه بمحض اختياره وإرادته.

من تعود الأمانة في ترك الأكل والشرب والجنس - وهي من الحاجات الضرورية - فقد تعودها في كل شيء.

٩: التقوى

فإن الإنسان لا يصوم، إلا إذا علم أن الله له بالمرصاد، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، بحيث يعرف صيامه وإفطاره، وأكله وشرابه، ويحصى خطرات قلبه، وتقلب نواياه، إذا علم كل ذلك، يجد نفس أبدأ في حضرة سبحانه وتعالى، بحيث يراقبه في كل حركة وسكته، كان يراقبه الله في كل لفتة، وهمسة ونية، وباستمرار ساعات الصوم تكرر أيامه، فتقوى في نفسه حالة حضورية، لا يستطيع جحودها، فيكون أبدأ في خشوع وتواضع ووقار، فكما أن الإنسان إذا مثل أمام أحد الملوك أو الزعماء، تملكه حالة مواظبة، تمنعه من آتيان كل ما ينافي مرضاتهم، كذلك إذا سيطرت عليه (الملكة الحضورية) بالنسبة إلى الله سبحانه، فإنه يكون (متقياً) - بمعناه الكامل - حتى لا ينبعث إلا عن رضاه، ولا يأتي بما يخالف إرادته، أليس في بعض الحديث: (الصوم جنة) إشعاراً بأنه (وقاية) يجب أن يتستر بها الصائم، من شرور نفسه وشرور مجتمعه وشرور الشيطان، وهكذا يكون متقياً - رمز إليه القرآن حيث ختم ببيان الصوم بقوله: ((لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)) - ويرقى في مراتب التقوى، حتى يبلغ درجة اليقين، التي عبر عنها الحديث المأثور: (أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

١٠: الإخلاص

وإذا اعتاد الصائم أن يجد نفسه تحت مراقبة الله، حتى تربت فيه (ملكة الحياء) من الله سبحانه، وأن يراه حيث نهاه، أو معرضاً عما يرضاه، يكون صادقاً مع نفسه ومع الناس ومع الله، فلا يتسول المكائد، ولا يسدل بينه وبين الله ستاراً، ولا يقترف المنكر جهاراً، وإنما يفعل الطاعات، بداعية عظيمة، لا يشوبها رياء ولا سمعة،

ولا استجابة عادة.

وإذا كانت العبادات كلها، منبعثة من الإيمان الداخلي، ولا تقبل إلا بالإخلاص، فإن الصوم أوثق العبادات صلة بالضمير، لأنها عبادة لا يطلع على حقيقة الوفاء بها سوى علام الغيوب، وهذا أدعى إلى التحرر النفسي، من كل شائبة نفعية.

ولعل هذا هو سر خلوص جزاء الصوم، كما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الله: ((كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به)). وفي رواية أخرى: (كل عمل ابن آدم، يضاعف: الحسنة بعشر أمثالها: إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهواته وطعامه من أجلي).

١١: تزكية النفس

إن الإيمان - رغم سهولة انتحاله - حقيقة صعبة المنال، فلا يكل إيمان عبد، حتى يجد وقع أوامر الله ونواهيه في وجدانه، كما يلمس وقع الموجودات الحية بحواسه، وأما الكلمات المتفائلة، التي تعطر الحديث، ثم تموت على شفاه قائلها، تاركة خلفها ظلمات وآثاماً، فلا تعبر عن الإيمان، أو ليس في القرآن إن إبراهيم قال: ((ربّ أرني كيف نحى الموتى قال أ ولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي))؟ وأليس في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتخلي، ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل)؟.

فالعقول في عزلة عن القلوب، والقلوب في ظلام داس، من أخطاء العواطف، وعواطف الأهواء، والإنسان بين كل ذلك بعيد عن الإيمان، وكثيراً ما يقول بلسانه، ثم يمسي مفلساً، وتنطوي صحيفة عمره بين الغفلة والتمني.

ولعل الحديث التالي، حاول التعبير عن هذا المعنى، حيث رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، الحارثة بن سراقه، مبكراً إلى صلاة الصبح، مطرقاً مفكراً، فأفتتح صباحه قائلاً: (كيف أصبحت يا حارثة؟) وبين فرح اللقاء، وفرحة التبكير أجاب حارثة: (أصبحت مؤمناً حقاً).

ولكن معلّم البشر، الذي عرف أن أكثر الناس يقتنعون بالأمانى والتسولات، من غير فهم ولا عزم ولا عمل، قال لحارثة: (لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟)

غير أن حارثة كان يعرف أن الإيمان حقيقة، والحياة حقيقة، والإنسان حقيقة، ومن هذا المزيج تتكون (شخصية المؤمن) كشف عن واقعه مجيباً: (عزفت نفسي عن الدنيا، فاستوى عندي ذهبها، وحجرها، وكأني أرى أهل الجنة ينعمون، وأهل النار يُعذبون، وكأني أرى عرش ربي بارزاً).

وإذا كان هذا معنى الإيمان الذي أقره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإن تمكينه من النفوس، بالغ بالصعوبة، ولا يمكن ترسخه فيها بمجرد كلمات وخطب، وإنما يحتاج إلى حركة عملية، جديرة بإنجاز هذه المهمة، وقد قرر الإسلام لأداء هذه الرسالة، الصوم، فإنه حيث يقطع أواصر المادة، ويستأصل النزوع إلى المناعم الفارهة، ويجرد الإنسان من المطاعم والمناكح فترات متوالية، يستطيع كبت الرغبات والنزوات الطائشة، وتطهير النفس من العناصر المختلفة النكراء، التي تخلق فيها استجابة للمواد الأرضية المركبة معها،

أو تترسب عليها من الجو والمحيط والتربة المنحرفة، وكلما تزكت النفس، تهيأت للتقوى والقبول، وأصبحت كالأرض المهذبة من الأشواك وفضول الأعشاب.

فيكون الإنسان - بعد فترة الصوم - مستعداً للانسلاخ من تلك الفظاظة التي نلمسها في أبناء الشرق الإسلامي، وقادراً على التحرر من عبادة العادات، وحكومة الأوهام، التي حولت حياتنا إلى قطعة من (الروتينيات) و (الدبلوماسيات) البليدة، وجعلتنا آلات ميكانيكية، تتحرك على نسق معين، لتؤدي أعمالاً محدودة وفق إرادة خاصة، فابتعدنا - كل الابتعاد - عن المرونة، التي تميز الإنسان عن الخشب والحجارة والحديد، حتى تخلينا عن شيم الأحرار، الذي يعملون باختيار.

والصوم، يقدر على هذه الرسالة، لأنه زمام إداري، يدفع الإنسان إلى مجانية مشتبهاته بمجرد إرادته، ومتى قدر الإنسان على إهمال شهواته الجامحة، يتدرج في المقاومة إلى أن ينال (ملكة) راسخة، يتمكن بها من الانكماش والانبعاث متى أراد إيمانه.

فمن استطاع - في رمضان - أن يقول: (إني صائم) كلما واجه كلمات بذينة، يستطيع في كل حين أن يقول: (إني مؤمن) مهما قابل جاهلاً.

ومن منع نفسه من الماء الحلال - لأنه صائم - يهون عليه أن يمنع نفسه من الخمر الحرام - لأنه مؤمن - ومن امتنع عن مباشرة زوجته الحليلة - من أجل الصوم - يسهل عليه الامتناع عن امرأة أجنبية - لأجل الأيمان - ومن كف عن الطعام المباح - استجابة لإرادة الله - يخفّ عليه الكف عن الربا - خوفاً من الله - وهكذا تنحسر التيارات المفروضة على النفس، ليأخذ قيادها الأيمان.

فمسؤولية الصوم، هي تحرير الإنسان، من العبودية الاختيارية لـ (اللاشيء)، وتوجيهها إلى عبادة الله... وبعد ذلك... يتاح للإنسان، تغذية نفسه بالأفكار الصالحة، وزرعها بالفضائل والمثل، والقيم الروحية، حتى تنصهر عواطفه، ويتبلور ضميره، وتقوى في روعه نزعة الخير، وتتضاءل أمام عينه المطامع والمنافع، فلا تنازع القوى المادية إلى متعتها ومساقطها، ويصل - تدريجياً - إلى حالة من (الصفاء) تحبب إليه الخير، وتكره له الشر، وترهف إحساسه، حتى يشعر برفعة الفضيلة، وخساسة الرذيلة، فيتخلى عن هذه، ويتحلى بتلك، ليغدوا إنساناً مثالياً نموذجياً، لا يترك الصدق والحق، والوفاء والمروعة، وإن كان فيها تجشم الصعاب، وتحمل الضياع، ولا يرتكب الفسق والباطل والزور، وإن تنطلبت تقديم التضحيات، والحرمان من الأغراض المحرمة. كما يكون في وسعه - بعد ذلك - إطلاق عنان نفسه، وإهمالها، حتى تتدهور في المزالق، إلى أن يبلغ القرارة السحيقة، التي تكبله - فيها - شبكة الشيطان، وحبائل المجتمع.

هذه هي مهمة الصوم، إنه يهيئ الإنسان ويعدّه للتقوى، ولكن لا يجبره عليها، وإنما يترك له الخيار، ليهلك من أحبّ الهلاك، ويحيي من فضل الحياة، ولعل إلى هذا المعنى تنظر كلمة: (لعل) في آية الصوم: ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)) فكلمة (لعل) كلما وردت دلت على مفهوم الصلاحية لا الإكراه.

١٢: إنكار الذات

لنا نستطيع التأكيد، على أن (حبّ الذات) رأس الأخلاق الذميمة، فالجبن من آثار (حب الذات)، والبخل من

آثار (حب الذات)، والانتهازية من آثار (حب الذات)، وحب الظهور، وطلب الشهرة، وابتعاد المحمّدة، والحسد والحدق، والأثانية، وكل صفة دنيئة، من آثار (حب الذات)، لأنّ الذي يعبد ذاته يظنّ به عن مخاطر والأهوال، ويحاول أن يكرس جميع أمواله للتوفير على شخصه، وينتهز كل فرصة - مشروعة أو غير مشروعة - لاكتساب منفعة، ويحاول الظهور والشهرة والثناء، ويحسد من يفوقه، ويحقد على من ينازعه... لأنّه يرى شخصه ولا يرى غيره، ويعرف أنّ كل توفير عليه انتصار، وإنّ كل تقتير عليه فشل، من دون أن يهتم بالقيم العليا، أو يقيس الأمور بمقاييس الآخرة والثواب.

وإذا كان (حب الذات) رأس الأخلاق الذميمة، ف(إنكار الذات) رأس الأخلاق الحميدة، لأنّ الذي يعلق طرفه بالأفق البعيد، لا بد أنّه يهتم بالمثل العليا، ويقيس الأمور بمقاييس الآخرة والثواب، حتى يهون عليه كل شيء، وينكر ذاته، وإذا ارتفع مستواه إلى مستوى القيم العليا، والآخرة والثواب، أصبح شجاعاً لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه؟؟؟ وأمسى كريماً، ولا يبخل بأي شيء، إذ لا شيء أعزّ من الذات، ينكر ذاته ولا يبخل بماله، وصار مبدئياً يعمل لهدف خاص لا يتخلّى، مهما عظم الإرهاب أو الإغراء، وأنكر الظهور والشهرة والمحمّدة، وبقيّة الأخلاق الذميمة، لأنّ من سمت نفسه فوق ذاته، يزهد في مباحج الحياة، فلا يتواضع للصراع حول أعراضها، والحسد والحدق على من نال منها نصيباً، أو نازعه شيئاً منها.

وعندما نستعرض واقع التاريخ، نجد أنّ (حبّ الذات)، هو الذي صرع القادة والزعماء، الذين ركبوا الشطط، فأفسدوا المجتمع وأفسدوا ثوابهم عند الله وعند الناس، ثم كان عاقبة أمرهم خسراً، ونرى أنّ جميع القادة والزعماء الذين عبدوا طرق الصلاح، وحملوا الناس على الخير والهدى والعدل، فصلحوا وأصلحوا، حتى استحقوا الخلود في الدنيا والخلود في الآخرة، هم الذي دفعهم (إنكار الذات) إلى الإخلاص في عملهم، ولمجتمعهم، والتضحية في سبيل الله.

* * * * *

والصوم يطهر الصائم من (حبّ الذات) ويحلّيه بـ (إنكار الذات)، لأنّه عندما يجابه سلطان النفس، ويكبح جماحها بالامتناع من المشهيات، الجسدية، يذلّ النفس ويحد عن غرورها وغلوانها، فتصبح ذلولة طيعة، وإذا تكرر الصوم كثيراً، انتهى بتركيز (إنكار الذات) في نفسه، بينما الإنسان الذي يصدف عن الحق، ويمعن في المعاصي، ويستجيب لنفسه كلما دعت إلى شيء، لا بد وأنّ ينمو في نفسه (حبّ الذات).

الفائدة الصحية

أنّ الفائدة الصحية للصوم، تتجلى في مظاهر متنوعة كثيرة، ضجت بها الكتب، وعرفها أقدم الأطباء، وقد لخصها الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) في قولته الخالدة (صوموا تصحوا).

ويمكن إفراز الفوائد الصحية للصوم، إلى ثلاثة أقسام، هي:

١: الفوائد العامّة، الناتجة من الإمساك عن المباشرة الجنسية، والإمساك عن الأطعمة والسوائل.

٢: الفوائد الناتجة من الإمساك عن المباشرة الجنسية.

٣: الفوائد الناتجة من الإمساك عن الأطعمة والسوائل.

الفوائد العامة

فإما الفوائد العامة، فتظهر فيما يلي:

١: تهدئة الأعصاب

إن أعصاب الإنسان قوية، قادرة على احتمال عمل كثير. فالمخ، يستطيع أن يعمل بلا انقطاع، دون أن يرهقه العمل، والعضلة البشرية، وتطبق العمل عشرات الساعات، قبل أن يبهضها التعب. وإليك حقيقة مدهشة: (إن العمل الذهني وحده، لا يفضي إلى التعب) وقد يبدو لك هذا القول سخيلاً، ولكن طائفة من العلماء، وحاولوا - منذ بضعة أعوام - أن يتعرفوا على مدى احتمال المخ الإنساني للعمل، قبل أن يدركه الكلل، ولشد ما كانت دهشتهم، حين وجدوا إن الدماغ المندفعة من المخ وإليه - وهو في أوج نشاطه - خالية من كل أثر للتعب.

فأنت إذا أخذت (عينة) من دماء عامل يشتغل بيديه - بينما هو يزاول عمله تراها حافلة، بـ (خمائر التعب) وأفرازاته. أما إذا أخذت (عينة) من الدماء المارة، بمخ عامل مثل (انشتاين) فلن تجد بها أثراً لـ (خمائر) التعب، حتى في نهاية يوم حافل بالنشاط الذهني.

ويذهب الطبيب النفسي الأمريكي (ا. ا. بريل) إلى حقيقة مدهشة أخرى، فيقول: (إن مائة في المائة من التعب، الذي يحسه العمال، الذين يتطلب عملهم الجلوس المتواصل، راجع إلى عوامل نفسية، أي عاطفية). فإذا كان المخ الإنساني، لا يتعريه التعب قط، والعضلة البشرية، لا تتعب إلى أمد طويل، فإذن، ما الذي يشعرونا بالتعب؟

يقول الأطباء النفسيون: إن معظم التعب، الذي نحسه، ناشئ عن طبيعة اتجاهنا الذهنية والعاطفية، وفي ذلك يقول الدكتور (هادفيلد) - العالم النفسي الإنكليزي - في كتابه (سيكولوجية القوة): (إن الجانب الأكبر من التعب، الذي نحسه، ناشئ عن أصل ذهني، بل الحقيقة: إن التعب الناشئ عن أصل جسماني، لهو غاية في الندرة.

فماذا ترى من العوامل العاطفية، يشعر (العمال الجالسين) بالتعب؟

تلك هي العوامل العاطفية، التي تشعر الموظفين والعمال الجالسين بالتعب، وترسلهم آخر النهار إلى بيوتهم، وهم يسكون أدمغتهم من (الصداع العصبي).

وقد أشارت إلى ذلك (شركة متروبوليتان) - للتأمين على الحياة، في نشرة وزعتها، بعنوان: (التعب) قالت فيها: (إن المجهود الشاق، في حد ذاته، قلما يسبب التعب - ونقصد ذلك النوع من التعب، الذي لا يزول بعد نوم عميق، أو فترة معقولة من الراحة - إنما القلق، والتوتر، والثورات العاطفية، هي العوامل الثلاثة الأساسية، في انبعاث التعب، ولو بدا إن المجهود العقلي أو الجسماني، هو الأصل والسبب).

وإذا كان التعب - الذي يأكل الأعمار - ناجماً من القلق، والتوتر، والثورات العاطفية، فلا يمكن مكافحته، إلا عن طريق التوسل، بالهدوء والاسترخاء.

يقول دانييل جوسلين: عندما أحسُ بالتعب، أو بتوتر في الأعصاب - في نهاية يوم من الأيام - أعلم يقيناً: إنَّ مجهود ذلك اليوم، كان عميقاً من ناحية (الكم) وناحية (الكيف) - على السواء - . ولو أنَّ كل شخص وعى هذا الدرس، وعمل به، لقلّة نسبة الوفيات، الناشئة عن أمراض التوتر العصبي، ولتوقفنا عن تزويد المصحات والمستشفيات، كل يوم بمرض التعب، والقلق.

* * * * *

والصوم أفضل وسيلة لتخفيف القلق، والتوتر، والثورة النفسية، لأمرين:

١- إنّه يرفع المستوى الفكري للإنسان، فوق مجال المادة، والحياة، حتى لا تلج به المصائب والهموم.
٢- إنّه حيث يخفض ضغط الدم، يخفف الهمم المسعور، الذي يطارد الإنسان إلى الهرع والاندفاع، والقلق والتوتر على أثر الخسارة.

وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث، ولا يصخب، فإن سابه أحد، فليقل: إني صائم...)

ليعلمنا طريقة الاستفادة الكاملة من الصوم، ورياضة الهدوء والاسترخاء.

فالأعراض الناشئة من القلق، والتوتر، والثورة النفسية، ولا دواء لها.

سوى الرضا عن الله، والاستسلام لتقديره، والتسامح مع الناس، كما أوصانا الله تعالى بقوله: ((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)).

وغالب الأفراد الذين يصبحون فريسة هذا المرض الخطير، هم:

إمّا من العابسين المتشائمين، ذوي الطباع الحادة.

وإمّا من الذي لا هم لهم - طوال اليوم - سوى أن يشعر بالهم واللهفة والأسى، على أمر كان، أو على أمر لم يكن.

وأما الذين يعانون المتاعب والهموم، لأنهم ورطوا أنفسهم في أزمة مالية أو اجتماعية أو عائلية.

وهؤلاء - جميعاً - عرضه للمرض الجسماني، أو النفساني، الذي يتكون من سلسلة نبضات عصبية متواصلة، تتركز في المخ، ثم ينتقل أثرها إلى الجسد فتتوتر توتراً متصلاً.

فأغلب الانفعالات غير المقبولة، تؤدي إلى توتر الأعصاب، وأول مناطق هذا التوتر، مجموعة العضلات، في مؤخرة العنق، وعضلات الطرف الأعلى من (المريء) التي تشعرك بالغصة، ثم أسفل (المرئي) - وهذا أخطر - إذ عندما تأخذ عضلات (المعدة) في الانقباض، فإنك تشعر بضغط ثقيل كريبه في الداخل، حتى يبلغ درجة لا تحتمل.

ومثل هذا النوع من تقلص العضلات، يمكن أن يحدث في أي جزء من (المصران الغليظ).

وكثير ممن يشكون آلاماً تشبه آلام (المرارة) ليسوا مرضى قط، وإنما متبرمون بحياتهم، وهذا التبرم، يحدث ذلك الانقباض في (المصران) ومن ثم الآلام.

وما يقال عن أعضاء البطن، يقال عن أعضاء الرأس، ف (الصداع) الذي يحدث لهؤلاء، المتبرمين، سببه:

أنّ (الأوعية الدموية) تنقبض بشدة من آثار عنيفة، فتحدث آلام.

ثلث أمراض الجلد والصدر، ناتجة عن هذا التوتر العصبي.

* * * * *

والآن، كيف العمل للخلاص من هذا البلاء.

والصوم، الذي فرضه الله علينا شهراً في السنة، يحقق لنا الاسترخاء، من هذا التوتر المهلك.
فالصوم، يعلمنا: الصبر، والسماحة، والكلم الطيب، والرضا عن الله سبحانه - كما سبق في الحديث النبوي الشريف -.

والصوم، يعلمنا: كيف نتقبل المصائب بصبر جميل، حتى لا تهدد كياننا إذا فاجأتنا الأرزاء دفعة واحدة؟
والصوم، يعلمنا: كيف نتسامح مع الناس، ونكافح المشادة بالرفق، والعقد والأزمات، وبالبساطة والسهولة؟
والصوم، يعلمنا: كيف نقول الكلمة الطيبة، دون أن نتنازل إلى الابتذال، إن فذفنا لنيم بكلمة بذينة.

٢: ترويض النفس

إن أكثر الكوارث التي تدهم الناس، نتاج طبيعي عن الهوسات الارتجالية، التي يفعلونها، تلبية لنزق الطائش، الذي يسوِّله الشيطان لهم.

ولو فحصنا أكثر المحاكم والسجون في ظل الحكومات الصحيحة، لم نجد فيها من يساق إليها بدافع عقله - إلا إذا كانت الحكومات منحرفة تضطهد المفكرين - وإنما هو الطيش، التي يزج بالألوف في المحاكم والسجون.

أو ليس في الحديث: (أعدى أعدائك، نفسك التي بين جنبيك)؟

وإذا كانت النفس، مصدر الويلات والنكبات، التي تنعص حياة الناس، فما أجدد الإنسان بأن يروض نفسه - قبل أن يدخل في الحياة المشتركة - حتى يستريح من غائلة هذا العدو الداخلي، ويتفرغ لمكافحة أعدائه الخارجيين في جبهة واحدة.

والنفس، كالأرض - أو ليست من الأرض؟ إن أهملت تنبت الحشائش والأشواك، وإن روعيت، تنبت كلما حلّى وطاب.

((وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا كَدًّا)) فإذا تركت النفس، تعبر عن طاقتها في الشهوات، وإن روضت تعبر عن طاقتها في الملكات.

وإذا راضت النفس، يصح الجسم، ويستريح الجسد، أو ليس المجرمون أكثر الناس شقاءً ورهقاً؟ وأو ليس الصالحون، أقل الناس شقاءً ورهقاً؟ فالمجرم - وإن قلت مصائبه - يعيش في قلق وارتباك، يحسب كل صيحة عليه، ويحسب كل ضربة خسارة، بينما الإنسان الصالح - وإن كثرت مصائبه - يعيش في ثقة واطمئنان، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، ويعلم أنه لا يصيبه مكروه إلا كتب له به عمل صالح.

وإذا اطمئنت النفس وهدنت، واطمأنت الأعصاب وهدنت، فاستطاعت الأجهزة العاملة في داخل الإنسان، أن تؤدي واجباتها، بتوفر واطراد، فتحصنت من الأمراض الكثيرة، والناجمة عن اضطراب عمل الأجهزة الداخلية في الإنسان، وإذا قلقت النفس، وارتبكت الأعصاب، واضطربت الأجهزة الداخلية، فلم تطق أداء واجباتها الرتيبة بانتظام، وفسد الجسم كله.

لقد قال (أفلاطون): (إن أكبر أخطاء الأطباء، أنهم يحاولون علاج الجسد، دون العقل، في حين أن العقل والجسد، وجهان لشيء واحد، فلا ينبغي أن يعالج أحد الوجهين على حدة).

مطاردة القلق

و (القلق) إنه الداء الذي يصيب أكثر الناس، ولا تزداد الحضارة توسعاً إلا ويزداد الناس قلقاً، حتى كتب الدكتور (الكسيس كاريل): (إن رجال والأعمال، الذين لا يعرفون كيف يطاردون القلق، يموتون مبكراً).

وأخطار القلق كثيرة تحدث عنه الدكتور (جوبر) - كبير أطباء اتحاد مستشفيات جالت، وكلورادو، وسانتافي - فقال: (إن في استطاعة سبعين في المائة، من المرضى الذين يقصدون إلى الأطباء، أن يعالجوا أنفسهم، إذا هم تخلّصوا من القلق، والمخاوف التي تسيطر عليهم).

(ولا تحسبن أنني أقصد بذلك إن أمراضهم وهمية، بل هي حقيقية، لها ألم يعدل ألم الأسنان التالفة، وربما كان أشد منها بمئات الأضعاف، وأذكر - مثلاً - لهذه الأمراض - عسر الهضم العصبي، وقرحة المعدة، واضطرابات القلب، والأرق، والصراع، وبعض أنواع الشلل).

(هذه الأمراض تحدث حقيقة، فأنا نفسي قد شكوت قرحة المعدة مدى اثني عشرة سنة).

(فإن الخوف، يسبب القلق، والقلق يسبب توتر الأعصاب، واحتداد المزاج، ويؤثر في أعصاب المعدة، ويحيل العصارات الهاضمة، إلى عصارات سامة، تؤدي في كثير من الأحيان إلى قرحة المعدة).

وكتب الدكتور (جوزيف، ف. موناجي): (إن قرحة المعدة، لا تأتي مما تأكله، ولكنها تأتي مما تأكلك).

وقال الدكتور: (و. س. الفاريز): (كثيراً ما تنشأ قرحة المعدة نتيجة لتقلب العاطفة، واضطراب الإحساس).

والتقى الدكتور (هارولداس. هايين) رسالة في اجتماع (الجمعية الأمريكية، للأطباء والجراحين، والعاملين في المؤسسات الصناعية).

قال فيها: (إنني درست حالة ١٧٦ رجلاً من رجال الأعمال، من أعمال متجانسة، معدلها ٤٤ سنة، فأتضح لي أن أكثر من ثلث هؤلاء، يعانون واحداً من ثلاث أمراض، تنشأ كلها عن توتر الأعصاب، وهي اضطرابات القلب، وقرحة المعدة، وضغط الدم).

وخطب الدكتور (وليم ماك كونيك) أمام (الجمعية الأمريكية، لطب الأسنان) فقال: (إن الانفعالات، التي يسببها القلق، والخوف، والنزاع الدائم، قد تصيب ميزان الكليسيوم في الجسم باختلال، ينشأ - عنه ألم الأسنان وتلفها).

هذا الداء العضال، الذي يسميه الطب بـ (القلق) ويصح أن نسميه (رأس الداء) ينشأ من عوامل كثيرة، ولكن ماذا يشفيه؟ لا بد لنا من الاعتراف بأن هنالك أدوية كثيرة له، غير أنه يصح أن نعتبر (الاستسلام) رأس كل دواء له، وخاصة إذا كان الاستسلام لإرادة حكيمة يوافق العقل على الاستسلام لها، فمن ركن إلى إرادة الله سبحانه وتعالى، جدير بأن لا يقلق أبداً، أو ليس الله تعالى أولى به من نفسه، وأحكم بما يصلحه؟

ولنفس السبب لم يستطع القلق أن ينال من المؤمنين الراسخين، حتى في أعنف ساعات حياتهم، فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مستلقياً على قفاه في غفوة، غمرته عن أصحابه في غزوة، وإذا فتح عينيه، فرأى أحد أعدائه مصلاً سيفه، وهو يقول: من ينفذك مني يا محمد؟ قال الرسول بثقة واطمئنان: الله، وأنقذه الله، فصعق العدو وسقط، وسقط من يده السيف فتناوله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: (ومن ينفذك مني الآن؟ فلم يجد الرجل إلا أن يقول الله. ثم أعلن إسلامه. وعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، صلى بين

المعسكرين في ليلة الهرير - من واقعة صفين، والحرب على ساق، وكان الحسن بن علي (عليه السلام)، يزيد انطلاقاً - يوم عاشوراء - كلما تراكمت عليه المصائب.

وأمثال هذه النماذج، تظهر في حياة جميع المؤمنين الصادقين، لأنّ الأيمان بالله، يؤدي إلى الاستسلام لله، الذي هو أعظم من كل قوة، ولا يكون شيء في الكون إلا بإرادته، وإنّ فماداً يفعل الإنسان لنفسه؟ إته تحت حراسة الله، قبل أن تحين ساعة القدر، وحات ساعة القدر، فإن جميع قوى الكون لو تظاهرت لم تدرأ عنه مكروها، لأنّ الله أعظم من كل قوة، وإذا شاء فلا مرد لأمره، وهكذا يطمئن الإنسان بالله، فيزول قلقه، وكل ما ينشأ من جراء القلق..

لقد كتب الدكتور (الكسيس كاريل): (إنّ الذين يسعهم الاحتفاظ بالسلام، والطمأنينة النفسية - وسط ضجيج مدينة عصرية - معصومون ولا ريب من الأمراض العصبية).

والصوم، يستطيع هذا الأيمان في الإنسان، ومن ثم الاستسلام لله، لأنّه يدع الإنسان الجائع الذي يجد ألوان الطعام الشهوي يتركه ويتصور من الجوع، والإنسان العطشان، الذي يرى السلسبيل الزلال يترقق أمامه، ويلوي عنه عاطشاً، والإنسان الشبق، الذي ينال الجنس في أجلّ مظاهره، ويتراجع عنه ملتجئاً، لإرادة الله وحده، فيستقر في قلبه أنّ الكون كله يجري بإرادة الله سبحانه، وأنه جزء من هذا الكون، فلا يطيق أنّ يكسب خيراً ولا يدفع شراً، إلا عندما يريد الله، وإذا أراد الله شيئاً فلا راد لقضائه، فلماذا يقلق ويضطرب؟

وهكذا يذكي الصوم - في الإنسان - الاستسلام لله، وإذا استسلم الإنسان لله، غمره السلام والاطمئنان، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة عندما قال: (أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

فوائد الكفّ عن الجنس

وأما الفوائد الناتجة من الإمساك عن الجنس، فتتلخص فيما يلي:

وهو إنّ الاعتدال في كل أمر، وسيلة لالتزان الحيوي، وصلاحية البقاء، وقد أباح الله تعالى للغرائز الجنسية أن تنال رغباتها بالأسلوب المشروع، في حدود (المباح) وأما الاستجابة المطلقة بها، فإنها تجعل المرء أسيراً متوتر الإرادة، بحيث لا يجد طاقة تساعد على مباشرة الأمور الجدية، بقوة وحماس.

فضلا عن أنّ الانسياق مع الغرائز، يضعف حيوية الجسم، وقدرته على الإخصاب والإنجاب.

وقد ألفت الله سبحانه الأنتظار إلى هذا الاتجاه، حيث أكد على أنّ الهدف من الغرائز الجنسية، ليس هو مجرد التمتع الرخيص، وإثما هو حفظ النسل البشري، وامتداد الحياة، ثم التجاوب النفسي السامي - بين الوالد والولد - على أساس المودة والرحمة ((وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ...)).

((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)).

فكان الاتصال الجنسي، محظوراً أثناء فترات الصيام - كما كان ممنوعاً خلال فترة الحيض - ففي هذا المنع، إشعار للإنسان بأنّه سيد شهواته، وليس عبدها المطيع، وتحديد الإسراف، الذي قد ينساق إليه الكثيرون،

فيصابون بأمراض لا قبل لهم بها.

زيادة على أن الطبيعة الصوم، تحدّ من اندلاع الشهوات، التي قد تثيرها عوامل خاصة، ثم لا تطيق السيطرة عليها، ولهذا كان الصوم وجاءاً لشيق العزوبة في منطق الرسول الحكيم (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطعه فعليه بالصوم، فإنه له وجاء).

فالإسراف في الاتصال الجنسي، ينهك الجسم كما أن الإسراف في الكبت عن الجنس يبئد الإنسان، وقد قرر علم الوراثة إن الذكر إذا أسرف في الابتعاد عن الأنثى، وإن الأنثى إذا ابتعدت عن الذكر، لم ينتج إلا شراً، والتجاوب التي أجريت على ذكور الحيوانات، فأزيلت أعضائها التناسلية، وكانت نتيجتها أن تبدلت حياتها، وتغيرت معالمها، فلا هي ذكور، ولم تصبح كإناث... ومثلها الإناث، فقدت أنوثتها، دون أن تصبح كالمذكور... ومن اليسير ملاحظة المرأة في سن اليأس، وكيف تضطرب أعصابها ونظرتها إلى الحياة... وكتلك النساء العوانس، والكهول العزاب.

فكل من يستطيع الباءة عليه أن يسارع إلى الزواج، حتى يبقى في مستواه اللائق به، وكل من لا يستطيع الباءة، عليه أن لا يسرّ لهب شهواته من الداخل بالطعام الرتيب، وهو يكتبها من الخارج، حتى ترتبك أعصابه، وإثما عليه أن يهدأ غرانزه، بالصوم حتى لا يضر به كبتها - كما أرشد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم).

فوائد الكفّ عن التغذية

وأما الفوائد الناتجة، من الإمساك عن الأطعمة والسوائل، فتختصر فيما يلي:

إتاحة الراحة للجهاز الهضمي

إن طاقة الأجهزة الداخلية - في الإنسان - كثيرة هائلة، ولو عرف طريقة استخدامها على ضوء الواقع، لعاش طويلاً، ولكن الإنسان حيث يحاول توفير القدرة عليها، يوفر الثقل عليها، فيحطمها، لأن الإفراط - في كل شيء - لا يختلف عن التفريط، والزائد كالناقص، وللجسم حاجة محدودة إلى التغذية، التي لو زادت أو نقصت عرضته للانهيار.

ويؤكد الطب: إن الجسم لا يستطيع الاستغناء عن الماء، أكثر من ثلاثة أيام، ولا يستطيع الاستغناء عن الطعام، أكثر من بضعة عشر يوماً.

ومرتاضوا الهنود، الذي قد يطول صومهم أكثر من هذه المدة، فإنهم يتناولون فيه الماء وعصير الفواكه، الذي يساعد على طول فترة الصيام، ومن هذا النوع، كان صيام غاندي الزعيم الهندي، الذي كان يتوسل بالصيام، لإنهاض حركته السلبية ضد الاستعمار.

* * * * *

والحكمة، التي رعاها الإسلام، من الإمساك عن الطعام والشراب، تقوم على أساس: أن معظم الناس، يفرطون في التغذية، إلى درجة تعرضهم لكثير من الأمراض الفتاكة.

ومن المعروف إن غالب الأمراض، التي تصيب الجسم البشري، ترجع إلى اختلال الجهاز الهضمي، حتى قال أحد الأطباء: (إن معظم الناس، يحفرون قبورهم بأسنانهم). وقد قام أحد الأطباء - في مصر - بدراسة علمية دقيقة، ثبت منها إن الأغلبية الساحقة من الناس، يأكلون ثلاثة أمثال، ما تحتاج إليه أجسامهم.

أو لم يقل القرآن الكريم: ((كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا))؟ أو ليس في الحديث: (المعدة بيت الداء)؟ أو لم يقل النبي العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم): (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)؟...

ومعنى الثلث لنفسه أن (المعدة) إذا امتلأت، ضغطت على الحجاب الحاجز، فضغط - بدوره - على القلب، فعاق حركته، ثم ضغط على الرنتين فعاق حركة التنفس.

لقد وقف علماء النفس، جانباً كبيراً من وقتهم، خلال السنوات الأخيرة - لدراسة الناس، وأساليبهم في الحياة، بغية الوصول إلى ما يوفر عليهم راحة البال، ويسبب لهم أكبر قدر ممكن من الاستمتاع بالحياة، فكان أهم وصاياهم: (لا تغلوا في عمل شيء).

وذلك بعد أن وصل الطب، إلى أن دستور الحكمة ورأس العلاج، هو عدم الإسراف في الأكل والشرب. وقررت أبحاث الطب العلاجي والوقائي أن أعظم قاعدة لحفظ الصحة، هي العمل بالآية الشريفة: ((كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)).

إن قد ثبت طبياً: إن الشراهة، تفتك بـ (المعدة)، وتحطم (الكبد)، وترهق (القلب)، وتسبب تصلب (الشرايين)، (الذبحة الصدرية)، وارتفاع (ضغط الدم) و (البول السكري)... وأنه لا وقاية من هذه الأمراض، ولا علاج لها - إذا أصيب بها الإنسان - إلا الحد من شهوة الأكل، وعدم الإسراف في الطعام والشراب.

ويقول علم النفس: (إن الإسراف، هو الحماسة غير المتزنة، التي تصبح نوعاً من الهوس، فالإسراف في أي شيء، إنما هو من قبيل الهوس، أو الجنون. فيجب مراجعة النفس، فيما نحن مقدمون عليه، فلا نغلو فيه مهما كان).

وينصح أحد علماء النفس، نصيحة غالية، إذ يقول: (لماذا لا نتمثل بالطبيعة، فكل ما خلقه الله، نجده معتدلاً في غير إسراف، فالليل يعقب النهار، إذا كان النهار خلق للعمل، فالليل خلق للراحة) فلا بد من الراحة بعد التعب.

وقال الدكتور (الكسيس كاريل): (علينا أن نقي أنفسنا شر الإسراف في أي شيء، كل شيء، حتى في ارتياد السينما، والاستماع إلى الراديو... وإن الإنسان يميل - بطبيعته - إلى الإسراف في شهواته، كالخمر، والأكل، والسرعة، وغيرها، وهذا الإسراف، يفضي إلى الانحلال، فعليه أن يروض نفسه على الاتزان، وعدم الإسراف في أي شيء، حتى في النوم...)

إن رجل العصر، إمّا مفرط في النوم، أو مسرف في اليقظة، وهذا ضار به... وخير له أن يعود نفسه على أن يظل يقظاً، حتى تدركه الرغبة في النوم فينام.

فعلى الإنسان أن يمتنع عن الإسراف في التغذية، فترة تستهلك رواسب التخمة، حتى يستريح الجهاز

الهضمي، فيستطيع استعادة نشاطه للوجبة التالية، دون أن يدركه الإعياء والانهيار.

الوقاية من البدانة

إن أقل فائدة وقائية يكسبها الصائم، هي الوقاية من السمن وأخطاره، فالإسراف في الأكل، يؤدي إلى السمنة، وكلما زاد عن الوزن الطبيعي للجسم، يكون ثقلًا على الأعضاء الرئيسية، التي تقيم الكيان الجسمي. يقول الدكتور (سالم محمد): (إن القلب، الذي هو مضخة ماصة كابسة، يرفع الدم من هنا، ليدفعه إلى هناك، وهو عضو في الجسم، عليه أن يؤدي عمله المستمر، الذي لا ينقطع، ولا شك أن القلب يقوم بالخدمة لجسم يزن ثمانين كيلو غراماً، أقل جهداً ورهقاً من زميله، الذي يخدم جسماً، يزن مائة كيلو، وكلنا نعلم أن الساقية، التي تقوم بري ثلاثين فدناً، أكثر جهداً ورهقاً، وتبلى أسرع، من أخت لها، تقوم بخدمة عشرة فدادين، ويعبر عن الأخيرة بـ (الساقية المرتاحة). فما بال الإنسان لا يريح قلبه، فيخفف من العبء الملقى على عاتقه، بأن يخفف من وزنه، وإلى الحد الطبيعي؟).

وليت الأمر في جسم الإنسان، يقف على القلب وحده، ولكن هذا الجهد، يصيب باقي أجهزة الجسم، فـ (الكلى) و (الكبد) و (البنكرياس) في جسم يزيد على مائة كيلو - مثلاً - تحمل عبئاً ثقيلاً، وكلما خفَّ الحمل، نضمن للجسم السلامة، أطول مدة ممكنة.

ويقول الدكتور (جورجي صبحي): (إنه يجب تنظيم المطبخ المصري، الذي ورثناه، وأن نطهره من السمن والدهنيات، والمواد الحريفة، وزيادة الوجبة، مما يفتك بـ (المعدة)، ويهد كيان (الكبد)...

ويعد الدكتور (محمد زكي شافعي) - زميل معهد الصحة العامة بلندن - أخطار السمن، فيقول: (إن من أخطار السمنة، الإعداد للأمراض المعدية، والحادة، الإنذار السيء، للعمليات الجراحية، كما تُعدُّ لإلتهاب (حوصلة المرارة) وحصواتها، و (التهاب المفاصل) و (دوالي الأطراف) وارتشاح (عضلات القلب) و (النزلة الشعبية) المزمنة، و (الذبحة الصدرية)... والتوقي من السمنة أول ما يلزم المستعدين لها، وذلك بالإقلال من الطعام). ولعل من المشاهد المعروفة إن أول ما ينصح به الطبيب، هو الاعتدال في الأكل، ولكل من السليم والمريض.

الصحة العامة

ويستعمل الصوم، وقاية من أمراض، وعلاجاً لأمراض.

فأما الفوائد الوقائية للصوم، فتظهر فيما يلي:

يقرر الطب الحديث: الواجب - لا يسماً على المتقدمين في السن - أن يصوموا يوماً في كل أسبوع، أو أسبوعاً كل شهر، والأفضل شهر من كل عام.

فقد ثبت: إن الإنسان، كثيراً ما يصاب ببعض البورات الصديدية، التي تتكوّن داخل الجسم، وتصب إفرازاتها السامة في الدم، غير أن الإنسان لا يشعر بها، إلا إذا تضاعف ذلك الإفراز، فإذا بالإنسان يمرض فجأة، بأمراض

قد يكون أقلها التسمم... والصوم، خير وسيلة لتجنب الإصابة بمثل هذه البؤرات، إذ عندما تقل المواد الغذائية في الجسم - والأجهزة الداخلية تدب في الاستهلاك - تبدأ أول ما تبدأ، باستهلاك الأنسجة الداخلية، ومنها الخلايا الصديدية، التي ضعفت نتيجة الالتهاب.

كما أن الصوم يذيب الأورام الصغار، في ابتداء تكونها، قبل أن تستفحل... ويمنع تكوّن الحصوات والرواسب الجيرية... ويتيح الفرصة لجهاز الهاضمة المرهقة، حتى يستريح قليلاً، فلا يصاب بالضعف أو الالتهاب... ويقي الإنسان من أمراض (الكلى)... و (المفاصل)... و (النقرس)... ويرقه عن القلب، ويمكنه أن يتنفس، وينبض بهدوء، كيلا يصيبه (التورم) أو (تصلب الشرايين).

والصوم - بصورة أوسع - يريح جميع الأجهزة، والأنسجة، والخلايا، والغدد، من الانهماك في العمل المتواصل، وبذلك يقيها من الضعف، والاحتقان، والموت الباكر، والمرض المزمن، وزيادة على أن الصوم - بذاته - يعتبر من عوامل طول العمر، والنشاط الدائب؟

ويخلص الإنسان من الخمول، الذي يلزمه على أثر التخمة.

لأنه يسبب تنشيط القوى الفكرية، وإيقاظ الذكاء، وإرهاق الذهن ويقه من الترهّل والكسل.

* * * * *

والصوم يستعمل علاجاً لاضطرابات الهضم، والبدانة، وأمراض القلب، والكبد، والكلى، والبول السكري، وارتفاع ضغط الدم.

كما أن الصوم، يقلل كمية الماء في الدم، وينظم إفرازات الغدد، فيشفي الأمراض الجلدية، ويذيب الشحم الزائد، ويقضي على السموم التي تحدثها البطنة.

* * * * *

ولعل أشهر مصحة في العالم - الآن - هي مصحة الدكتور (هنريج لاهمان) في (سكسونيا) يقوم العلاج فيها بالصوم، وقد أنشئت مصحات أخرى على غرارها، عند ما كثر ضغط المرضى، على هذا النوع من العلاج، وأساس العلاج في هذه المصحات، هو التخلص من الفضلات الزائدة عن حاجة الجسم، التي ترهق الأعضاء على اختلافها.

* * * * *

هذه الفوائد الصحية، وغيرها هي التي قادت الأطباء قديماً وحديثاً، إلى جعل الصوم - وإن لم يتسم بحدوده الشرعية - قبل كل دواء، وهذه الفوائد وغيرها، هي حدت بهم إلى الاعتراف، بأن في الصوم حكمة بالغة فجرها الإسلام، يوم أعلنه فريضة لا يمكن التخلي عنها فسجلوا للأبد اعترافات نذكر بعضها:

قالوا في الصوم

قال الدكتور (روبرت بارتولو): (لا شك في أن الصوم، من الوسائل الفعالة، في لتخلص من الميكروبات، وبينها ميكروب الزهري، ولما يتضمن من إتلاف للخلايا، ثم إعادة بنائها من جديد).

وقال الدكتور (عبد العزيز إسماعيل): (إن الصوم، يستعمل طبياً، في حالات كثيرة، ووقائياً في حالات أكثر،

وإن كثيراً من الأوامر الدينية، لمن تظهر حكمتها، وستظهر مع تقدم العلوم، فلقد ظهر أن الصيام، يفيد طيباً في حالات كثيرة، وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى، فالعلاج يستعمل في اضطراب الأمعاء المزمنة، والمصحوبة بتخمر ويستعمل في زيادة الوزن، الناشئة من كثرة الغذاء، وكذلك في زيادة الضغط، أما في البول السكري، فلما كان قبل ظهوره، يكون مصحوباً بزيادة في الوزن، فالصوم بذلك يكون علاجاً نافعاً، لا يزال الصيام، مع بعض الملاحظات في الغذاء، أهم علاج لهذا المرض والصيام يعتبر علاجاً لالتهاب الكلى الحاد والمزمن، وأمراض القلب والصيام مدة شهر في السنة، يعتبر خير وقاية من كل هذه الأمراض).

قال الدكتور: (محمد الطواهري): (إن كرم رمضان، يشمل مرضى الأمراض الجلدية، إذ تتحسن بعض الأمراض الجلدية بالصوم، وعلاقة التغذية بالأمراض الجلدية متينة... إذ أن الامتناع عن الغذاء والشراب، مدة ما، يقلل من الماء في الجسم، هذا بدوره، يدعو إلى قلته في الجلد، وحينئذ، تزداد مقاومة الجلد، للأمراض الجلدية، المعدية والميكروبية، ومقاومة الجسم في علاج الأمراض المعدية، هي العامل الأول، الذي يعتمد عليه، في سرعة الشفاء، وإن الجسم، الذي لا يقاوم الميكروبات، ولا يدفعها ينهار... ويضعف تأثير الدواء، والمبيد للميكروبات، مع الجسم، القليل المقاومة، وقلة الماء في الجلد، تقل - أيضاً - من حدة الأمراض الجلدية الالتهابية، والحادة، والمنتشرة، بمساحات كبيرة في الجسم. وأفضل علاج لهذه الحالات، من جهة الغذاء، هي الامتناع عن الطعام والشراب، فترة ما، ولا يسمح إلا بالقليل من السوائل البسيطة، وقلة الطعام، تؤدي إلى نقص الكمية، التي تصل منه إلى الأمعاء، وهذا بدوره - يريحها، ويقلل من تكاثر الميكروبات الكامنة بها وما أكثرها! وعندئذ، يقل نشاط تلك الميكروبات المعوية، ويقل إفرازها للسموم، بالتالي، يقل امتصاص تلك السموم من الأمعاء، وهذه السموم، تسبب العدد الكثير، من الأمراض الجلدية، وإن الأمعاء، لبؤرة خطيرة، من البؤرة العفنة، التي تشيع سمومها، عند كثير من الناس، ويؤدي الجسم والجلد، وتسبب لهما أمراضاً لا حصر لها. وشهر الصيام، هو شهر الهدنة، للراحة من تلك السموم وأضرارها).

(والصيام كذلك، علاج لأمراض زيادة الحساسية، أمراض البشر الدهنية).

وكتب الأستاذ (فريد وجدي): كان (الناس إلى زمان قريب، يحسون أن الصيام، من الشؤون الخاصة بالأديان، ولكن لم يكد ينتشر تاريخ الطب بين الناس، حتى علموا أن الصيام قد اعتبر - في كثير من الأمراض - من مقومات الصحة الجسمانية، كلما علموا أنه من عهد (ابقرط) عامل قوي من العوامل المنقية للجسم، من سموم الأغذية، فإن المواد الحيوانية، التي نتناولها، بشراهة، تحتوي على مواد دهنية، ومواد رباعية العناصر، لا تطبق البنية البشرية، أن تختزن مقداراً يزيد عن الحاجة منها. وإطلاق الحرية للإنسان، يجعله يتناول كلما يقع تحت يده، وكثيراً ما يصاب - بسبب هذه الحرية - بأفات مرضية، تكون وبالاً عليه).

(والصوم، ذو تأثير بالغ، في تخفيف الأعراض، التي تنتاب الأعضاء الظاهرة والباطنة، وتحويل محمود في حالة المريض، يتأدى منه إلى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات، حصة الروح من هذا التحويل، لا تقل قيمة عن حصة الجسم).

وقد استفاد الطب، من ناحية الصوم، ما لم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير، ولكن أكثر المسلمين، لا يأبهون كثيراً بالمستقبل، ولا يحسبون حساباً للشيوخوخة، ولا يعرفون للقوى حدوداً. فيعيشون كما يجيء، لا كما يجب.

الإصلاح العام

والصوم، من الخطوط العريضة، التي وضعها الإسلام للإصلاح العام، التي يتعدى الإنسان إلى سائر مظاهر الكون.

لأنَّ الجزء (الفاعل) في الكون، هو (الإنسان) فإذا صلح الإنسان فقد صلح الكون، وإذا فسد الإنسان فسد الكون، والصوم يصلح الإنسان، لا بزيادة أو نقصان في كيانه العضوي، أو الفكري، وإنما بتعديل كيانه العضوي، والفكري، والشهوي معاً.

لا يعني هذا أنَّ الإنسان بمجرد أنْ صام يوماً أو أياماً، يصلح هو، ويصلح البشر، ويصلح المجتمع، فالصوم، ليس إلا من الخطوط العريضة للإصلاح العام، وليس وحده العلة التامة للإصلاح العام، إنه كآلة رئيسية في جاز فاعل، وليس وحده الجهاز كله، لأنَّ الإسلام - بجميع فرائضه - بمنزلة جهاز كامل، ودور الصوم فيه، دور آلة رئيسية.

فالصوم للإصلاح، مثل (الفراشات) للطائرة، فإتباعها بدونه تصبح قطعة حديدية باردة على الأرض، ولكن هذا لا يدل على أنَّ الطائرة تطير بـ (الفراشات) ولو لم يكن لها وقود وجناح ومحرك.

والصوم، مثل (الكبد) للإنسان، فإنه بدون (الكبد) شلَّ ميت لا يصلح إلا للقبر، غير أنَّ هذا لا يشير إلى أنَّ الإنسان يعيش بـ (الكبد) ولو لم يكن له قلب ومخ ورنه.

وإنما يعني، كل ذلك، على أنَّ (الفراشات) للطائرة آلة رئيسية، وإنَّ (الكبد) للإنسان عضو رئيسي.

والصوم كذلك، إنه خط من الخطوط الإسلامية العريضة للإصلاح العام بحيث لو نفذت - بأجمعها - يصلح المجتمع - بأجمعه - فلو صام النَّاس، وصلوا، وزكوا، وخمَّسوا، وحجوا، وجاهدوا، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وتولوا أولياء الله، وتبرؤوا من أعداء الله، أصبح مجتمعهم صالحاً، وكانوا خير أمة أخرجت للناس، وأما إذا صاموا وتركوا الصلاة، أو صاموا وأنكروا الزكاة والخمس، أو صاموا ووجدوا الحجَّ والجهاد، أو صاموا وأهملوا حدود ما أنزل الله، فإنَّ ذلك الصوم، لا يستطيع أنْ ينفعهم إلا بمقدار ما ينفع (الفراشة) لهيكل طائرة ليست لها أجهزة، وبمقدار ما ينفع (الكبد) لهيكل إنسان ليست له أعضاء.

لكل سؤال جواب

س - لو كان للصوم هذه الطاقة الهائلة، التي وصفتموها للإصلاح العام، فلماذا تأخر المسلمون الملتزمون بالصوم، وتقدم الأجانب، الذين لا يلتزمون بالصوم؟؟.

ج - هذا السؤال ينقسم إلى سؤالين:

الأول: لما تأخر المسلمون الملتزمون بالصوم؟

الثاني: لماذا تقدم الأجانب الذين لا يلتزمون بالصوم؟

والجواب عن السؤال الأول، ظهر من الفصل السابق، لأنَّ الصوم كـ (الفراشات) للطائرة، و (الكبد) للإنسان، وعدم حركة الطائرة الناقصة، ليس لوجود (الفراشات) وإنما لعدم الوقود، والجناح، والمحرك، وعدم حياة الإنسان الناقص، ليس لوجود (الكبد) وإنما لعدم القلب، والمخ، والرئة، وتأخر المسلمون، ليس ناتجاً من أنَّهم يصومون، وإنما نتج من جراء أنَّهم يهملون بقية الحدود الإسلامية، لأنَّهم يصومون، ولا يزكون ولا يحمسون، ويصومون، ولا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ويصومون ولا يلتزمون بالنظام الاقتصادي الإسلامي، ويصومون ولا ينفذون النظام السياسي الإسلامي.

وإذا كان فقد الوقود يشل حركة الطائرة، وإذا كان فقد القلب، يعطل حياة الإنسان، ففقد أكثر الأنظمة الإسلامية، جديرة بتعجيز الإسلام عن إمكانية تسيير الحياة.

الجواب عن السؤال الثاني:

١: إنَّ تقدم الأجانب: (غير المسلمين) لم ينتج من تركهم الصوم، وإنما نتج من تضحياتهم المتواترة، في كل مجال من مجالات النشاط الاجتماعي.

٢: كان لنا أنْ نسأل: وهو تقدم الأجانب، الذي يسيل اللعاب؟

أحربان عالميتان، أهلكتها الحرث والنسل، وأجريتا في كل قطر نهرًا من الدماء، وخضماً من الدموع، خلال نصف قرن واحد، وهو دليل التقدم؟

أم الثورات الموضعية والحروب الأهلية والإضرابات والاضطرابات المتتالية، والمهاترات الإذاعية والصحافية، دليل التقدم؟

أو الاستعمار العسكري الفكري، ويتبعه من الاستغلال والاستعباد، وإبادة الألوف المتحررين، والمحاكم والسجون والمشانق، دليل التقدم؟

أو الأحزاب المتناحرة، والمتكالبية على الحكم، عن طريق الكذب والخيانة، والغدر، والتضليل، دليل التقدم؟

أو إرهاب العالم كل يوم، بحرب القنابل والصواريخ والأسلحة الذرية المبيدة دليل التقدم؟

أم ماذا يغري من الأجانب؟

نعم نعرف بأنَّ الأجانب تقدموا في تطوير الآلة.

ولكن يجب أنْ نعرف كيف استخدموا الآلة التي تقدموا في تطويرها؟

وهل أنَّهم نفعوا البشرية أم أصابوها بخسارة لا تقدر؟

إنَّهم طوروا الآلة وأحدثوا القلق والاضطراب، فهل الآلة والاضطراب أفضل، أم الهدوء بلا آلة؟؟.

لا بد أنْ يكون الجواب: الهدوء بلا آلة، لأنَّ الإنسان يريد الآلة لإساعده، لا لإشغائه.

فالأجانب وإنْ كسبوا تقدماً مادياً، إلا أنَّهم خسروه بنكسة معنوية أقسى وأكبر.

٣: ومن الذي أضرَّ المسلمين؟ هل المسلمين تأخروا بأنفسهم - عن مجال الآلة - أم أضرهم الأجانب، بالسلاح

والخداع؟؟؟ ولماذا لم يتأخر المسلمون يوم كانوا مستقلين، إنَّما كانوا ينتشلون معهم الأجانب، ثم لما تقدم

الأجانب تأخر المسلمون وضربت عليهم الذلة؟.

وعشرات الأسئلة من هذا النوع، تدور حول نفسها، ثم لا يكون جوابها إلا واحداً، هو أنَّ النظام الإسلامي -

بما فيه الصوم - كان النظام الصالح للحياة، ولما كان المسلمون ينفذونه في أنفسهم وفي الأجانب، تقدموا

وانتشلوهم، ولما تقدم الأجانب في تطوير الآلة خسروا ساعاتهم عندما استخدموها لنفس معنوياتهم، واخسروا العالم أفضل نظام عرفه، يوم استخدموا الآلة لإلغاء الإسلام، وأسقطوا المسلمين، حين سؤل لهم شيطان الآلة إنهم ينالون السعادة بامتصاص الدماء والدموع.

* * * * *

س: إذا كانت فوائد الصوم، هذه التي سبقت، فلماذا يجب - على المسلمين - الصوم بهذا النحو الخاص، الذي يحدده الفجر والمغرب، والإمساك عن المفطرات العشر المعينة، دون غيرها، وكيف لا يصح استبداله بصوم المرتاضين، أو صوم اليهود والنصارى؟؟؟

ج: إن هذه الفوائد - التي سبقت - ليست كافة فوائد الصوم، لأن الصوم عبادة، ولا بد أن يتوفر في العبادة، أمران، الأول: المصلحة الدنيوية، والثاني: الترويض المعنوي، الذي يجرد من الإنسان عبداً لله، وهذا الأمر الثاني في العبادات، أهم من الأمر الأول، وخاصة إذا علمنا: أن الإنسان إنما جاء في هذه النشأة، ليصبح عبداً صالحاً للارتقاء إلى مستوى الآخرة، فهو خلق لتكميل الجانب العبودي منه، لا لتكميل الجانب المادي منه، وإنما الجانب المادي يأتي عرضاً، بينما يكون الجانب العبودي عرضاً، كما يستدل على هذه الحقيقة، بأدلة منها قوله تعالى: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)). وإذا أطلق للمسلم، حرية اختيار نوعية الصوم، التي توفر له تلك الفوائد المادية، ضاع الجانب العبادي منه. فكان فاشلاً، دون إنجاز هدفه، وإنما يستنفد الجانب العبادي منه بتحديد أطرافه بل كما كانت حدوده أدق، كانت فوائده العبادية أكثر.

٢: إن الإمساك المحدود بالفجر والمغرب، هو المقدار الكافي لترويض الجسم والنفس، وأما الأكثر أو الأقل، فلا يصلح ترويضاً، لأن لكل رياضة حجم خاص لا تنفع إلا به، وكذلك يكون الصوم، فلا تتسرب إليه الزيادة أو النقص، إلا لتجعله تعذيباً مرهقاً، أو عبثاً تافهاً، يضر أو لا ينفع.

٣: إن الإمساك عن المفطرات العشر، يكفي لتعطيل الجسم عن الغذاء والجنس، ومن ثم الترفع بالنفس إلى مستوى تتحلى فيه بالملكات النبيلة، فيجاب الإمساك عن غير هذه المفطرات - معها - تفسير بلا فائدة، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ((يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)) وأقسط الإمساك بعض المفطرات هذه، يؤدي إلى عجز الصوم، عن تعطيل الجسم، وتصعيد النفس عن مستوى المادة.

س: لماذا يجب على المسافر الإفطار - في العصر الحديث - الذي سهلت فيه وسائط النقل، حيث يستطيع أن يسافر الإنسان ويصوم، دون أن يكلف نفسه جهداً كثيراً؟

ج: إن فوائد الصوم، ليست صحية فحسب، بل ربما تكون الفوائد الاجتماعية والنفسية - للصوم - أهم وأولى من الفوائد الصحية، فلا بد أن يُراعى في الصوم إمكانية استفادة مجموع الفوائد منه، ولعل من أهم تلك الفوائد، تصعيد نفس الصائم عن مستوى المادة، وقطع الإنسان من الحياة، حتى ينقطع إلى المثل والقيم. والسفر - مهما كان مريحاً - يغمس الإنسان في الحياة، ويفرغ تفكيره لمعالجة هدف السفر، فلا يستطيع استفادة فوائد الصوم، فيؤجل إلى فرصة تمكنه من استفادته.

٢: إن الصوم - كما سبق - لوحظ فيه الجانب العبادي، أكثر من الجانب المادي، والعبادة تقضي بالتعبد المطلق، وما دام الله تعالى قد أمر بالإفطار في السفر، يكون تربية الشعور العبادي في المسافر بالإفطار، كما أن الصوم نفسه - في مثل هذه الحال - يربي فيه الشعور بالتمرد، فلا بد من الإفطار، لتقوية الجانب العبادي منه،

وتأجيله إلى فرصة لاجتناء الفوائد المادية منه.

٣: إنَّ الله قد شاء أنْ نَظفِرَ في السَفرِ، كما شاء أنْ نَصومَ في الحَضَرِ، فَعَلينا الإِطاعةَ فحَسبَ، وإنْ لم نَعرفِ فلسفتَه، ما دَمنا واثقينَ من أنَّ اللهَ تَعَالَى لا يَحكمُ عيْناً فشانَ العبيدِ السَمعَ والطاعةَ.

فَعن جابِرِ ((إنَّ رسولَ اللهِ (صلى اللهُ عليه وآله وسلم)، خَرَجَ - عامَ الفِتحِ إلى مَكَّةَ، في رَمَضانَ، حتَّى بَلَغَ كِراعَ الغَميمِ (١). فَصامَ النَّاسُ، ثمَّ دعا بِقَدحِ من ماءٍ، فَرَفَعَهُ حتَّى نَظَرَ النَّاسُ إليه، ثمَّ شَرِبَ، فَقِيلَ لَهُ - بَعْدَ ذَلِكَ - إنَّ بَعْضَ النَّاسِ قد صامَ، فَقَالَ: (أولئك العصاة، أولئك العصاة).

فإنَّ اللهَ أَحَبُّ أنْ يُوخَذَ بِرِخصةٍ، كما أَحَبُّ أنْ يُوخَذَ بِعِزائِمِهِ، فَمَنِ افطَرَ في السَفرِ رِيحَ الثَّوابِ، وَمَنِ صامَ كَسَبَ عَذاباً فُوقَ العَذابِ.

روى أنس، قال: (كنا مع النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلم) في السفر، فمنا الصائم، ومنا المفطر، فنزلنا منزلاً - في يوم قانظ - أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، فمنا من يتقي الشمس بيده، فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال رسول الله (صلى اللهُ عليه وآله وسلم): (ذهب المفطرون اليوم بالأجر).

٥: إنَّ الصومَ، يصعبُ على المسافرِ - في أغلبِ الأحيانِ - لأنَّه يَغيرُ مَنهجَ الإنسانِ، والصائمُ يَحتاجُ إلى استِقْرارٍ وهُدوءٍ، وفِطْورٍ وسُحُورٍ.

وأما الفرد الذي لا يغير السفر من نهجه فهو قليل حتى في العصر الحديث، فأسقط الله الصوم عن المسافر، إلحاقاً للنادر بالأعم الأغلب، كما في كافة الشرائع والقوانين السماوية والوضعية، فإنه ما من قانون يفرض لعلة، إلا ويوجد موارد للاستثناء، ولكن لا تستثنى منه، لأن الشاذ في حكم المعدوم.

أحكام الصوم

شروط الصوم

الإسلام: حكيم في جميع تشريعاته وتخطيطاته، فهو لا يأمر بشيء، إلا إذا توفرت الشروط التي تجعل المرء مستعداً لتحمل المأمور به، ولا ينهى عن شيء، إلا بعدما تنعدم الأمور المبيحة له، وحينما أوجب الصوم، لم يرسل حكمه جزافاً، وإنما خصصه بالأفراد الجديرين به، فقرر للإنسان الذي يجب عليه الصوم، تكامل الشروط التالية الخمسة، وهي:

البلوغ: بانسلاخ دور الطفولة، وإعلان الطبيعة كماله الجسماني، بتعبير الاحتلام، أو الإنبات، أو بلوغ الفتى ١٦ عام، والفتاة ١٠ أعوام.

العقل: لأنَّ المجنون، قد رفع عنه قلم التكليف.

القدرة: فمن لا يقدر على أداء الصيام ليس عليه الصوم، وبشروط القدرة، يستثنى الأفراد المدرجون، في أحد الأنواع التالية وهي:

١- كراع الغميم: موضع على ثلاثة أميال من (عسفان).

المريض: الذي يضر به الصوم.
 ذو العطاش، الذي لا يطيق احتمال العطش طول النهار.
 الحامل المقرب: التي تخشى على نفسها أو جنينها من الصوم.
 والمرضعة: التي تخشى أن يؤثر على لبنها، فيؤثر على طفلها.
 المكروه: الذي إن أصر على صيامه، تصيبه سلطة جائرة، بأذى غير محتمل عادة.
 والمضطر: الذي يكرهه غيره على إحدى المفطرات، كأن يفتح حلقه ويصب فيه الماء.
 الحضور أو ما في حكمه.
 طهارة المرأة من الحيض أو النفاس.

* * * * *

وهؤلاء الذي لم يكتب عليهم الصيام، ثلاثة أنواع:
 النوع الأول: من لم يكتب عليه الصيام لعدم المقتضي فيه، كالصغير والمجنون، فليس عليه قضاء ولا كفارة.
 النوع الثاني: من لم يكتب عليه الصيام، لمانع، كالمريض، والحامل، والمرضعة، والمكروه، والمضطر، والمسافر، والحائض، والنفساء، فعليه القضاء.
 النوع الثالث: من يطيق الصوم، ولكن يساوي الصوم أقصى درجات إمكانه، كذبي العطاش، ومثله الشيخ الهرم، الذي لا يكون الصوم بمقدار طاقته، والمريض الذي يطول مرضه طول العام، فليس عليه القضاء، ولكن يجب عليه بدلاً عن كل يوم من شهر رمضان (فدية) مقدارها (مُدٌّ) من الطعام - ويساوي (٧٥٠) غرام من الحنطة تقريباً.

قال الله تعالى بالنسبة إلى النوع الثاني:

((فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ))

وقال سبحانه بالنسبة إلى النوع الثالث:

((وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ)).

مفطرات الصوم

إن المفطرات، التي يتحقق الصوم بالكف عنها، عشرة - على المشهور، - وهي:

١: الأكل

٢: الشرب

قال الله تعالى: ((وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ))

روى الحلبي: عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

(إذا سمعتم صوت (بلال) فدعوا الطعام والشراب).

٣: النكاح:

قال الله سبحانه: ((أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّقْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ))

٤: تعمد القيء:

روى الحلبي: عن الإمام الصادق (عليه السلام):
(إذا تقيأ الصائم، فقد أفطر...).

٥: البقاء جنباً حتى الصباح:

روى أبو بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام):
(في رجل، أجنب في شهر رمضان، بالليل، ثم ترك الغسل متعمداً حتى أصبح؟)
قال (عليه السلام): يُعتق رقبة، أو يصوم شهرين متتابعين، أو يطعم ستين مسكين...)

٦: الارتماس في الماء:

روى يعقوب بن شعيب، عن الإمام الصادق (عليه السلام):
(... لا يرتس المحرم في الماء، ولا الصائم).

٧: الكذب على الله أو الرسول أو أحد الأئمة (عليهم السلام):

قال أبو بصير: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول:
(إن كذب على الله، وعلى رسوله وعلى الأئمة، يفطر الصائم).

٨: العادة السرية:

قال عبد الرحمن بن الحجاج:
(سألت أبا عبد الله (عليه السلام): عن رجل، يعبث بأهله - في شهر رمضان - حتى يمني؟)
قال: (عليه من الكفارة مثل ما على الذي يجمع).

٩: الاحتقان:

سأل أبو بصير عن أبي الحسن (عليه السلام):
(عن رجل يحتقن، تكون به العلة - في شهر رمضان -؟)
(فقال: الصائم، لا يجوز له أن يحتقن).

١٠: إيصال الغبار الغليظ إلى الحلق.

روى سلمان بن جعفر، عن الإمام الصادق (عليه السلام):
(.. أو كنس بيتاً، فدخل في أنفه وحلقه غبار، فعليه صوم شهرين متتاليين، فإن ذلك له فطر مثل الأكل والشرب والنكاح).

تأخير القضاء

ومن أفطر في أيام شهر رمضان، سواءً أكان إفطاره بلا عذر، كالعاصي أو كان إفطاره مع عذر، كالمسافر والمريض والحائض، والنفساء والحامل، والمرضعة... يجب عليه قضاء ما أفطر، يوماً بيوم، في غضون الأشهر، الأحد عشر، أي قبل حلول شهر رمضان التالي، فإن أحرَّ القضاء حتى رمضان الثاني، وجب عليه القضاء - يوماً بيوم - والفدية عن كل يوم مداً من الطعام.

عقوبة الإفطار

والذين يفطرون في أيام شهر رمضان - بلا عذر - قسماً:
القسم الأول: أولئك الذين يفطرون مستحلين، بأن ينكروا أصل وجوب الصوم، وهؤلاء يعاقبون بالقتل، لأن كل ما أنكر ضرورياً من ضروريات الدين فهو كافر.
القسم الثاني: أولئك الذين يفطرون عصياً، بأن يعترفوا بأصل وجوب الصوم، في الإسلام، ولكنهم يفطرون لغلبة الهوى والشيطان، وهؤلاء يعاقبون بثلاث أمور:
الأول: التعزير، فيجلدهم الحاكم الشرعي، ما دون ثمانين جلدة.
الثاني: القضاء يوماً بدلاً من كل يوم.
الثالث: الكفارة إحدى ثلاث أشياء:
١. عتق عبد مؤمن، في سبيل الله.
٢. صيام ستين يوماً متتابعاً.
٣. إطعام ستين مسكيناً.
كان هذا إن أفطر بالحلال، كالخبز والماء، وأما إذا أفطر بالحرام كالخمر والغصب، وجب عليه عتق عبد مؤمن، وصيام ستين يوماً، وإطعام ستين مسكيناً.

نوافل الصوم

للصوم نوافل تزيد في قوته وآثاره، فبينما يكون نصيب الصائم، الذي يلتزم بكف نفسه عن المفطرات العشر، مجرد إسقاط الواجب، إنقاذ رقبته من النار، يكون نصيب الصائم الآخر، الذي يلتزم بجميع نوافل الصوم، إنّه يدخل شهر رمضان شديد الفقر، فيخرج منه غنياً بالكمات والمملكات النبيلة.
ومن هذه النوافل:

١: صوم الجوارح

بأن يشترك - مع البطن والفرج - في الصيام، كل من اللسان، والعين، واليد، والرجل، والأذن وغيرها من الأعضاء، فلا يقترف إثماً ولا يرتكب خطيئة.
فعن محمد بن مسلم، عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام):
(إذا صمت، فليصم سمعك، وبصرك، من الحرام والقبيح، ودع المراء، وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصائم، ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك).
وعن جابر بن يزيد الجعفي، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:
(يا جابر، هذا شهر رمضان، من صام نهاره، قام ورداً من ليله، وعف بطنه وفرجه، وكفّ لسانه، خرج من الذنوب، كخروجه من الشهر).

عن جراح المدايني، عن الإمام أبي عبد الله (عليه السلام):
(إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، قالت مريم: ((إني ندرتُ للرحمن صوماً)) أي: صمنا، فإذا صمتم احفظوا ألسنتكم، وغضوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا).
وعن الإمام الصادق (عليه السلام): عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:
(الصوم جنّة من آفات الدنيا، وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانو بصومك كفّ النفس عن الشهوات، وقطع الهمة عن خطوات الشياطين، وأنزل نفسك منزلة الرضى، ولا تشقه طعاماً ولا شراباً، وتوقع في كل لحظة، شفاؤك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر، وغفلة، وظلمة، يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله).

٢: كتمان الصوم

ويستحب للصائم، كتمان صومه، بأن لا يتجاهر به - وخاصة في غير أيام شهر رمضان، حيث لا يكون من المتوقع أن يكون صائماً - زيادة في الإخلاص. والزهد في التظاهر أمام الناس).
روى السكوني: عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال:
(من كتم صومه، قال الله تعالى: (عبدني، استجار من عذابي، فأجبروه)، ووكل الله تعالى، ملائكتك بالدعاء للصائمين، ولم يأمرهم بالدعاء لأحد، إلا استجاب لهم فيه).
لا يعني هذا أن ينكر الصائم صومه، بل يعني أن لا يعلنه وكأنه يريد به التبجح والاستعلاء، واستدرا عطف الناس أو ثوابهم، وأما إذا كان يريد المغالاة في الإخلاص، فينكر صومه في شهر رمضان أو غيره، فهو حرام،

فهذا كذب، وربما هتك حرمة رمضان، وتجراً الناس على المعصية، كما ورد إن زرارة قال للإمام الصادق (عليه السلام): الرجل يكون صانماً، فيقال له: أصانم أنت، فيقول: لا، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): (هذا كذب).

٣: مزيداً من الراحة

إن كثيراً من الأمراض، وعديداً من الوفيات، وموت الفجئة، ناتج من التعب، لأن الأعصاب لا تتحمل إلا مقدراً من الدؤوب المتواصل على الأعمال، فإذا أسرف المرء في إرهاق نفسه، فقد استهلك من صيده أكثر مما انتج، وكما يحتاج الإنسان إلى راحة يومية، يستعيد بها نشاطه اليومي، وكذلك يحتاج إلى راحة سنوية يستعيد فيها نشاطه السنوي.

وانطلاقاً من هذا الواقع، فضّل للصائم الارتياح والهدوء، حتى أن الله قرر منح الصائم الثواب، بمقدار نومه وأنفاسه، كيما لا يرهق نفسه بالعبادة حرصاً على الثواب، فقد روى المفيد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أنه قال (نوم الصائم عبادة ونفسه تسبيح).

ولكن على الصائم أن لا يستغل هذا الحديث، لقضاء شهر رمضان كله بالبطالة والخمول، وإثماً يكون عليه أن يستفيد من فرص هذا الشهر العظيم، للمزيد من الطاعات والقربات، ولكن بمقدار لا يسلب منه الراحة والهدوء.

٤: التسحر والإفطار

فالإسلام عندما يفرض الصوم على الإنسان، لا يريد أن يذيقه الجوع والعطش أكثر من طاقته، وإثماً يهدف إلى تنظيم وجبات طعامه، حتى يستفيد من فوائد الصوم دون أن يخسر شيئاً من طاقاته الجسدية، فأستحب أن يتسحر الصائم حتى يستطيع تحمل صيام النهار، وأن يفطر، حتى لا يرهقه الجوع.

فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (السحور بركة). و (تسحروا ولو بجرع الماء، ألا صلوات الله على المتسحرين). و (تعاونوا بأكل السحور على صيام النهار، وبالنوم عند القيلولة على قيام الليل). والإفطار كذلك مستحب.

٥: الإفطار بالحلوى أو الماء الفاتر

واستحباب الإفطار، يتأكد إذا كان بإحدى المواد المدرجة في النصوص التالية:

روى السكوني، عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال:

(إن الرجل إذا صام، زالت عيناه من مكانهما، فإذا أفطر على الحلو، عادت إلى مكانهما).

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال:

(أفطر على الحلوى، فإن لم تجده فأفطر على الماء، فإن الماء طهور).

روى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام): أنه قال:

(كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أفطر، بدأ بحلو يفطر عليه، فإن لم يجد فسكرات، أو تمرات، فإن هو أعوز ذلك كله، فماء فاتر، وكان يقول: ينقي المعديّة والقلب، ويطيب النكهة والفم، ويقوي الحنق، ويحدّ الناظر، ويغسل الذنوب غسلًا، ويسكن العروق الهانئة، والمرّة الغالبة، ويقطع البلغم، ويطفي الحرارة عن

المعدة، ويذهب بالصداع).

٦: النظافة والتعطر

الإسلام يحب النظافة والتعطر دائماً، ويؤكد عليها في مواسم العبادة، أليس في القرآن الكريم: ((خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ)) و ((أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ))؟. والصوم حيث يكون عبادة من أهم العبادات، أكد الإسلام على النظافة والتعطر فيه. روى عمير بن ميمون، عن الحسن بن علي (عليهما السلام) أنه قال: تحفة الصائم أن يدهن لحيته، ويجمر ثوبه، وتحفة المرأة الصائمة أن تمشط رأسها، وتجمر ثوبها).

٧: قرآنه القرآن

فالصوم عبادة جامعة، لها فوائد كثيرة، ولكن استثمار هذا الفوائد يتوقف على دراسة كثيرة دانية، والقرآن، أوسع دراسة يتناول الإنسان من جميع جوانبه، ويعرض على نفسه نقاط ضعفه، ثم يوجهه التوجيه لمعالجتها بأسهل الطرق، وأقربها إلى النجاح، فكان على الإنسان الصائم - قبل أي شيء - إيمان تلاوة القرآن بتدبر وإمعان.

بالإضافة إلى أن القرآن نزل في شهر رمضان، وشهر رمضان احتفاء بهذه بانتصار البشرية في إحراز هذه الوثيقة الإنسانية الخالدة، وهل هناك شيء يُتلى في هذه الذكرى المجيدة، أفضل وأجمع من نفس القرآن؟.. ولذلك كان ثواب تلاوة كل آية من القرآن في شهر رمضان، يعادل ثواب تلاوة القرآن كله في غير شهر رمضان.

روى جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال:

(لكل شيء ربيع، وربيع القرآن شهر رمضان).

قال وهب بن حفص: سألت أبا عبد الله (عليه السلام)، عن رجل، في كم يقرأ القرآن؟ قال: (في ست فصاعداً)، قلت: في شهر رمضان؟ قال: (في ثلاث فصاعداً - أي في ستة أيام، وثلاثة أيام).

٨: كثرة العبادات

وشهر رمضان، موسم العبادة، لأن الإنسان عندما يصوم، تصفو نفسه، ويزداد تقرباً إلى الله جلّ وعلى، فيستطيع أداء القربات، بصفاء وإخلاص، لا يجدهما في غير هذا الشهر المبارك، لأنه لا يقدر على التجرد من الحياة، والتفرغ للتأملات الداعية، كما يقدر في هذا الشهر العظيم، فالتجاوب الذي يحصل بين الإنسان، والأعمال التي يأتي بها، لا يحصل في غير رمضان، فجوّ رمضان، يرحب بالعبادة، أكثر من أجواء بقية الشهور. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (عليكم في شهر رمضان، بكثرة الاستغفار والدعاء، فأما الدعاء، فيدفع البلاء عنكم، وأما الاستغفار فتمحي به ذنوبكم).

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا دخل شهر رمضان - أطلق كل أسير، وأعطى كل سائل).

وقد أوصى الإمام الصادق (عليه السلام)، فقال:

(إذا دخل شهر رمضان، فأجهدوا أنفسكم، فإن فيه تقسم الأرزاق، تكتب الآجال، وفيه يكتب وفد الله، الذين

يفدون إليه، وفيه ليلته، العمل فيها خير من العمل في ألف شهر).

روى أبو بصير، عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال:

(كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا دخل العشر الأواخر من شهر رمضان، شد المنزر، وأجتنب النساء، وتفرغ للعبادة).

عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله (عليه السلام): أنه قال: (من لم يغفر له في شهر رمضان، لم يغفر له إلى قابل، إلا أن يشهد عرفة).

٩: كثرة الدعاء

وشهر رمضان، شهر الطاعة والعبادة، ولكن الإنسان لا يعرف: ماذا يفعل؟ وماذا يقول؟ حتى يتقرب إلى الله سبحانه، لأن الإنسان عندما يروم مقابلة أي عظيم، لا بد أن يتعلم الكلمات الخاصة، التي يجدر أن يواجه بها، ليكسب رضاه، ولا يثير سخطه، ونحن عندما نتفرغ للقربات في شهر رمضان، ونحاول أن نتصل بالله، بأسلوب يستدر عطفه ومغفرته، علينا أن نتعلم ما يجب أن نقوله لله تعالى، ولم نكن نستطيع معرفة ما يقربنا إلى الله، لأننا لا نعرف الله، وأنى للإنسان أن يعرف ما يقربه إلى رب لا يعرف كنهه، ولكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) قد أنقذونا من هذه الأزمة الفكرية، عندما لقنونا الأدعية، التي نناجي بها الله. والواقع: إن الأدعية الماثورة، لسان العباد، الذي يعبر عن الخشوع الذي يملأ ضمائرهم، والإذعان المطلق بالله وبكل ما أخبر عنه رسوله.

بالإضافة إلى أن التراث الخضم، الذي تركه لنا المعصومون، مدرسة واسعة تشمل فنون المعاني التي يجب أن تحيا بين العبد وربّه، ومختلف المفاهيم العبادية، التي يجب أن تعيشها الذهنية الإنسانية تجاه خالق الكون والحياة والإنسان.

والأدعية عندما تحاول تركيز معاني العبودية، في واقع العباد، لا تقف منهم موقف الفيلسوف ولا موقف المعلم، فما أعجز الفيلسوف والمعلم، عن إلهام هذه المعان السامية، وإنما يتبنى موقف الطبيب النفسي من مريضه، فيستعين بالتلقين والإيحاء لعرضه تلك الأفكار العظيمة على أذهان العباد، ثم يتوسل بالترديد لغرسها وتأسيس جذورها في واقع العباد.

وبعد استعراض المفاهيم العبادية، تنصرف الأدعية إلى التوجيه الاجتماعي بتبسيط نواقص المجتمع، ونقاط الضعف فيه، وسرد علاجها مباشرة في إطار دعائي أحاذ، يفرض الاعتراف على كل من يروم قرانه الدعاء، كيما تستيقظ الضمانر الحرة، على تفهم الاجتماع، وأعراضه وأدوانه، وتنشط فيها عاطفة الإصلاح. وتبدوا هذه الظاهرة جلية، في أدعية (الصحيفة السجادية) حيث كان الإمام زين العابدين (عليه السلام)، يعيش أقسى دكتاتورية منحرفة، تحارب كل بصيص من نور، بعاصفة من الظلام، فلم يجد فرصة التعبير عن آرائه بالخطب والمواعظ، فاستغل فرصة الدعاء، لنشر آرائه، في أسلوب لا يعرفه الظالمون، ولا يقدر على خنقه الجلادون.

* * * * *

وفي شهر رمضان، حيث تكون النفوس المؤمنة، متأهبة للتلقي والتجاوب، مع بواعث الإلهام، كثرت الأدعية المندوبة استنفاداً لأقصى ما يكون في وسع هذا الشهر من المنح والعطاء.

فوردت الأدعية الليلية المشتركة، التي يستحب الدعاء بها في كل ليلة، والأدعية النهارية المشتركة، التي يستحب الدعاء بها في كل يوم، والأدعية الخاصة بكل ليلة أو يوم، والأدعية المستحبة عند رؤية هلال رمضان، وفي يوم العيد، والأدعية المستحبة بعد كل صلاة، والأدعية المستحبة في أول الليل ووسطه وآخره، و الأدعية المستحبة صباحاً ومساءً من كل يوم، والأدعية الإضافية لليالي القدر الليلة الأولى، والنصف، والأخيرة...

١٠: فطر الصائم

وقد يكون أفضل القربات المندوبة، في شهر رمضان، إفطار الصائم، لأنه يشجع على الصيام ويؤلف القلوب، ويشيع المحبة بين أفراد المجتمع، وقد أكد الإسلام عليه، أكثر مما أكد على بقية المستحبات.

روى أبو الورد، عن الإمام الباقر (عليه السلام)، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: (ومن فطر فيه - في شهر رمضان مؤمناً صائماً، كان له بذلك عند الله، عتق رقبة، ومغفرة لذنوبه فيما مضى).

روى أبو الصباح الكناني، عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبيه: (من أفطر صائماً، فله مثل أجره).

عن الإمام موسى بن جعفر:

(فطرك أخاك، أفضل من صيامك).

روى سعدة، عن الإمام الصادق (عليه السلام):

(دخل سدير الصيرفي على أبي (عليه السلام)، فقال: يا سدير، هل تدري: أي الليالي هذه؟ فقال: نعم، فذاك أبي وأمي، هذه ليالي شهر رمضان، فما ذلك؟ فقال له: أتقدر على أن تعتق في كل ليلة من هذه الليالي، عشر رقاب من ولد إسماعيل (عليه السلام)؟ فقال له سدير: بأبي وأمي، لا يبلغ ما لي ذلك، فما زال أن تفطر في كل ليلة رجلاً مداً؟ فقال له: بلى وعشرة، فقال له أبي: فذلك الذي أردت، يا سدير، إن إفطارك أخاك المسلم، يعدل عتق رقبة من ولد إسماعيل).

روى بن حمران، عن أبي عبد الله (عليه السلام):

(كان علي بن الحسين (عليه السلام) - إذا كان اليوم الذي يصوم فيه - أمر بشاة، فتذبح، وتقطع أعضائها وتطبخ، فإذا كان عند المساء، أكبت على القدر، حتى يجد ريح المرق، وهو صائم، ثم يقول: هاتوا القصاع، اغرفوا لآل فلان، ثم يؤتى بخبر وتمر، فيكون ذلك عشانه).

مكروهات الصوم

للصوم مكروهات، تضعف معنويته وتأثيره، فإذا أتى بها الصائم لا يكسب من صومه، سوى سقوط الفريضة

عنه، وإن تركها يتيح لصومه، إمكانية إنقاذه من كثير من الانحرافات الاجتماعية والنفسية والصحية، ونقتصر على ذكر بعضها كما يلي:

١: الشعر

لأن الشعر - بطبيعته - نوع من الزخرفة والتجميل للحياة، وألوان الزخرفة وإن اختلفت في بواعثها وأهدافها، إلا أنها تتفق في تأكيد صلة الإنسان بالحياة، وإغرائه إلى الجمال - وإن كان الجمال اللفظي البريء - فإنه على أي حال، لون من التسويل، الذي يزيد جشع المرء في الدنيا، فهو يعمل من أجل الترغيب في الحياة، بينما الصوم يسعى للتنزيه في الحياة فيناقض هدف الصوم، ويعرقل زحفه الأكيد، فكره الشعر وإن كان حقاً، لأن الشعر الحق، لا يفقد طبيعة الشعر المغرية المسوِّلة.

قال حماد بن عثمان، سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول:

(يكره رواية الشعر للصائم، والمحرم، وفي الحرم، وفي يوم الجمعة وأن يروى بالليل).

قلت: وإن كان شعر حق. قال:

(وإن كان شعر حق).

٢: الرياحين

ولقد سبق: إن التعطر مستحب، ولكن شم الرياحين مكروه، لأن التعطر لا يزيد على تنزيه المؤمن من نفسه من الرائحة الكريهة، وهذا ينفع لتأليف القلوب، وتحابب الأخوان، بينما الرياحين من مفاتن الحياة، التي تغري إلى الخلود إليها، فتعاكس محاولة الصوم، لتخليص من الدنيا وتوجيهها إلى الله والدار الآخرة.

روى حسن بن راشد، عن الإمام الصادق (عليه السلام):

(الصائم لا يشم الرياحين).

روى الصدوق:

(كان الإمام الصادق (عليه السلام) إذا صام لا يشم الرياحين، فسئل عن ذلك، فقال: (إني أكره إن أخلط صومي بلذة).

قال المفيد (رحمه الله) في المقنعة: إن ملوك الفرس، كان لهم يوم في السنة، يصومونه، فكانوا في ذلك اليوم، يعدون (الترجس) ويكثرون من شمه، ليذهب عنهم العطش، فصار كالسنة لهم، فهي آل محمد عن شمه، خلافاً على القوم، وإن كان شمه لا يفسد الصوم.

٣: المغريات

فيكره للإنسان ممارسة كل شيء مثير لأمرين:

الأول: - إن الصوم - كما سبق يحاول تفريغ الذهنية الصائمة من حب الحياة، والمغريات تنشط فيها حب الحياة،

الثاني: إن الإنسان ما دام يعيش في عزلة عن الأشياء المثيرة، يكون أبعد عن المحرمات، أما لو عاش المغريات، لا يأمن إن يستحوذ عليه الإغراء فيقتحم المحرمات فيفسد عليه صيامه.

سئل علي بن جعفر (عليه السلام) أخيه موسى بن جعفر (عليه السلام):
 (عن الرجل، هل يصلح أن يُقبَل أو يلمس، وهو يقضي شهر رمضان؟ قال: لا).
 عن الحلبي، عن أبي عبد الله (عليه السلام):
 (سئل عن الرجل، يمسّ من المرأة شيئاً، أفسد ذلك صومه؟ فقال: إن ذلك ليكره للرجل الشاب، مخافة أن
 يسبّقه المنى).

٤ : المضعفات

ويكره للصائم ممارسة كل شيء مضعف، لأنه إذا أضيف إلى الصوم، فقد يفرط الضعف إلى حيث ينهك قواه،
 ويضر بصحته، والإسلام إنما شرع الصوم، لأغراض منها الصحة الجسدية، فيكره أن يفعل الصائم، ما يؤدي
 إلى الإخلال بصحته.

روى الإمام الرضا (عليه السلام) عن آبائه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام):
 (ثلاثة لا يعرض أحدكم نفسه لهن، وهو صائم: الحمام، والحجامة، والمرأة الحسناء).

روى الحلبي: عن الإمام الصادق (عليه السلام)

(سألته عن الصائم، أيجتمع؟)

(فقال: إني أتخوف عليه، ما يتخوف به على نفسه)

(قلت: ماذا يتخوف عليه؟)

(قال: الغثيان، أو تثور به مرة)

(قلت: رأيت، إن قوى على ذلك، ولم يخش؟)

(قال: نعم: إن شاء الله).

روى عمّار بن موسى، عن الصادق (عليه السلام):

(في الصائم، ينزع ضرسه).

(قال: لا، ولا يدمي فاه، ولا يستاك بعود رطب).

روى محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام):

(إنه سئل عن الرجل، يدخل الحمام، وهو صائم).

(فقال: لا بأس، ما لم يخش ضعفاً)

(جاء رجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقال: أقبل وأنا صائم؟)

(فقال (عليه السلام): أصف صومك، فإن بدء القتال اللطام).

قصص الصوم

مطعم بن جبير

روى السيد مرتضى: عن النعماني، عن أمير المؤمنين (عليه السلام):
(إنَّ اللهَ لما فرض الصيام، فرض: أن لا ينكح الرجل - في شهر رمضان - لا بالليل والنهار، على معنى صوم بني إسرائيل، في التوراة، فكان ذلك محرماً على هذه الأمة).

(وكان الرجل، إذا نام في أول الليل - قبل أن يفطر - حرم عليه الأكل بعد النوم، أفطر أو لم يفطر).
(وكان رجل من الصحابة، يعرف بـ (مطعم بن جبير) شيخاً، فكان وقت الذي حفر فيه (الخنوق) حفر في جملة المسلمين، وكان في شهر رمضان، فلما فرغ من الحفر، وراح إلى أهله، صلى المغرب، وأبطأت عليه زوجته بالطعام، فغلب عليه النوم، فلما أحضرت إليه الطعام، انبهته، فقال لها: استعمليه أنت، فإني قد نمت، وحرمت عليّ، وطوى ليلته، وأصبح صائماً، فغدا إلى الخندق، وجعل يحفر مع الناس، فغشي عليه، فسأله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن حاله، فأخبره).

(وكان المسلمون شباناً، ينكحون نساءهم بالليل سراً، لقلّة صبرهم).

(فسأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الله في ذلك).

(فأنزل الله):

((أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَابِسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَابِسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ))
(فنسخت هذه الآية ما تقدمها).

واثلة بن الأسقع

عن واثلة بن الأسقع، قال:

(حضر رمضان، ونحن في أهل (الصفة) فصمناه، فكتنا إذا أفطرننا، أتى كل رجلٍ من أهل البيعة فانطلق به، فعشاه).

(فأتت علينا ليلة، لم يأتنا أحد، وأصبحنا صياماً، وأتت القابلة علينا، فلم يأتنا أحد، فانطلقنا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخبرناه بالذي كان من أمرنا، فأرسل إلى كل امرأة من نساينه يسألها: هل عندها شيء؟ فما بقيت منهن امرأة، إلا أرسلت تقسم: ما أمسى في بيتها مما يأكل ذو كبد. فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاجتمعوا. فدعا فقال:

(اللهم، إني نسألك من فضلك، ورحمتك، فإنها بيدك، ولا يملكها أحدٌ غيرك).

فلم يكن، ألا ومستأذن يستأذن، فإذا بشاة مصلية ورغف، فأمر بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) فوضعت

بين أيدنا، فأكلنا حتى شبعبنا، فقال لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله):
(إنا سألنا الله من فضله، ورحمته فهذا فضله، وقد ادخر لنا عنده رحمته...).

صحابي

قال أحد الصحابة:

(كانت عندي - في رمضان - خمس عشر تمرّة، فأفطرت على خمس، وتسحرت بخمس، وأبقيت خمساً).

تشریفات رمضان

لقد عني المسلمون بشهر رمضان - منذ أن فرض الصوم - فأحاطوه بأنواع التكريم، فلم يكذبوا عن ثبوت هلال شهر رمضان، إلا وتطوّر البلاد الإسلامية كلها، برامجها الحياتية، وتقلص الاتجاهات المادية، للتوفير على الاتجاهات المعنوية، كما شاء الله للصوم، أن يطوّر الحياة، وينقذها من الرتابة المملة.
ولم تكن تشریفات رمضان خاصة بالفئات الشعبية المؤمنة، التي لا تستطيع التأثير إلا على جوانب محدودة من الحياة العامّة، وإنما كانت الحكومات والشعوب بأسرها تتعاون في الاحتفاء بشهر الصيام - كما ندب إليه الرسول العظيم - حتى كان هذا الشهر فترة منفصلة عن بقية الشهور، وحتى صح فيه قول بعضهم: (رمضان شهر الصيام، والقيام، الطعام). لا شهر الاكتساب والصراع، والمعصية.

إحياء رمضان في مكة

وكان أهلي مكة المكرمة، أكثر الناس، احتفاءً بشهر رمضان، أو ليست إشعاعات البيت العتيق، جديرة بأن تدفع الناس باردة خفية إلى الإكثار من القربات، ولا سيما في هذا الشهر المبارك.
وقد بلغ اهتمام (جيران بيت الله) بهذا الشهر - في بعض العصور - مبلغاً تحدث عنه (القضاعي) فقال:
(عجائب الإسلام أربعة، عرض الخيل بمصر، ورمضان مكة، والعيد بطرسوس، والجمعة في بغداد).
وحضر شهر رمضان بمكة المكرمة، الرحالة (ابن جبیر) عام ٥٧٩هـ فكتب عنه:
(حينما استهل هلال رمضان، وقع الاحتفال في المسجد الحرام، بهذا الشهر المبارك، وقد جُددت الحُصُر، وكثر الشمع والمشاعيل، وغير ذلك من الآت الإضاءة، حتى تلالاً الحرم نوراً، وسطح ضياء).
(إن جماعة من التجار تنافسوا، فجلبوا لإمام الكعبة شمعاً كثيراً، من أكبره شمعتان، نصبتا أمام المحراب، فيها قنطار، وقد حفت بها شمع دونهما، صغاراً وكباراً... فكاد لا يبقى في المسجد زاوية ولا ناحية، إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه، فيرتجّ المسجد لأصوات القراء من كل ناحية، فتعاين الأبصار، وتشنف الأسماع، بما تخشع له النفوس خشية ورقة، ومن الغرباء من اقتصر على الطواف، والصلاة في الحجر).

(والفرقة (١) تستعمل في هذا الشهر المبارك، وذلك انه يضرب بها ثلاث ضربات، عند الفراغ من أذان المغرب، وعند الفراغ من أذان العشاء الآخرة).

والمؤذن الزمزمي، يتولى التسحير في الصومعة، التي في ركن الشرقي من المسجد، بسبب قربها من دار الأمير، فيقوم في وقت السحور فيها، داعياً، ومذكراً، ومحرصاً على السحور، ومعه أخوان صغيران، يجاوبانه ويقاولانه، وقد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة، في رأسها عود كالذراع، وفي طرفيه بكرتان صغيرتان، يرفع عليها قنديلان من الزجاج كبيران، ولا يزالان يوقدان مدة التسحير، فإذا قرب ميعاد الإمساك، والتنبيه عليه مرة بعد مرة، حط المؤذن القنديلين من أعلى الخشبة، وبدأ بالأذان، وثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان، وفي ديار مكة الدور مرتفعة، فمن لم يسمع نداء التسحير، ممن يبعد مسكنه من المسجد، يبصر القنديلين يوقدان في أعلى الصومعة، فإذا لم يبصرهما، علم أن الوقت قد انقطع.

(وكل وتر من الليالي العشر الأواخر، يختم في القرآن، فأولها ليلة إحدى وعشرين، ختم فيها أحد أبناء أهل مكة، وحضر الختمة القاضي، وجماعة من الأشياخ، فلما فرغوا، قام الصبي فيهم خطيباً، ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور إلى منزله، إلى طعام وحلوى، قد أعدهما واحتفل فيهما. ثم بعد ذلك، ليلة ثلاث وعشرين، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين، وذوي اليسار غلاماً لم يبلغ سنه الخمسة عشرة سنة، فاحتفل أبوه لهذه الليلة، احتفالاً بديعاً، وذلك أنه أعد له ثرياً، مصنوعة من الشمع، مغطنة، قد انتظمت فيها أنواع الفواكه الرطبة واليابسة، وأعد لها شمعاً كثيراً، ووضع وسط الحرم شبيه المحراب المربع، أقيم على قوائم أربعة، تدلت منه قناديل مسرجة، وأحاط دائر المحراب بمسامير مدببة الأطراف، غرز فيها الشمع، وأوقدت الثريا المغطنة، ذات الفواكه، وأمعن في الاحتفاء هذا الاحتفاء، ووضع بقربة من المحراب، منبر، مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان، وحضر الإمام الطفل، فصلى وختم، وقد ملء المسجد بالرجال والنساء، وهو في محرابه وحوله الشموع، ثم برز من محرابه، رافلاً في أفراس ثيابه، فاستقبله أحد سدنة المسجد، وأوصله إلى ذروة المنبر، فاستوى مُبتسماً، وأشار على الحاضرين مسلماً، وجلس بين يديه قرآء، فابتدروا القراءة على لسان واحد، فلما أكملوا عشراً من القرآن، قام الخطيب فصدح بخطبته، وبين يديه - في درجات المنبر - نفر يمسون الشمع بأيديهم، ويرفعون أصواتهم بـ (يا رب.. يا رب) عند كل فصل من فصول الخطبة، يكررون ذلك والقراء يبتدرون القراءة في أثناء ذلك، فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا، ثم يعود لخطبته، مشيراً إلى البيت العتيق - عند ورود اسمه - ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه، والدعاء للخليفة، ولكل من جرت العادة بالدعاء له، ثم نزل وانفض ذلك الجمع، ثم ذكر أن المعينين من ذلك الجمع، كالقاضي وسواه، خصوا بطعام حفيل وحلوى، على عادتهم في مثل هذا المجتمع).

ثم كانت ليلة خمس وعشرين، فكان المختتم، الإمام الحنفي، وقد أعد ابناً له لذلك، سنه نحو من سن الخطيب الأول المذكور، فكان احتفال الإمام الحنفي لابنه في هذه الليلة عظيماً، احضر فيه من ثريات الشمع أربعاً، مختلفات الصنعة، فيها مشجرة مغطنة مثمرة، بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة، ومنها غير مغطنة، فصققت أمام خطيبه، وتوج الحطيم بخشب وألواح، وضعت أعلاه، وجلل ذلك كله سرجاً، ومشاعيل، وشمعاً، فاستنار الحطيم حتى لاح في الهواء كالتاج العظيم من النور، واحضر الشمع في الشمعدانات النحاسية، ووضع المحراب العودي فجعل دائرة الأعلى كله شمعاً، وأحرق به الشمع في الشمعدانات فاكتنفته هالات من النور، ونصب المنبر

قباله، مجللاً أيضاً على الكسوة الملونة، فختم الصبي المذكور، ثم برز من محرابه إلى منبره، في أثواب رائعة المنظر، فصعد المنبر، وأشار بالسلام على الحاضرين، وابتدأ خطبتهم وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول، وانتهت الحفلة بالوليمة، التي يقيمها والده، ثم يقول:

(وأية حالة توازي شهود ختم القرآن، ليلة خمس وعشرين من رمضان، خلف المقام الكريم، وتجاه البيت العظيم؟ وأنها لنعمة تتضاعل لها النعم، تضاعل سائر البقاع للحرم).

ولما كانت ليلة السبع والعشرين، كان الاستعداد للاحتفال بختم القرآن على أتمّه، فقد جرت العادة: أن الاستعداد للاحتفال بهذه الليلة المباركة، يكون قبل ذلك بليلتين، أو ثلاث، وأقيمت إزاء الحطيم، خشب عظام ظاهرة الارتفاع، موصول بين كل ثلاث منها، بأذرع من الأعواد الوثيقة، فأتصل منها صف، كاد يمسك نصف الحرم عرضاً، ووصلت، ثم عرضت بينها ألواح طوال، مدت على الأذرع المذكورة، وعلت طبقة منها طبقة أخرى، حتى استكملت ثلاث طبقات، فكانت الطبقة العليا منها خشباً مستطيلة، مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف، لاصفاً، بعضها ببعض، نصب عليها الشمع، والطبقتان، تحتها ألواح مثقوبة، ثقباً متصلاً، وضعت فيها زجاجات المصابيح، ذوات الأنابيب المنبعثة من أسفلها، وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب، ومن جميع الأذرع المذكورة، قناديل كبيرة وصغيرة وتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من النحاس، معلقة في السلاسل (ويفهم من باقي وصفها إنها ثريات نحاسية كبيرة). هذا عدى إضاءة أخرى في أنحاء الحرم، ما بين ثريات، وشمعدانات نحاسية، بها الشمع، ما بين كبيرة وصغيرة، فأضاعت الحرم، بأضواء ساطعة من الداخل والخارج، حتى الشرفات فلا تقع العين إلا على النور، وكان أئمة الحرم في الليلة قبلها، قد انتهوا في القراءة إليها، وتعطل في تلك الساعة، سائر الأئمة من الصلاة، تعظيماً لختمة المقام، وحضروا متبركين بمشاهدتها، فختم القاضي بتسليمتين، وقام خطيباً مستقبلاً المقام والبيت العتيق، ولما فرغ من خطبته، وانفض الجميع، ونفوسهم قد استطارت خشوعاً، والأفئس قد أشعرت رجاءً، مبشراً بمن الله تعالى بالقبول)

(في الليلة ٢٩، لما اختتم الأئمة الصلاة، أضيئت الأنوار، بالثريات والشمعدانات بالرسم السابق ذكره، احتفالاً، بختام الشهر المبارك).

هذه لقطة عابرة سجلها سائح، ولكنها نافذة تفتح على عالم حافل برمضان).

أحياء رمضان في مصر

وأما في مصر - وخاصة في عهود الفاطميين - فقد كان لشهر رمضان، جلال عجيب. لقد كانت تسبقه مقدمات تبشر بمقدمه، الذي كان يبعث على البهجة والانشراح، بما كان فيه من خير ورخاء عميم، فقد كان نظار الأوقاف، منذ شهر شعبان - يأخذون بتنفيذ شروط الواقفين على المساجد، من تجديد الحُصْر، ونظافة المسجد، وطلانها، وما يلزم كزيادة الإضاءة فيها، وإعداد القناديل للمناير.

وكان سوق الشماعين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين - يحتفل بمقدم هذا الشهر المبارك، فتعلق على واجهات الحوانيت وجوانبها، أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع، وأشكال الشموع، ما بين كبيرة وصغيرة، ومنها شموع المواكب الكبيرة ومنها ما يزن عشرة أرطال، ومنها ما يحمل على (العجلة) ويبلغ وزن الواحد

منها القنطار، يرسم الخروج إلى المساجد والعودة منها ليلاً، وتستمر حوائيته مفتوحة إلى منتصف الليل، لكثرة ما يشتري، وما يكتري من الشموع الموكبية.

وكان (السمكريّة) - منذ شهر شعبان - يعملون الفوانيس، بأشكال مختلفة، ويزينون بها واجهات حوائيتهم. وكانت أنواع جديدة من الحلويات الرخيصة، تصنع كل عام فيتسابق الفقراء إلى اتخاذها، لتوزيعها على الضيوف، والأطفال الذين يتجمعون في كل حارة، فيطوفون على الدور بفوانيسهم، محيين أصحابها بـرمضان. كما كانت أسهم المقرنين ترتفع، حيث تكثر الدعوات الموجهة إليهم، فقد كان أغنياء مصر، يتبارون في انتداب مجيدي القراءة، لتلاوة القرآن الكريم في دورهم، طوال ليالي شهر رمضان، فكانت الأحياء تضاء، وتتجاوب فيها أصوات القرآن، فكانت دورهم تبقى مفتحة طوال الليالي كلها، ومن أجل استقبال الوافدين، لسماع القرآن، مع تقديم القهوة أو القرفة شتاءً، والمرطبات صيفاً.

وكانت للشهر حرمة مقدسة لا يخرقها إنسان، إلا وتعاقبه السلطات، وتطارده الجماهير، فما كان يعرف إنسان أنه مفطر، إلا ويلاحقه الأطفال وهم يستهزئون به وينادون من خلفه (يا فاطر رمضان يا خاسر دينك..). وكانت الأوامر الحكومية تصدر - في منتصف شعبان - بوجوب غلق المطاعم والمقاهي، في جميع أيام شهر رمضان، وتعطيل الدواوين الحكومية، عدا ديوان الخارجية، والضبطية، وتأجيل المشاريع الحكومية إلى ما بعد شهر رمضان، حتى ينصرف المشتغلون فيها إلى الصيام والعبادة.

وقد أقام المستشرق الإنكليزي (لين) عام ١٣٣٣ هـ في مصر، فكتب في مذكراته:

(تسمى الليلة - التي يرقب فيها هلال رمضان -: ليلة الرؤية) فيذهب نفر من الناس عصر اليوم السابق، أو قبل ذلك ليقضوا بضع ليال في الصحراء، حيث يصفو، خاصة لرؤية الهلال الجديد، إذ أن الصيام يبدأ في اليوم التالي لرؤية الهلال، فإذا تعذرت رؤيته بسبب السحب، بدأ الصوم عندما يتم شعبان ثلاثين يوماً، وفي مساء ذلك اليوم، يسير موكب (المحتسب) ومشايخ الحرف المتعددة: الطحانين، والخبازين، والجزارين، وباعة الفاكهة، والبدالين، ومعهم بعض أعضاء من هذه الحرف، وفرق من الجنود، من القلعة إلى مجلس القاضي، وينتظرون شهود الرؤية، وتزدحم الشوارع، التي يمر فيها هذا الموكب بالمشاهدين على الجانبين، وجرت العادة في هذا الموكب أن تقاد خيول مسرّجة بأجمل السروج).

غير أنّ الموكب الديني والمدني، استبدل أكثره بعرض عسكري، فيتكون موكب (ليلة الرؤية) - الآن - من مشاة النظام خاصة، ويتقدم حاملوا المشاعل، كل فرقة من الجنود، ويتبعونها لينيروا لهم الطريق، ويتلوهم شيخ حرفة، وآخرون من أتباعه، والشعب حولهم مهلل ومبكر، ويفصل كل فرقتين، أو ثلاث، عدة دقائق، ويختم (المحتسب) وتابعون الموكب).

وعندما يصل خبر رؤية الهلال، يقسم الجنود الآخرون أنفسهم إلى عدة فرق، وتعود إحداها إلى القلعة: - مقر الحاكم - ويجول الآخرون في الأحياء المختلفة، صانحين: يا أمة خير الأنام، صيام صيام، فإذا لم يظهر الهلال ينادون: غداً من شهر شعبان. فطار. فطار.. ويقضي الناس شطراً كبيراً من الليل - عندما يعلن بدأ الصيام في الغد - في الأكل والشرب والتدخين وبيتهجون وتضاء المساجد طوال الشهر، وتعلق المصابيح عند مداخل المساجد، وفوق شرفات المآذن).

لم يعد المرء يشاهد في رمضان - المارة - يمسون بشبكههم في الشوارع، كما كان يشاهد في أوقات أخرى،

فيراهم بدلاً من ذلك إلى ما قبل الغروب، يحملون عصاً أو مسبحة، ويجاملهم المسيحيون في عدم التدخين علانية، وتبدو الشوارع كنيبة في الصباح، إذ أن كثيراً من الحوانيت تغلق، غير أنها تفتح - جميعاً - في العصر، وتزدحم كالمعتاد، وبعض الصائمين ينحرف مزاجه قليلاً في النهار، وفي الليل بعد الإفطار، يمشون ويمرحون، وعادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرين غيرهم: أن يقصدوا مسجد الإمام الحسين عصر كل يوم من رمضان للصلاة، وفي هذا الوقت، يعرض بعض التجار الأتراك، الذين يسمون (تحفجية) على الناس في (ساحة الميضاة) مجموعة من البضائع ذات ذوق وترف، يلائمان رغبات مواطنيهم وغيرهم).

(ومن الشائع في هذا الشهر، أن تشاهد تجاراً في حوانيتهم، يتلون القرآن أو الأدعية، أو يوزعون الخبر على الفقراء).

(وفي الليل تزدحم، المقاهي بأخلاق الناس، لتناول القهوة، والتدخين في الشبك).

(وفي رمضان على العموم، يوضع كرسي على صينية الطعام قبيل الغروب، في غرفة الاستقبال، بمنازل الطبقتين العليا والوسطى، ويوضع عليها صحاف عديدة، تحوي أصنافاً مختلفة من المرطبات والمكسرات، والبلح، والتين ويجلسون في انتظار الوافدين عليهم، على انتظار وتجهيز الشبكات أيضاً، فقد جرت العادة: أن تزود المنازل التي يكثر زوارها بشبكات للتدخين، فإذا ما أذن للمغرب يشرب رب الدار ومن معه كوباً من الشربات، ثم يقيمون الصلاة عادة، ويتناولون شيئاً من المكسرات المقشّرة، ومن البلح والتين، ويدخنون الشبك، وبعد هذا الأكل الخفيف يجلسون لتناول طعام وافر من اللحم وغيره).

(وبعد الفراغ من الطعام وشراب القهوة، وتدخين الشبك، يقيمون صلاة العشاء).

(وتقفل المساجد الصغيرة في أول الليل تقريباً، وتظل الجوامع الكبيرة مفتوحة إلى السحور، أو إلى الإمساك، ويضاء داخلها ومداخلها ما دامت مفتوحة، وتضاء المآذن طوال الليل، ويختلف مدى الوقت الذي يصومون فيه، ما بين ١٢ إلى ١٦ ساعة تبعاً لطول الليل أو قصره).

(ويتناول المسلمون - على العموم - فطورهم بالمنزل في شهر رمضان، وبعد ذلك يمضون أحياناً، ساعة أو ساعتين، في منزل أحد الأصدقاء، ويقصد الكثيرون منهم - وخاصة متوسطوا الحال - إلى المقاهي مساءً، للاستماع إلى أحد القاصين، الذين يسلون القوم، في عدة مقاهٍ كل ليلة، من هذا الشهر).

(ويشاهد - في الشطر الأكبر من الليل - كثير من المارة في الشوارع وتظل دكاكين المشروبات والمأكولات مفتوحة، وهكذا ينقلب الليل نهائياً، وبخاصة عند الأغنياء، الذين ينام أكثرهم معظم النهار، وجرت عادة بعض علماء القاهرة، أن يقيمون ذكراً في منازلهم كل ليلة من رمضان).

(وفي كل ليلة من ليالي رمضان، يجول المسحرون، ليقولوا أولاً كلمة ثناء أمام كل منزل يستطيع صاحبه أن يكافئهم، في ساعة متأخرة، ويجولون ليعلموا وقت السحور، وكل (خط) أو قسم صغير من القاهرة، مسحر، يبدأ المسحر جولاته بعد الغروب، بساعتين تقريباً، أي بعد صلاة العشاء، ممسكاً بشماله طيبلاً صغيراً، يسمى (بازراً) أو (طيبلة المسحر) وبيمينه عصاً، ويقف أمام منزل كل مسلم غير فقير، وفي كل مرة يضرب طبلته، ثلاث مرات، ثم ينشد قائلاً: (محمد الهادي رسول الله) ثم يعود إلى طبلته، (وأسعد لياليك يا فلان - ويسمي صاحب المنزل) ثم أولاده، دون النساء والبنات، ويضرب طبلته، بعد كل تحية، وهو ينشد أمام منازل العظماء وغيره بعد أن يقول: عز من يقول: لا إله إلا الله، ومحمد الهادي رسول الله) أنشودة طويل، في سجع غير موزون، يبدأ فيها

باستغفار الله، ويصلى على الرسول، ثم يأخذ في رواية قصة المعراج، وغيره من قصص المعجزات).
 (ويتناول المسحر - على العموم - من منزل المتوسطي الطبقة، قرشين، أو ثلاثة قروش أو أربع، في العيد الصغير (مع الهدايا من الكعك) وفي بعض الليالي يطلبون منه قصصاً قصيرة، ويلقون إليه بالنقود من النافذة، فيروي لهم قصة قصيرة، في سجع غير موزون، مثل قصة الضرتين، وهي قصة مشاجرة بين امرأتين، متزوجتين من رجل واحد).

(ويقام في هذا الشهر، أذانان قبيل الفجر، يلقي أولهما، ويسمى (الأبرار) قبل منتصف الليل، ويتكون من الآيات الكريمة: ((إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)).

(ويسمى الأذان الثاني (السلام) وهو مجموعة من الصلاة على الرسول، تشبه تلك التي تقرأ قبل صلاة الجمعة، ويلقى على العموم بعد منتصف الليل، بنصف ساعة).

(ويلقى أذان الصباح، أكثر تكبيراً من المعتاد، لتنبية المسلمين إلى تناول السحور).
 (ويتجول المسحر قبل الإمساك بساعة ونصف، ليوظ من الناس، من أمره بالمناداة عليهم، فيقرع الباب، وينادي إلى أن يجاب، ويفعل مثله بواب الحارة).

(وبعض الناس يتناول فطوراً خفيفاً، ويجعل السحور، والوجبة الرئيسية، ويفعل آخرون بالعكس، ويمضي الكثير من الصالحين، الأيام العشرة الأخيرة من رمضان، ولياليها، في مسجد الإمام الحسين، أو مسجد السيدة زينب).

(ويحتفلون بليلة القدر، ويعتقدون: أن الملائكة تنزل في بدأ تلك الليلة، إلى الفجر، لتحمل النعم إلى المؤمنين، وأن الدعاء يجاب بلا ريب، إذ أن أبواب السماء تفتح حينئذ...)
 (ويراعي الأتقياء، الليالي العشرة الأخيرة من رمضان، بخشوع عظيم، لعدم تحققهم من موعد ليلة القدر، لأن المتواتر، إنها ليلة ٢١ أو ٢٣ أو ٢٥ أو ٢٧ أو ٢٩).

وكان المسلمون في مصر، يحتفون بعيد رمضان، أكثر من احتفانهم بهلاله وكانت الدولة الفاطمية، تبالغ في الاحتفاء بهذا العيد العظيم، حتى سمي - في مصر - ب (عيد الحُلل) حيث كان الخلفاء يخلعون الحلل على الخاصة والعامّة، والحلل الفاطمية، ثياب قيّمة، من نسج (دور الطراز) في (تنيس) و (دمياط) و (الإسكندرية) تعد في خزائن الكسوات، لتوزيعها ليلة العيد.

وفي نفس الوقت تكون (دار الفطر) أنجزت الكميات اللازمة، من (الكعك) و (الحلوى) و (كعب الغزال) لتوزيعها، وإعداد (سماط العيد) وهي كميات كبيرة يعدونها، ابتداءً من شهر رجب، حتى ليلة العيد.
 وكانت ترصد لهذا الموسم، ميزانية ضخمة، لشراء المواد الأولية في أول شهر رجب، كالدقيق والسكر، واللوز، والجوز، والفسق، والسيرج، والسهم، والعسل، وماء الورد، والمسك، والكافور.

كل هذا، عدى المناديل، والمفارش الحريرية، لإعداد السمط، والفوط التي يغطي بها (الكعك) حين توزيعه، فإذا كان التاسع والعشرون من شهر رمضان صدرت الأوامر، بمضاعفة ما هو مقرر للمقرنين والمؤذنين، في كل ليلة، برسم السحور، بحكم أنها ليلة ختم الشهر.

وفي سنة ٥١٥هـ، كان الخليفة: (الأمر بأحكام الله) ووزيره: (المأمون بن البطاحي) يحتفیان بختام رمضان، احتفاءً كبيراً، لتعديل الكثير من تقاليد تلك الاحتفالات، فحضر (المأمون) في آخر النهار إلى القصر، للفقور مع الخليفة، والحضور على الأسمطة، وحضر أخوته، وعمومته، وجميع المدعويين، وحضر المقرئون والمؤذنون، وسلموا على عاداتهم، وجلسوا تحت الروشن، المعد لجلوس الخليفة، وأرسلت سيدات القصور، أواني الماء، ملفوفة في شقق الحرير، وضعت إمام المقرنين، لتشملها بركة ختم القرآن، استفتح المقرنون، من سورة (الحمد) إلى خاتمة القرآن تلاوة وترتيلاً، بأصوات حسنة، ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع، ودعا فأبلغ، ثم رفع الفراشون أواني الماء، برسم سيدات القصور، ثم كبر المؤذنون وهلّوا، وأخذوا في إنشاد أدعية صوفية، إلى أن نثر عليهم الخليفة من الروشن، دراهم ودنانير، ووزعت عليهم أطباق القطائف مع الحلوى، ووزعت خلخ العيد، على الخطيب وغيره، كما وزعت الأموال على المقرنين والمؤذنين.

وفي نفس الوقت، حملت أنواع الكعك والحلويات، إلى قاعة (الذهب) وجدد السماط في (قاعة العرش) مع تماثيل الحلوى، ثم حضر الخليفة مع الوزير إلى الإيوان، والمقرنون، يرتلون آيات من القرآن، يختارونها لتلك المناسبة، مثل قوله تعالى: ((وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِيلَ تَقِيكُم بِأَسْكُم كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُم تَسْلِمُونَ...))

وجلس الخليفة في الإيوان ثم جلس على يمينه الوزير، ثم جلس بعده الأمراء - بعد أداء التحية - كل في المكان المخصص له، وتبعهم الرسل الوافدون من جميع الأقاليم، وهم وقوف في آخر الإيوان.

ثم تقدم متولي كل إسطنبول من الرواض، فقبل الأرض، واستعرض الخليفة ومن معه الدواب بفرساتها، مع ملابسهم المهداة لهم، إلى أن تم عرض الخيل، فعاد المقرنون إلى القراءة، مختارين آيات مناسبة كقوله تعالى: ((زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ...)) ثم تلاوا قوله سبحانه ((قُلِ اللّٰهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)). وبعد استعراض الخليفة الوحوش، باجلة الديباج، والديبقي، بقباب الذهب، والمناطق، والأهلة، وبعدها استعراض النجب، والنجاتي، وبقية أنواع الحيوانات الموجودة في حديقة الحيوان، بالملابس المزركشة، ثم استعرض السلاح وآلات الموكب جميعها.

في حين أن الخليفة، كان جالساً، بين (باب الذهب) و (باب البحر) من القصور الفاطمية، وبعد أن حمل إلى الخليفة، فطوره الخاص، المعطر بالمسك، والعود، والكافور، والزعفران، مع أنواع البلح الملونة، التي يستخرج نواها، وتُحشى بالطيب، في أطباق الذهب، الملكة بالجوهر، فاستعرض الوزير (سماط العيد) ب (قاعة الذهب). وفي نفس الوقت، اعتلى الخليفة سرير ملكه، وقدم إليه فطوره، فجلس عن يمينه الوزير بعد تأدية التحية والسلام ثم أمر بإحضار الأمراء المميزين والقاضي، والداعي، والضيوف، والرسل، وكشف الغطاء عن فطور الخليفة، فتناول ثمرة، أفر بها، وناول مثلها للوزير، فأظهر الفطر عليها، وتناول الخليفة من جميع ما قدم له، وناول وزيره منه، وكلما قدم الخليفة للوزير شيئاً، قبله وقبله، ثم جعله في كفه، وهكذا صنع مع بقية

المدعوين، وكلما قدم الخليفة شيئاً، بيده، قبلوه وجعلوه في أكمامهم (١).

ثم أذن الوزير - بناءً على أمر الخليفة - بافتتاح السماط، والسماح للحاضرين بالأكل منه، وأخذ ما يشتهون معهم، ولا حرج من ذلك، بل له به الشرف والميزة، وافتتح السماط، ثم أذن للناس بالدخول، وأخذ ما على السماط.

وكذلك أعد الوزير في داره سماطاً مثل هذا السماط، لا ينقصه إلا الفطور الخاص بالخليفة، وبعد انصرافه من القصر، أذن بافتتاح السماط للخاصة، ثم أباحتها للعامة.

* * * * *

وكانت صلاة العيد، تؤدي في (مصلّى العيد) خارج (باب القصر) وهي مصلّى كبيرة، قائمة على ربوة من الأرض، وجميعها مبني بالحجر، ومحاطة بسور، وعلى بابها قلعة، وفي صدرها قبة كبيرة بها محراب، والمنبر إلى جانب القبة وسط المصلّى، مكشوفاً تحت السماء، ارتفاعه ثلاثون درجة، وعرضه ثلاثة أذرع، وفي أعلاه مرتفع عليه جلسة الخطيب.

ولما كمل رمضان، وكان أول يوم من شوال، صار صاحب بيت المال إلى المصلّى، خارج باب القصر، ففرش السجاد بمحراب المصلّى، وعلق سترين يمنه ويسره، مرقوم في الأيمن، سورة الفاتحة، وسورة سبح اسم ربك الأعلى، ومكتوب في الأيسر سورة الفاتحة، وسورة هل أتاك حديث الغاشية، وركز في جانبي المحراب، لواءان، مشدودان على رمحين، ملبسين بأنايب الفضة، وهما منشوران مرخيان. ووضع على ذروة المنبر، طراحة من حرير ديبقي، كما فرش درج المنبر، بحرير مثبت فيه.

وسار الوزير من منزله، ومعه كبار الموظفين، وأولاده وإخوته، في ملابسهم الجديدة إلى باب القصر، وركب الخليفة بهينة المواكب العظيمة - مثل موكب رؤيا هلال رمضان، وأول العام - غير أنّ ملابسهم كانت في هذا اليوم بيضاء موشحة، وهي أجمل ملابسهم، ومظلتهم بيضاء موشحة، وخرج من (باب العيد) على عادته في ركوب المواكب، إلا أنّ العساكر في هذا اليوم، من الأمراء والأجناد والركبان والمشاة كانت أكثر، وانتظم الجند له في صفين، من باب القصر إلى المصلّى، فركب الخليفة إلى المصلّى، ودخل من شرفيها، إلى مكان يستريح فيه فترة، ثم خرج محفوفاً بحاشيته، قاصداً المحراب، والوزير والقاضي من ورائه، فصلى صلاة العيد، وقرأ في الركعة الأولى، ما هو مكتوب في الستر على يمينه، وفي الثانية، ما هو مكتوب في الستر الذي على يساره.

ولما انتهت الصلاة، صعد المنبر لخطبة العيد، وقف أسفل المنبر، والوزير، وقاضي القضاة، وكبار الموظفين، والأقارب، ونقيب الأشراف الطالبيين، وعندما ألقى الخليفة خطابه وعاد إلى القصر، كما خرج منه، توافد الناس إليه، فوزع عليهم الكعك والحلوى.

ثم صدر الأمر بإذاعة سجل (عيد الفطر) ونصه:

(أما بعد، فالحمد لله الذي رفع بأمر المؤمنين عماد الإيمان، وثبت قواعده، وأعز بخلافته معتقده، وأذل بمهابته معانده، وأظهر من نوره ما انبسط في الآفاق، وزال معه الظلام، ونسخ به ما تقدمه من الملل، فقال: (إن الدين عند الله الإسلام) وجعل المعتصم بحبله مفضلاً على من يفاخره ويباهيه، وأوجب دخول الجنة

١- كانت الأكمام العربية، واسعة وطويلة، ويحمل فيها الناس أمتعتهم من السوق إلى بيوتهم.

وخلودها لمن عمل بأوامره وانتهى عن نواهيه، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي أصفى له الدين، وبعثه إلى الأقربين والأبعدين، وأيده في الإرشاد، حتى صار العاص مطيعاً، ودخل الناس في التوحيد فراداً وجميعاً، وغدوا بعروته الوثقى متمسكين، وأنزل عليه: ((قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)).

وعلى أخيه وابن عمه، أبينا أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، إمام الأئمة وكاشف الغم، وأوجه الشفعاء لشيعته يوم العرض، ومن الإخلاص في ولائه، قيام بحق، أداء بفرض.

وعلى الأئمة من ذريتهما، سادة البرية، والعاقلين في القضية، والعاقلين بالسيرة المرضية، وسلم وكرم وشرّف وعظم...

ثم جرت في ساحة القصر، مباريات، وأعمال بهلوانية، وضروب من الألعاب المختلفة.

إحياء رمضان في سوريا

وكان المسلمون في سورية، يحتفون بشهر رمضان، كاحتفاء إخوانهم في مصر، فكانت تجري مواكب (هلال رمضان) وتكثر ألوان الحلويات، وتبقى المساجد مكتظة في جميع الليالي بالقراء...

وقد وصفهم رحالة في مستهل القرن الحادي الهجري، بأنهم يحيون ليالي رمضان المعظم بإقامة الصلاة، وتلاوة القرآن، أحسن أداء يورث النشاط، وأنّ المكبرين، يلوّتون في التكبير بالأصوات الحسنة.

وفي أخريات الشهر، يصلون اثنتي عشر ركعة، يزعمون إنها (صلاة الرغائب).

وفي هذا الشهر، يضاء (باب البريد): أحد أبواب الجامع الأموي، ويزين أجمل زينة.

وفي مدينة (حلب) إذا بلغ الطفل سن المراهقة، صام رمضان، فيعمل له في أول يوم صامه، مائدة حافلة، مملوءة من أنواع الحلوى، يفطر عليها.

وكان يخرج قبل العيدين بيومين، رجل مضحك: (مسخرة) يلبس قلنسوة طويلة، وفي أعلاها ذنب ثعلب، وفي يده دف يدق عليه، وأمامه حمار مزين بالخرز الملونة، والودع، معصب الرأس بالمناديل الملونة، فيدور على هذه الهيئة، بالأزقة والشوارع مستجدياً، عارضاً ألعابه، ويسمونه: (جحش العيد).

إحياء رمضان في تونس

وشاركت بلاد المغرب، بقية الأقطار الإسلامية، في الحفاوة بهذا الشهر المبارك، كما شاركتها في بعض عوانده وتقاليده، وهم يحتفلون بهذا الشهر غاية الاحتفال، ويتفرغون فيه للعبادة، ويحيونه بالبر والصدقات.

وفي تونس الخضراء، يختمون في غالب المساجد، القرآن الكريم، كما أنّهم يختمون المسانيد الصحيحة عندهم.

إحياء رمضان في تركيا

وحيث كانت تركيا - عدة قرون - مقر الخلافة، حتى انهارت على يد الدكتاتور العميل، مصطفى كمال، فكان الاحتفاء برمضان فيها أكثر من كل قطر آخر.

ومن أجل العادات - في بيت الخلافة وقتئذٍ -: قراءة تفسير القرآن الشريف في شهر رمضان، بحضور الخليفة، فيحضر في القصر السلطاني، عشرة من مشاهير المدرسين، ومعهم جملة من الطلبة قبيل العصر، وبعد صلاة العصر، يجلس كل واحد منهم في مجلسه الخاص، ويجلس الجميع على شكل هلال، به أريكة الخليفة، فيشرع الذي عليه الدور في الدرس من هؤلاء العشرة، فيقرأ التفسير، ويسأل الطلبة الحاضرون، عما يعنُّ لهم، من الأسئلة، في الآية التي يفسرها، وهو يجيب.

ثم يتبعه في اليوم التالي، أو الذي بعده، على ما تقتضيه إرادة الخليفة، أستاذ آخر من العشرة، حتى تتم عدة شهر رمضان، في سماع تلك الدروس.

ومن العوائد القديمة في (الأستانة) أن يتخذوا صحن مسجد (با يزيد) في شهر رمضان، سوقاً تعرض فيه البضائع في اختلافها، ويبدؤوا بإعداد هذا السوق منذ منتصف شهر شعبان، فلا يأتي شهر رمضان، إلا والصحن معرض عظيم يحرم على النساء ارتياده.

ومن العادات، ترتيب الإضاءة في بعض المساجد، بشكل ألفاظ وعبارات، وكذا بين المنائر، في المساجد المتعددة المنائر، حيث يقرأ: (مرحباً برمضان).

ومن العادات، أن ينزل الخليفة - في نصف رمضان - لزيارة الحزقة المباركة فيحتفل الناس بزيارة الخليفة. ومن التقاليد السائدة في الأستانة: أن يتناول كبار رجل الدولة، الإفطار على الموائد السلطانية، وكذلك أفراد الجند مع أمرانهم، وتوزيع الهبات عليهم بعد الإفطار.

أما في ليلة القدر، فيحتفلون بها احتفالاً خاصاً، يحضره الخليفة في (المسجد المحمدي) ويصلي فيه، وتضاء المدينة كلها، ويكثر الفرح والابتهاج وفي (جامع أيا صوفيا) يجتمع الناس في تلك الليلة بصورة هائلة، ويقرأون القرآن، ويقام بغناء الجامع سوق حافلة.

* * * * *

وأكثر مما سجلنا في مكة ومصر وسوريا وتونس وتركيا، وكانت احتفالات رمضان، في كل بلد من البلاد الإسلامية، وأكثر مما كانت تدور في المستويات الرسمية، كانت تجري في المستويات الشعبية. ولم يكن الهدف من إيراد هذه النماذج - التي قد تبدو باهتة - إثباتها كأنها كل ما في أحفال رمضان، فإن مجالس الدعاء، التي تقرأ فيها الأدعية الماثورة عن أهل البيت (عليهم السلام)، أحفل وأعمق من جميع ما ذكرنا وإنما نهدف من هذه النماذج أمرين:

١- اشتراك السلطات الحاكمة، في إحياء شهر رمضان مباشرة، والناس - أبداً - على دين ملوكهم، فإذا وجدوا شخص الملك يقيم رمضان، فإنهم - بطبيعة التقليد - يقيمون احتفاله بأوسع مقدار ممكن. وهذا واقع إلغاء الحكام في البلاد الإسلامية، فانهسرت مظاهر رمضان، إلا من بعض المساجد البائسة.

٢- إن إحياء شهر رمضان، ليس بمجرد الأدعية والتراتيل. لا بإقامة معنوياته فحسب، فإن شهر رمضان،

شهر يحاول تطوير حياة المسلمين جميعهم، وجميع المسلمين ليسوا في مستوى المعنويات، حتى يتأثروا بها، وإنما هم في مستوى المظاهر، ويكون تأثرهم بموكب الهلال. أكثر من تأثرهم بألف دعاء وتلاوة، فلا بد من إقامة شهر رمضان، بكافة قشوره ولبابه، وشكلياته ومعنوياته، حتى يطور حياة الفقيه والسفيه، والشيخ والطفل، على نسق واحد، بالإضافة إلى أنّ اللباب لا يعيش بلا قشور. أو ليس في الحديث: (ذل قوم ليس فيهم سفيه).

أدب الصوم

أهلاً

أهلاً بضيف يحل اليوم أربعنا***فيزدهي الكون نوراً من محياه
 ضيف كريم به فخر لأمتنا***وفرحة وتباشير بلقياه
 ضيف به رحمة الرحمن مشرفة***على المساجد يهواها وتهواه
 شهر به أنزل القرآن خالقنا***وليلة القدر، يرضاها وترضاه
 من صامه مخلصاً لله أدخله***في جنة الخلد، مغفوراً خطاياه
 ومن أقام ليلاليه فإنّ له***فضلاً عظيماً، وفي الفردوس مأواه
 يا أمة المصطفى الرحمن فضلكم***بأمة وسط إذ غيركم تاهوا
 شهر به الله دون الناس خصكم***لكي تناولوا العلا انتم بلقياه
 طوبى بربيع المكرمات فقد***ناداكم الله، والقران أبدأه

نلت ما ترتجيه

نلت في ذا الصيام ما ترتجيه***ووقاك الإله ما تقيه
 أنت في الناس مثل شهرك في الأشهر***هر، أو مثل ليلة القدر فيه

تهن

تهنّ بهذا الصوم يا خير صائر***إلى كل ما يُهوى، ويا خير صانم
 ومن صام عن كل الفواحش عمره***فأهون شيء هجره للمطاعم

شهر الصيام

شهر الصيام، لقد كرمت نزيلاً*** وشفيت من كل القلوب عيلاً
 فيه الجنان تفتحت لقدمومه*** والخور فيه تزينت تحفياً
 وبليلة قد قام يختم وردة*** متبتلاً لإلهه تبتياً
 فأجهد، عساك تنالها فيما بقي*** بالجد، وأحذر أن تكون غفولاً
 * * * * *

شهر الأمانة والصيانة والتقى*** والفوز فيه لمن أراد قبولاً
 طوبى لعبد صح فيه صيامه*** ودعا المهيم بكرة وأصيلاً
 شهر يفوز على الشهور بليلة*** من ألف شهر فضلت تفضيلاً

البشرى

أيما معشر الصوام وافنكم البشرى*** وقد نشر الباري الباري بمدحكموا ذكراً
 خصصتم بشهر فيه عتق ورحمة*** وقد أجزل الرحمن للسانم الأجرأ
 مساجده مأنوسة بتلاوة*** وذكر، وكانت قلبه تشتيكي الهجرا
 والله في العشر الأواخر ليلة*** لقد عظمت قدراً، كما ملنت خيراً
 فطوبى لقوم أدركوها وشاهدوا*** تنزل أملاك السما آية كبرى
 وفازوا بغفران الإله، وأصبحوا*** يشم عليه من شذا عرفها عطرا
 فطوبى لمن أرضى الإله مسارعا*** إلى سبل تهديه للرحلة الأخرى
 وقام وصلّى في الدياجي ودمعه*** على خذه يجري بمقلته العبرا
 وأخلص لله العظيم قيامه*** وعاهده سرّاً وراقبه جهراً

جاء شهر الصوم

قد جاء شهر الصوم فيه الأمان*** والعتق، والفوز بسكنى الجنان
 طوبى لعبد صامه، واتقى*** مولاه في الفعل ونطق اللسان
 ذلك الذي قد خصه ربه*** بجنة الخلد، وخور الحسان

شهر الرضا

شهر الرضا، والعفو عن زلاتكم***والله فيه عن الجرائم قد عفا
فأحيوا لياليه المنيرة كلها***وأجروا لفرقة الدموع تأسفا

رمضان

رمضان، يا خير الشهور تحية***تضفي عيك من الجلال جلالات
رمضان، ها قد جئت تطرق بابنا***وتريد منا أن نكون رجالاً
إن الصيام عبادة سرية***والسرّ أوسع ما يكون مجالاً
و (الصوم لي وأنا الذي أجزى به)***صدق الحديث، وصح عنه تعالى
بالصوم تنطبع النفوس على الوفا***فيزيدها قدسيةً وجمالاً
(صوموا تصحوا) قالها خير الورى***وبذلك أوصى صحبه والآلا

رمضان تاج

هذا هلال الشهر سل حسامه***وعلى حواشي الأفق خط علامه
رمضان تاج فوق مفرق عامه***وافي يتوج بالكرامة عامه
طوبى لمن فيه تزود بالتقى***وجرى على السنن القويم وصامه
ليس الصيام بأن تجوع ولا بأن***يدع المسيء شرابه وطعامه
بل سرّه أن يمسه الإنسان من***فحش، ويترك سبه وخصامه
فحذار لا يغتب ولا يرفث ولا***يحبط بمعصية الإله صيامه
وليقرأ القرآن فيه مرتلاً***أيامه متفقهها أحكامه
فإنه يجزل للمجاهد أجره***والله يحسن للتقي ختامه

ليلة القدر

يا ليلة جمعت للقول ألواناً***ماذا أثرت؟ وماذا أوتر الآنا؟
كم فيك من أمل تهفو النفوس له***وفيك من ألم ينساب أشجانا؟
في جانبك اذكار المجد مؤتلق***لكنه النار، يسري في حنايانا
يا ليلة زين (التنزيل) غرتها***وأنزلت في كتاب الله (عنونا)

لله نعمة وحي فيك منشدة:*** (اقرأ) محمد (باسم الله) قرآنا
 فرددتها الليالي وهي رافعة***على المدى لرسول الله شكرانا
 يا ليلة القدر، يا ذكرى مفاخرنا***يا (خير من ألف شهر) في الدنيا شانا
 ما ألف شهر بلا عز نسود به***بل ما جميع الليالي دون عليانا
 يا ليلة القدر، لو في الناس مدكر***واهاً لذكراك، بل آهاً لذكرانا
 أتذكرين عهداً للهدى سلفت***ومن بعد ما رفعت للعدل سلطاناً؟
 حتى إذا دارت الأيام دورتها***إذا بنا ننشد الماضي الذي كانا

أجل شهر

شهر الصيام، أجلُّ شهر مقبل***وبه يحص كل ذنب مثقل
 وكذاك أنت، أبرُّ من وطئ الحصا***وأجل أبناء النبي المرسل
 يا حجة الرحمن عند عباده***وشهابه في كل أمر مشكل
 من لم يكن في صومه متقرباً***بل للاله، فصومه لم يقبل

فرض مؤكد

ليهنك أن الصوم فرض مؤكد***من الله مفروض على كل مسلم
 فهننته يا من الله قابل***من الخلق فيه كل نسك مقدم
 ولا زلت منصوراً على فرض صومه***ومعتصماً بالله من كل محرم.

تعدّوا على الصيام

قد تعدّوا على الصيام فقالوا:***حرم الصب فيه حسن العوائد
 كذبوا في الصيام للمرء مهما***كان مستيقظاً أتم الفوائد
 موقف بالنهار غير مريب***واجتماع بالليل عند المساجد

نحييها إلى الفجر

سموت إلى العلياء، يا ليلة القدر***فقد خصك الرحمن في محكم الذكر

تجلى بك الروح الأمين مبشراً***بأنك آمن، بل سلام من الشر
وتحمل قرآنا كريماً مقدساً***يكون دليل الناس للخير والبر
فقد سنه الرحمن للناس شرعة***وبلغة جبريل في ليلة القدر
وفي هذه الأيام كان نزوله***لذلك سنحييه إلى مطلع الفجر
فنحظى بعفو الله حين نقيمها***صلاة وتسبيحاً وبالحمد والشكر.

هلال العيد

ولما انقضى شهر الصيام بفضلہ***تجلى هلال العيد من جانب الغرب
كحاجب شيخ شاب من طول عمره***يشير لنا بالرمز، للأكل والشرب

هلال شوال

وهلال شوال يقول مصدقاً***بيدي غصبت النون من رمضان

العيد

وهنيت من شهر الصيام بزائر***مناه لو أن الشهر عندك أشهر
وما العيد إلا أنت فانظر هلاله***فما هو إلا في عدوك خنجر

أهلاً بفطر

أهلاً بفطر قد أتاك هلاله***فالآن فاغد إلى السرور وبكر
فكأنما هو زورق من فضه***قد أتلفته حمولة من عنبر

الصوم لي

يا صائمي رمضان فوزوا بالمنا***وتحققوا نيل السعادة والغنا
وثقوا بوعد الله إذ فيه الهنا***أو ليس هذا القول قول الإهنا؟:
(الصوم لي وأنا الذي أجرى به)

من صام نال الفوز من رب العلا***وبوجهه أضحى عليه مقبلاً
يا من يروم توّسلاً وتوصلاً***صم رغبة في قول ربّ قد علا:
(الصوم لي وأنا الذي أجزى به)

التسحير

أيها النّوام قوموا للفلاح***واذكروا الله الذي أجرى الرياح
إن جيش الليل قد ولى وراح***وتداني عسكر الصبح ولاح
اشربوا عجلي فقد جاء الصباح
معشر الصوام يا بشراكموا***ربكم بالصوم قد هناكموا
وجوار البيت قد أعطاكموا***فأفعلوا أفعال أرباب الصلاح
اشربوا عجلي فقد جاء الصباح

التشهير بالمفطرين

جاء الكتاب بأعمال لها حكم***إن ظل يعملها الأعمى تبصره
منها الصلاة، ومنها الصوم، هل سقطت***عنك الصلاة لعذر أنت ذاكره؟
صام الأفاضل شهر الصوم، وانسكبت***دموعهم لشهود لست تحضره
وأنت ساهٍ ولاهٍ غير مرتكب***إلا الذي كاتب الأوزار يحصره
أطعت بطنك كالأنعام تطعمها***ما تشتهيهِ إلا نهيّ تحاذوه؟
لهم بطنك ما لا حظت عاقبة***يا من تصاغر، والدنيا تكبره.
وهل ترى الصوم، إلا فرط مرحمة***يهدى لها العبد فضلاً ثم يأجره؟
أهل الكمال في الصوم مصلحة***تخفى على من له بطن تباكره
فيا بطين، ومن تدعوه شهوته***إن يمضي شهر التهاني وهو مفطره
لا أصلح الله حال المفسدين ولا***بمبغض الدين يوماً سرّ زائره

العيد

جرت العادة - منذ أن كانت الخليقة - أن يحتفل الإنسان بـ (عيد) يكرس فيه فرحته وابتهاجه، وفر في أن ينسب هذا (العيد) إلى أحفل موسم من مواسم الجذل والبهجة، فأختار (عيد الربيع) و (عيد الشتاء) وكان (عيد المهرجان) و (عيد النيروز).

ثم وجد أنه أفضل من أن يتواضع لمشاطرة الطبيعة، فيبتهج كلما ابتهجت الأرض، ويكتنب إذا أكتنبت الأرض، فجعل ينحت من أسماء الآلهة المزعومة أعياده، فكان (عيد أدونيس) و (عيد باخوس): عيد لهذا الإله، وعيد لتك الآلهة.

وجاءت الأديان، فسحقت العبادات الوثنية، وانهارت الأعياد الوثنية مها، أنشأت أعياداً أخر، فنشط (عيد الميلاد) و (عيد الفصح) و (عيد جميع القديسين) و (عالعنصرة) و (خميس الجسد)... وكرت السنين.. وأنفلت الناس من الأديان، ولكن غريزة حب العيد، ظلت تنبش في قلوبهم عن مرفأ وحيث إنَّ النَّاسَ قد رجعوا عن عبادة الآلة والأوثان إلى عبادة أنفسهم، كرسوا لأنفسهم أعياداً، فظهر هناك (عيد العمّال) و (عيد الموتى) ثم فكروا في أوطانهم، فأقاموا (عيد العرش) أو (عيد الجمهورية) و (عيد الاستقلال) و (عيد الهدنة).

ثم فكروا في أطفالهم وأمهاتهم، فأبدعوا (يوم الأمّ) و (يوم الطفل). وقد لا تطول الأيام، حتى يعيد الناس (عيد الفضاء) فيحتفلون بـ (يوم المريخ) و (يوم القمر) و (يوم الزهرة) و (يوم زحل).

وفي كل قطر نجد أعياداً خاصة به وبشعبه، ناتجة عن أفكار واتجاهات شعبه، ولكننا نستطيع أن نلخص الأعياد لجميع الأمم الحية والغابرة والطالعة في خطين:

- ١- أعياد مادية تحيي ذكريات انتصاراتها، كـ (عيد الحرية) و (عيد النصر) وأعياد وطنية، وأعياد قومية.
- ٢- أعياد فكرية، تنسب إلى أمور جديرة بالاهتمام، لتشجيعها وإفبات النظر إليها، كـ (عيد الطفل) و (عيد الأم) وأعياد الأبطال، والمناسبات، غير العسكرية.

فما هي أعياد الإسلام؟

إنَّ الإسلام وإنَّ كان يحمد كل عظيم، ويقدّس كل انتصار ينطلق من خطوطه العريضة، إلاَّ أنه ديني عالمي خالد، فهو فوق أن يجرد أعياده من أفراد أو مناسبات، عسكرية أو غير عسكرية. لأنَّ الأعياد الوطنية أو القومية، يمكن أن تنتزع من أفراد خدموا ذاك الوطن، أو أولئك القوم، أو مناسبات تعم كافة أفراد الشعب، الذي يبتهج بها بحيث يشترك كل من أبناء ذلك الوطن، أو أولئك القوم، في الابتهاج بأولئك الأفراد، وتلك المناسبات.

وأما أعياد الإسلام، فلا بد أن تكون عالمية خالدة، يشترك في الابتهاج بها، كل من يوجد في أي مكان من العالم، في أي جيل من البشر. فيما هي أعياد الإسلام، إذن؟

هل هي، ذكرى انتصار المسلمين في (بدر) وفي (الخنق) وفي (فتح مكة)؟ لا شك أعياد انحدرت هي إلينا، وانحدرت انتصاراتها إلينا، وعلينا أن نبتهج بها، فلولاها لما كُنَّا مسلمين، ولكنها - رغم كل ذلك - أعياد مرحلية، ابتهج بها المسلمون الأوائل، أيام أحرزوها، ولكل أمة من هذه الأعياد كثيرة، ولو شاعت إحيائها، ولكان جميع أيامها أعياداً، ولكان كل يوم أعياداً، كما أن لها مأس كثيرة، ولو شاعت إحيائها، لكان جميع أيامها مأس، ولكان كل يوم مأساة، ولكنها تراث وتاريخ، تعزز بهما الأمم، وتؤثر على قيمتها ومستواها، ولكنها لا تقرر حياتها ومصيرها.

فالأيام الفاصلة في الإسلام، كثيرة، والأبطال في الإسلام أكثر، لو وزعناها على أيام السنة، لكان نصيب كل يوم منات منها ومنهم، ولكنَّ المسلمين - اليوم - لا يعيشون تلك الأيام، ولا ينعمون بأولئك الأبطال، ولا يتحرك شعور الإنسان، إلا بالتجارب مع الأيام التي يعيشها، والأبطال الذين ينعم بهم.

فما هي أعياد الإسلام؟ وماذا يعيشه المسلمون من مناسبات الإسلام؟

إنَّ أعياد الإسلام، هي انتصاراته، ولكن ليست تلك الانتصارات التراثية والتاريخية، وإنما هي الانتصارات الحية الخالدة، التي يعيشها المسلمون اليوم وحتى الأبد، كما عاشها المسلمون في أيام الرسول.

لأنَّ الإسلام يرى أنَّ الإنسان وجد على وجه الأرض، ليؤدي دور المصارعة مع الشيطان، مدته منذ بلوغه الشرعي حتى موته، لينطوي إلى الآخرة لاستيفاء مكافأته على فوز المعركة أو خسارتها.

فالعُدو الوحيد للإنسان هو الشيطان - وأما ما سواه فشبَّه العدو - وصراع الإنسان مع الشيطان، طويل يدوم طول حياته الواعية، ومستمر يظهر في كل نامة وكلمة فالانتصار على هذا العدو، انتصار يستحق أن يبتهج به المسلم - في رأي الإسلام - وأما الانتصارات الأخرى، فإنها تافهة، لا يقدرها الإسلام بما يساوي الحزن والفرح، لأنَّ الإنسان أغلى من المادة، ولم يخلق لهذه الحياة، حتى يعيشها بالأفراح والأحزان (لكيلاً تأسواً على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) فمباهج الحياة، لا تسوى أن يفرح بها الإنسان، أو يحزن، وإنما يجدر بالإنسان أن يفرح إذا ربح المعركة في صراعه مع الشيطان ويحزن إذا خسر المعركة في صراعه مع الشيطان. (قلْ بفضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ).

ويبدوا انتصار الإنسان على الشيطان في ثلاثة أيام، هي:

١: عيد الفطر

٢: عيد الأضحى

٣: عيد الجمعة

ففي (عيد الفطر) يجدر بالإنسان أن يفرح، لأنَّ الإنسان قد أعلن المقاومة للشيطان، منذ استهلال رمضان، فأغلق على نفسه نوافذ الشيطان، وتخلَّص لله سبحانه، فلم يستطع الشيطان إغرائه وصرفه عن الله، فثبت انتصاره وانهزام الشيطان، ومن استطاع الانتصار على الشيطان شهراً كاملاً، يستطيع التغلب عليه أبداً.

لأنَّ الشيطان لا يتسلل إلى الإنسان، إلا عن النوافذ الثلاثة، وهي: البطن، الفرج، والمال، فما استزل الشيطان إنساناً، إلا بإغراء أحد هذه الأسباب، والصائم، في رمضان، يعلن حربه على الشيطان بالإضراب عن هذه الوسائل، وكأنه يقول للشيطان: إذا كنت تغري الناس إلى الضلال بهذه الوسائل، فإني قد تركتها جميعاً، فيكفَّ بطنه وفرجه، عن الحلال، لأنَّ الله شاء له أن يتركه ثلاثين يوماً، ثم لا ينقضي الشهر إلا ويدفع زكاة الفطرة، بكمية رمزية من المال، ليعلم أنه على أتم الاستعداد للتخلي عن المال، إذا أمر الله بالتخلي عنه، ومن حصَّن بطنه وفرجه، وتصدق بماله في سبيل الله، فقد أكد انتصاره على الشيطان، فحق له أن يفرح بهذا الانتصار العظيم، فهو في (عيد): (عيد السنة).

وفي (عيد الأضحى) يحق للحاج أن يفرح بانتصاره على الشيطان، ويحق لغيره الحجاج أن يشاطروا إخوانهم الحجاج في فرحتهم الكبرى، وليؤكدوا - جميعاً - أنهم على خط واحد في محاربة الشيطان، سواءً منهم، من خرج إلى (منى) ليأتمر مع إخوان له من كل فج عميق، تجمّعوا على صعيد واحد، لأداء الركن الثالث من أركان الإسلام، وليعلنوا تظاهرهم على الشيطان، ومن لم يستطع أن يشخص إلى (منى) فظل في بلده، ليتوجه بقلبه إلى المؤتمر العالمي السنوي العظيم، وليردد من بعيد ما يردده الحجاج في تلك المشاعر المقدسة.

لأنّ الحاجّ عندما يشخص من أهله، يجرد نفسه من كل ما لديه مهاجراً إلى الله، وهو لا يعلم: هل هو يعود إلى أهله أم تغتاله الأقدار، فيسلم إلى تراب الفيافي النائية، بعيداً عن أهله ووطنه؟؟. ولكنّه يخرج - هائلاً بالمخاوف والأهوال - مهاجراً إلى الله، حتى إذا بلغ الحرم، تجرد حتى من ثيابه واغتسل رمزا إلى تطهّره من الذنوب، ولبس قطعاً من الأقمشة البسيطة، التي تشبه الأكفان، ليشعر نفسه أنه قد تجرد من الدنيا، ودخل باباً من أبواب الآخرة، وتخلع من الأسباب والألقاب، وحشر مع الألوفا من أمثاله، في عرصات تشبه عرصات القيامة، باغترابها، وحرارتها، وجذب أراضيها الواسعة المتجهمة، التي لا زرع فيها ولا ضرع، ولا مفاتن ولا منازة، وهو يردد مع الألوفا:

(البيك، اللهم لبيك لبيك، لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك).

ثم يدخل المسجد العظيم، الذي عاش تاريخ الإنسان، فحمل - عبر القرون - ذكريات أكثر الأنبياء، ثم ضم بين الركن والمقام، أبدان أكثر من سبعين نبياً، وطاف بالبيت - الذي يمثل مركز القداسة الإلهية - وهو يرمز إلى أنه قد وهب نفسه ضحية مخصصة لله، وقبّل الحجر الأسود - الذي لا إغراء فيه ولا جمال، حتى لا يقبله شهوة وعاطفة، بل تقديساً وتذلاً - وقديماً قبله العظيم، كأنه شاء أن يطبع قبلاته الطاهرة، على ذلك الثابت - الذي لا يزحزحه الدهر - ليتبادلها مع مسلمي الأرض، حتى تقوم القيامة فيضع المسلم شفّيته على الحجر، وكأنما يتلمس موضع شفّتي رسول الله، لتكون قبلةً وبيعةً.

ثم يأتي مقام إبراهيم وزمزم، ليعب من الذكريات العظيمة الخالدة، التي تقدمها هذه المشاهد إلى الأجيال، على مسرح القصة الخالدة: قصة الطاعة والإيمان والتسليم: طاعة العبد لربه، وطاعة الابن لربه وأبيه، وطاعة الزوجة لربها وزوجها، قصة إيمان الرجل والمرأة والغلام، قصة الصبر والتسليم.

قصة القضاء على خرافة تقديم الإنسان قرباناً للآلهة، وقد كانت متبعة من عهد قديم، ولطالما أريق الدماء الإنسانية الزكية، على أقدام الأوثان الجامدة استجابة لهذه العقيدة، فأراد الله القضاء عليها على يد خليفه إبراهيم (عليه السلام)، وقصها قرآناً على حبيبه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): ((فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ)) (١)

١ - شكراً لله على أن أنهى مأساة البشرية في ذبح الإنسان تقريباً إلى الله، وجزى الله خليفه عن البشرية خيراً، على أن أقدم على تجربة فداء الإنسان بالحيوان، فقد دلت الأسفار على أن تقديم الضحايا البشرية في العبادات، كانت عادة قديمة، ظلت رواسيها حتى أيام موسى بن عمران (عليه السلام)، حيث ورد في الإصحاح الثاني والعشرين في سفر الخروج: (... حيث حرم على بني إسرائيل، أن يعطوا أبقار أبنائهم قرباناً إلى الله...) ونص الإصحاح العشرين من سفر اللاويين، على عقوبة الرجم، لمن يعطي ابنة قرباناً للرب.

ثم يذبح الحاج ضحيته، وهو يرمز إلى استعداده للقداء متى شاء الله، وكيفما شاء، ويشير إلى دم الإنسان يُفدى بدم الحيوان، فيذبح الضحية، تطهراً لنفسه، وعهداً ببرمه بينه وبين الله، وكأنه يريد أن يقول: (إن كان إبراهيم (عليه السلام) أطاع ربه فأقدم على ذبح عواطفه وشهوته في ذبح ولده، فقد أطعت ربي في ذبح أهوائي وشهواتي ممثلة في ذبح كبش أخرجته من حر مالي).. وتخليداً لذلك الحدث الحاسم، الذي أحدث تطوراً سلبياً في صيغة الأديان ولوتها بهالة السلام بعدما كانت منطخة بدماء الأطفال الأبرياء، وأوجد انقلاباً فكرياً وعاطفياً وتاريخياً، اشتركت في أدائه السماوات والأرض.

وينتهي المطاف برمي (الجمرات) الثلاث - التي تمثل أشباح الشياطين المشوهة - بصغار الأحجار، رمزاً إلى ضووله قدر الشيطان، أن يرمي بالأحجار الكبار. وعندئذٍ فقد أنتصر على الشيطان، فلقد تخلى عن جميع المغريات المادية، وقدم حياته الخاصة، لقمة سائغة للأخطار، وعاش ذكريات النبيين، ثم ضرب الشيطان بالأحجار، فما كان من الشيطان إلا أن تقهقر وانهزم، وما دام قد ربح هذا الانتصار العظيم، فهو في (عيد): (عيد النصر) و (عيد التحرر).

* * * * *

وفي (عيد الجمعة) يحق للمسلم أن يهنأ ويستبشر، فالمسلم الذي عاش أسبوعاً كاملاً، في طاعة الله، وتمرد على الشيطان، فلم يندع بتسويلاته ومغرياته، وختم أسبوعه بيوم الجمعة، فقدم الصدقة، ووصل الرحم، ودعا بالمأثور، فقد انتصر على الشيطان، فهو في عيد: (عيد الأسبوع).

* * * * *

فهذه الأعياد الثلاثة، أعياد الإسلام، لأنها أعياد النصر البشري، التي يعيشها كل مسلم في أي مكان ومن أي جيل كان، منذ عهد الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يوم القيامة، دونما تمييز أو اختلاف، فهي الجديرة بأن يتبناها الإسلام أعياداً، لأنها أعياد تنسجم مع طبيعة الإسلام، فهي أعياد عالمية خالدة، كما أن الإسلام دين عالمي خالد.

خاتمة

لقد قرأنا عن رمضان، وعرفنا بعض أسرار الصوم، وتذكرنا الانتصارات الجبارة، التي أحرزها المسلمون بوحى هذا الشهر الكريم، وغمرنا موسم تجارة المتقين، فجاء شهر أول صفحة منه التوبة والصلاح، وآخر صفحة منه الابتهاج بـ (عيد النصر) على الهوى والشيطان، ومارسنا (الصوم) الذي له اتصال عميق بجميع الفضائل والقيم العليا، ويحرك الركائز الدفينة، التي تتجدد وتتطور، تبعاً لتجدد البشر، وتطور العقل البشري، ثم انقضى شهر رمضان، ذلك الشهر الطاهر، الذي إن لم تخرج منه ملكياً ربانياً. فلا أقل من أن تكتسب فيه قدرة على مغالبة الشهوات ومكافحة الأهواء.

فماذا كان نصيبنا من هذا الشهر المانع الوهاب؟

فهل أن لهؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويستحلون حرمات الله أن يفظموا أنفسهم عن الظلم والاستنثار.

وهل أنْ لأولئك الجبناء، الذي يخضعون للشهرة والشهوة، ويعبدون المناصب والرواتب أن يستمدوا من هذا الشهر إرادة تعصمهم عن الانسياق في المزالق، وعقلاً يمنهم من الاتحار في الهفوات؟
وهل أنْ للعبيد، الذين يسلبون حريات الناس، يدفعونهم بالحديد والنار إلى الخطيئة والجريمة أن يرفعوا العسف والاستبداد، ويتركوا الناس لسنة الله وإرادة الإسلام؟
وهل أنْ للحضارة الغربية، التي أطفأت الروح وطمست معالم الحق، ثم قبعت في كل ثغر، لتهدد العالم بالموت والدمار أن تتراجع عن علمانيتها الحاكمة، وتلتزم بتوجيه الإسلام؟
يا حبذا لو اشترك الفن والأوضاع والتقاليد - معاً - في الصيام.
فصام الفن عن إثارة ما كمن في الطبيعة من ضعف وميل ورغبة، والإغراء بالخروج على المبادئ والخلق العظيم.

وصامت الأوضاع، عن توجيه المجتمع إلى الكفر والجهل والمرض، والجريمة والهاء الأفراد والجماعات بالمناورات، والأحزاب، والأحقاد، والمهاترات.
وصامت التقاليد، عن الضحكات الرقيقة والهو الخليع، والارتداء في المتاهات والغوايات.
إننا نأمل أن تردنا التكاليف الإسلامية، إلى الطريق المستقيم، وأن تجعلنا - أبدأً - عند منطلق العقل والإيمان.
اللهم فوفقنا لصيامه وقيامه، وتلاوة كتابك، وحبب إلينا العدل والإيمان، وكره إلينا الفسوق والعصيان، ورضنا بما قسمت لنا، ووفقنا لما تحب وجنبنا ما تركه، إنك سميع مجيب الدعاء.

كربلاء المقدسة

١٣٨٢/٩/٢٨ هـ

حسن